



رواد الشرق العربي في العصور الوسطى

نقولا زيادة







روَّاد الشَّرق العربي
في العصور الوسطى

تأليف: نقولا زيادة

صدرت الطَّبعة الأولى عام ١٩٤٣

وزارة الثقافة الفلسطينية

سلسلة الموروث الثقافي

اسم المؤلف: نقولا زيادة

اسم الكتاب: رواد الشرق العربي في العصور الوسطى

الطبعة الأولى: ١٩٤٣

الإشراف العام: عبد السَّلام عطاري

مراجعة وتدقيق: حنين خالد عِناية

تصميم الغلاف: فاطمة حسين

فلسطين

www.moc.pna.ps

رواد الشرق العربي
في العصور الوسطى

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة، بل كانت ارض معطاءة
وكان ابناؤها وبناتها مبدعين في الشعر والقصة والرواية
والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر
والفلسفة. ان هذه الكوكبة من الكتب التي نعيد اصدارها
تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عن عظمة هذا
الشعب وحبه للثقافة والمعرفة.

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات
والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد
وكانت منارة يهتدي بها الآخرون، ويفدون اليها طلباً
للعلم والمشاركة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها.
نعتز بموروثنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا، ونريد ان
نحافظ عليه، ونريد للاجيال القادمة ان تقرأه وتعتز
به وتبدع كما ابدع اسلافهم.

٣٠/٣/٢٠٢٠

مقدمة: العالم العربي في العصور الوسطى

•••

الفتوح العربية الإسلامية

امتدت الفتوح العربية الاسلامية قرنا وبعض القرن بعد وفاة النبي، وكانت متعددة النواحي منوعة النتائج، فقد كانت فتحا عسكريا امتد إلى الهند والصين شرقا، وبحر الظلمات غربا. وكانت فتحا عنصريا بمعنى أن الجنس العربي تغلب على الأجناس الأخرى وتمثلها في بعض الأقطار دون الأخرى. وكلما قرب القطر من بلاد العرب نفسها، كان استيطان العرب فيه أكثر وتأثره بالعنصر العربي أكبر. وكانت فتحا لغويا. فقد انتشرت اللغة العربية في الأقطار المفتوحة انتشارا سريعا. وإذا كان ثمة من يجب أن يذكر بالخير في هذه المناسبة، فالفضل يعود إلى عبد الملك بن مروان والمأمون. فالأول عرَّب الإدارة، فجعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية. والثاني نقل العلوم إلى العربية فعرب الحركة الفكرية والعقلية على أنه يجب أن نذكر فتحا رابعا تم في هذه الفترة، هو الفتح الديني. فقد انتشر الاسلام في الأقطار المفتوحة لأسباب كثيرة لا يتسع المجال لبحثها الآن.

وهذه الأمور هي التي عينت اتجاه الأمم والشعوب التي خضعت للعرب، فتلك التي خضعت لسلطان العرب السياسي وحده حاولت الثورة أو الخروج، فلما واتتها الظروف استردت حياتها الأولى وبعض هذه الشعوب استقلت سياسيا، لكنها احتفظت من الفتوح العربية بالفتح الديني، إذ كان الإسلام قد تغلغل فيها. أما البلاد التي أصبحت

عربيـة دمـا ولغـة وفكـرا وعقـلا، فهـي التـي تحدهـا جبـال فـارس شرقـا وجبـال طـوروس شـمالا ثـم تمتـد غربـا فتشـمل مـصر وشـمال أفريقيـة كلـه. وهـذه الحـدود اللغويـة تتفـق مـع حـدود طبيعيـة كان اجتيازهـا صعبـا عـلى عـدد كبـير مـن العـرب. فلـم يقطنـوا وراءهـا جماعـات كبـيرة ولذلـك اقتـصر تأثيرهـم فيهـا عـلى الديـن أو السياسـة. وإذا نحـن عرضنـا لتاريـخ العـرب إلى نهايـة العـصر العبـاسي الأول ألفينـاه وحـدة زمانيـة يصـح أن ينظـر إليهـا نظـرة واحـدة فقـد تـم فيهـا الفتـح الـذي ذكرنـاه واتجهـت شـؤون الامبراطوريـة الاسـلامية نحـو الاسـتقرار. ولقـد كان يغلـب عـلى فـترة منهـا دون الأخـرى رأي، أو تسـيطر عليهـا فكـرة خاصـة، ولكـن الوحـدة هـي الرابـط الرئيـسي بينهـا. فقـد كان دور الخلفـاء الراشـدين يغلـب عليـه الديـن لقـرب عهـد النـاس بالبعثـة ولتأثرهـم بحيـاة الرسـول والصحابـة وكان عهـد الأمويـين تغلـب عليـه العروبـة. وعهـد العباسـيين الأول سـيطرت عليـه نزعـة فارسـية في إدارتـه. لكـن في كل حـال كان الخليفـة مصـدر السـلطان الحقيقـي، وإليـه يرجـع في حـل المعضـلات، وشـخصيته هـي التـي تفـرض إرادتهـا عـلى شـؤون الدولـة وتلونهـا بلونهـا. ولا ريـب عندنـا في أن انتقـال عاصمـة الخلافـة مـن المدينـة إلى دمشـق، ثـم إلى بغـداد كان لـه دلالـة كبـيرة. ففـي الحالتـين الأوليـين كانـت الدولـة العربيـة تتجـه إلى بـلاد العـرب نفسـها وترتكـز عليهـا. أمـا في الحالـة الثالثـة فقـد اعتمـدت العاصمـة عـلى جبـال فـارس وارتكـزت عليهـا. لكـن خلفـاء العـصر العبـاسي الأول كانـوا عـلى درجـة مـن قـوة الشـخصية وعلـو الهمـة تجعـل السـيطرة الأجنبيـة تقـف عنـد حـد.

تفكك الوحدة السياسية

علـى أننـا نلحـظ أن هـذه الوحـدة السياسـية لم تلبـث أن تضعضعـت، ولم يمـض قـرن مـن الزمـان حتـى كانـت الرقعـة التـي رفـرف عليها علـم العروبـة والاسلام قـد تجـزأت. وقـد أكـثر المؤرخـون مـن التحـدث عـن هـذه الناحيـة مـن التاريـخ الإسلامي وأفاضـوا في معناهـا ودلالتهـا. ولكننـا نعتقـد أنـه لم ينظـر إليهـا بعـد نظـرة صحيحـة بعيـدة عـن الهـوى. فالواقـع أن هـذا الانقسـام السـياسي كان أمـراً طبيعيـاً ونتيجـة محتومـة. فقـد كانـت رقعـة العـالم العـربي عندئـذ واسـعة شاسـعة متباعـدة الأطـراف، وكانـت المسـافة بـين جزئهـا الشرقـي وطرفهـا الغـربي يحتـاج في قطعهـا إلى عـشرة أشـهر عـلى مـا قـدره المقـدسي. ومـا كان مـن المتيـسر أن تـدار هـذه الرقعـة كلهـا مـن مركـز واحـد في القـرن الثالـث أو الرابـع للهجـرة وقـد كانـت المواصلات عـلى مـا نعـرف ومـن ثـم فقـد كان مـن الطبيعـي أن تتخـذ الشـكل السـياسي الـذي اتخذتـه في تلـك الايـام وكان انقسـامها الى ثـلاث وحـدات - تتمركـز إحداهـا حـول العـراق، وأخـرى حـول مـصر، والثالثـة حـول الأندلـس - حـلاً لمشـكلاتها. لكـن الـذي نأسـف لـه، ونحـن نشـير إلى هـذا الأمـر، هـو أن هذه الوحـدات السياسـية لم تلبـث أن وقـع بينهـا الخـلاف واسـتحكمت بينهـا العـداوة، فاختصمـت واحتربـت وكان بعضهـا عونـاً للأجنبـي عـلى البعـض الآخـر. وثمـة أمـر آخـر يؤسـف لـه وهـو التجـزؤ الموضعـي لهـذه الوحـدات الكبـيرة، ولسـنا نطمـع في أن تـؤرخ للعـالم العـربي في هـذه العجالـة، ولكننـا نريـد أن نضـع بـين يـدي القـارئ صـورة موجـزة لمـا كان عليـه هـذا العـالم في العصـور الوسـطى تمهيـداً للتحـدث عـن الرحالـة.

ونحن واجدون أن دولة الطولونيين ٢٥٤ - ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥م كانت أولى الدول التي انسلخت عن الخلافة العباسية في الجهة الغربية من المنطقة التي نريد أن نشرف عليها الآن. أنشأها أحمد بن طولون وأدارها عشرين سنة، ثم ولي شؤونها ابنه خمارويه. وفي عهدها ازدهرت شؤون، مصر، لكن الضعف تسرب إلى الدولة فعادت مصر إلى الخلافة. ولعل السر في انحلال هذه الدولة يرجع إلى أن مؤسسها كان غريبا عن مصر، وكذلك ظلت أسرته من بعده.

فتوحات أحمد بن طولون

ضم أحمد بن طولون سورية إلى ملكه، إذ حمل عليها سنة ٨٧٧ - ٨٧٨م، فسلمت دمشق والمدن السورية الكبيرة حتى طرسوس، وقاومت انطاكية، لكنه تغلب عليها في النهاية، ووصل ملكه إلى حدود الفرات. وإلى هذه المدة يرجع اهتمامه ببناء ميناء عكاء. وأرسل ابن طولون حملتين ضد البيزنطيين من طرسوس، كان النصر حليفه فيهما سنة ٨٨١ وسنة ٨٨٣ م، ثم سار بنفسه لمعاقبة قائده خلف، لما عصي عليه واستأثر بالأمر. ولما مات ابن طولون وخلفه خمارويه اتفق حاكم الموصل والانبار على رد سورية لسلطة الخلافة، فحملا على سورية واحتلا دمشق سنة ٨٨٥ م، لكن خمارويه عاد بعد أقل من عام واسترد البلاد ودخل دمشق سنة ٨٨٦م. وتدخل في شؤون حكام شمال العراق وأقام سنة في تلك الجهات بسبب حروب تلك الجهات بسبب حروب الأمراء، وانتهى الأمر بخمارويه أن حسنت علاقته بالمعتضد العباسي، فتزوج هذا ابنة حاكم مصر على أن الدولة انحلت بعده كما ذكرنا

قبلاً، ولم تلبث أن شقت مدن سورية الشمالية عصا الطاعة وهاجم القرامطة سورية سنة ٨٩٨م وأنزلوا بالجيوش المصرية خسائر فادحة. ولم تلبث دولة ابن طولون أن انتهى أمرها بعد ذلك ببضع سنوات. على أن ابن طولون له في مصر آثار عمرانية منها الجامع المنسوب إليه، ومنها الطرق، ومنها مدينة القطائع والبيمارستان والقناطر المعروفة باسمه، وقصر ابنه خمارويه يدل على درجة كبيرة من الترف. ومرت على مصر ثلاثون سنة وهي تابعة للخلافة العباسية مباشرة، حتى جاء الأخشيد فأعاد إليها استقلالاً انفصالياً على نحو ما فعل ابن طولون. الدولة الأخشيدية ٢٢٣ - ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٥ - ٩٦٩م أنشأها محمد بن طغج ولم يلبث أن تلفت نحو سورية. وكان يعتبرها تابعة له على غرار ما فعل ابن طولون من قبل. وكان مزاحمه في شؤونها ابن رائق حاكم حلب، فهاجم هذا حمص ودمشق واحتلهما ... فجاء الأخشيد يقود جيشاً للدفاع عن البلاد. وبعد معارك دامية اتفق الاثنان سنة ٩٤٠م على أن تكون البلاد إلى الشمال من الرملة لابن رائق ولما توفي الأخير بعد نحو سنتين استرد الأخشيد سورية بكاملها، ثم منحه الخليفة ولاية مكة والمدينة، فعظم شأنه واشتد نفوذه. وهناك شخص آخر يستحق الذكر في هذه الدولة هو أبو المسك كافور صاحب المتنبي.

الدولة الأخشيدية في سورية

على أن الدولة الأخشيدية لقيت في سوريا خصوما أشداء في الدولة الحمدانية ٣٣٢ - ٤٠٧ هـ ٩٢٩ - ١٠١٦م. نشأت هذه الدولة التغلبية العربية في الموصل. لكن في سنة ٩٤٤م تقدم سيف الدولة إلى حلب

فاستخلصها من أيدي الأخشيديين ثم أتبعها بحمص، واتخذ الأولى عاصمة له وأنشأ هذه الدولة الضخمة في شمالي سورية، التي عرفت عزها في ايام سيف الدولة نفسه، وخليفته سعد الدولة. أما بعد هذا فقد كانت الدولة كلها تابعة للفاطميين، ذلك لأن الحمدانيين كانوا شيعة، ولأنهم فضلوا محالفة الفاطميين والخضوع لهم على الخضوع للبيزنطيين الذين كانوا يغيرون على شمالي سورية غارات قوية آنئذ.

كان بلاط سيف الدولة ملتقى جماعة من رجال الشعر والأدب والعلم... فالمتنبي وأبو فراس والفارابي وأبو الفرج الأصفهاني وابن نباته كانوا في بطانته، هذا إلى عدد كبير من الأطباء.

لكن شهرة سيف الدولة ترجع من ناحية أخرى إلى الحملات التي شنها ضد البيزنطيين عشرين سنة متوالية منذ ٩٤٧م. احتل سيف الدولة مرعش، ولكن الحرب كانت سجالاً، فقد حاصر نقفور حلب واستولى على انطاكية (بقيت بأيدي البيزنطيين من ٩٦٩ إلى ١٠٨٤م. ومع أن الحمدانيين خسروا كيليكيا وأنطاكية فإن قيامهم في ١٠٨٤م). تلك الفترة اوقف تقدم البيزنطيين عند حد، مع أنهم كانوا في هذه الفترة ينعمون بقيادة إدارية وعسكرية حازمة على يد نقفور ويوحنا تسيمسكز وباسيل الثاني ٩٦٣ - ١٠٢٥م. وهذا هو فضل الحمدانيين على الوطن العربي.

أما الجزء الشرقي من المنطقة التي نعني بها، فقد حكمها البويهيون ٣٣٤ - ٤٤٧ هـ / ٤٥ -١٠٥٥م، الذين كانوا حكام الدولة العباسية الفعليين، فكانوا يولون الخلفاء ويخلعونهم كما يشاؤون، والبويهيون كانوا

شيعة، وقد اعتنوا بالحياة العلمية فازدهرت في أيامهم حلقات الدرس الفلسفية وإلى عصرهم ترجع رسائل اخوان الصفا». على أن الدولة التي تولت شؤون الدولة العباسية بعد البويهيين والتي قيض لها أن يغزو الغرب سورية في أيامها كانت دولة السلاجقة ٤٤٧ - ٦٥٦ هـ / ١٠٥٦ - ١٢٥٨م. وقد كان الثلاثة الأوائل من السلاجقة عظاماً بالمعنى الواسع للكلمة وهم طغرل (١٠٣٧ - ١٠٦٣م) والب أرسلان (١٠٦٣) - (١٠٧٢م) وملكشاه (١٠٧٢ - ١٠٩٢م). ولم يقم من هؤلاء في بغداد إلا الأخير، وكان ذلك في السنة الأخيرة من سلطنته.

السلاجقة العظام

ونحن نسمح لأنفسنا بأن نتناول هؤلاء السلاجقة العظام والأسر المحلية التي تفرعت عنهم ونشأت منهم بشيء من التفصيل، لأن هذه الفترة كبيرة الشأن في تاريخ العالم العربي الإسلامي. فإن الب أرسلان استولى سنة ١٠٦٤م على أرمينيا، التي كانت ولاية بيزنطية، وضمها إلى سلطنته. وفي سنة ١٠٧١م تغلب على جيش بيزنطي في معركة ملازكرد (منزيكرت) شمالي بحيرة فان، ونقل جماعة من قومه إلى آسيا الصغرى. وولى أمر هذه المنطقة سليمان بن قطلمش الذي أنشأ فيما بعد (١٠٧٧م) سلطنة عرفت باسم سلاجقة الروم. وفي سنة ١٠٩٤م أنشأ ططش بن ألب أرسلان دولة السلاجقة السورية واتخذ حلب عاصمة له.

ويعد زمن ملكشاه دوراً من أدوار الرخاء الاقتصادي والأمن الداخلي والعمران في الطرق والتقدم العلمي... فقد كان من الممكن أن يسافر

المرء من تركستان إلى سورية دون أن يحتاج إلى حماية أو حراسة. وقد أعانه في أعماله نظام الملك مؤسس المدارس في الإسلام. وهذا العصر هو الذي ظهر فيه ناصري خسرو الرحالة والشاعر عمر الخيام.

وقد اقتسم موالي السلاجقة وقوادهم سلطنتهم بعد موت ملكشاه، فتفرقوا وذهبت ريحهم ومن ثم كانت سورية لقمة سائغة للجموع الصليبية التي دهمتها بعد ذلك ببضع سنوات.

وفي الوقت الذي كان فيه البويهيون يتخلون عن دولتهم للسلاجقة ويؤسس فيه هؤلاء سلطنتهم، كانت مصر قد أصبحت مركزاً لخلافة لها في تاريخ الاسلام السياسي وتاريخ الفكر الاسلامي والحضارة الاسلامية خطرها وقيمتها ... تلك هي الخلافة الفاطمية.

الخلافة الفاطمية

بدأ الفاطميون ملكهم في المهدية، وفي سنة ٣٥٨ هـ - ٩٦٩م انتزع جوهر الصقلي مصر من بني الأخشيد وأنشأ القاهرة التي أصبحت عاصمة الفاطميين، وقبلت مكة والمدينة سلطان الخليفة الفاطمي (المعز) ودعي له على المنابر فيهما. وكذلك دخل الحمدانيون (في حلب في طاعته، أما جنوب سورية، فقد كلف الفاطميين حملة بقيادة جعفر بن فلاح، فحارب حسن (وكيل الأخشيديين) الذي كان عاصياً بالرملة فانتصر عليه، ثم اتجه نحو دمشق واحتلها ٩٦٩ م. لكن قبل أن يتيسر لجعفر أن ينظم شؤون دمشق، جاءها حسن القرمطي فاحتلها وأخرجه منها. وقد أعانته على ذلك قبائل العرب السورية مثل طي وعقيل.

وتوجـه حسـن إلى الرملـة وحـصر جيشـاً فاطمياً في يافـا ثـم هاجـم مـصر وحـاصر القاهـرة واخـترق خنادقهـا، لكنـه صـد عنهـا وهـزم ففـر مـن حيـث أتى حتـى وصـل إلى دمشـق، وهنـاك أخـذ يجمـع أمـوره مـن جديـد. وكانـت هـذه الحادثـة كافيـة لحمـل المعـز عـلى المجـيء إلى القاهـرة ،٩٨٣م، وفي السـنة التاليـة عـاد القرمطـي إلى مـصر، لكـن المعـز كان مسـتعداً فـرده، بعـد أن فـرق بنـي طـي عنـه، واتبعـه بجيـش تغلـب عـلى فلـول جيـش حسـن واحتـل قائـد الفاطميـين طرابلـس وبـيروت مـن البيزنطيـين، لكـن دمشـق صمـدت لأن افتكـين كان قـد نظمهـا، وتعاهـد هـذا مـع تسيمسـكز البيزنطـي الـذي جـاء ليسـتعيد الميناءيـن، لكـن جيـوش الفاطميـين غلبـت البيزنطيـين فعـادوا ادراجهـم. أمـا دمشـق فلـم تخضـع نهائيـاً للفاطميـين إلا في سـنة ٩٨٨م. وهكـذا كانـت طرابلـس عـلى السـاحل ودمشـق في الداخـل أقـصى حـد وصلـت إليـه سـلطة الفاطميـين التامـة في سـورية. أمـا أنطاكيـة فكانـت بأيـدي البيزنطيـين وأمـا حلـب فقـد ظلـت عاصيـة إلى أيـام سـعيد الدولـة الـذي وضـع نفسـه تحـت حمايـة الفاطميـين لينـصروه ضـد البيزنطيـين.

كانـت سـورية ميدانـا لحـروب عنيفـة بـين الفاطميـين وأباطـرة بزنطـة، وكلا الفريقـين يحـاول التقـرب مـن العنـاصر القبليـة الثائـرة ويسـترضيها لتؤيـده. وفي مقدمـة هـذه كانـت أسرة الجـراح في الرملـة وبنـو عقيـل وطـي في الداخـل وبنـو عـمار في طرابلـس، وكانـت هـذه الحـال تتجـدد عنـد قيـام كل خليفـة جديـد، فقـام بنـو مـراد في حلـب، عـلى أن الثلـث الأول مـن القـرن الحـادي عـشر الميـلادي انتهـى بتركيـز السـلطان الفاطمـي في سـورية

كلها على يد أنوشتكين، فأصبحت البلاد كلها راضية بالحكم الفاطمي وصار اسم الخليفة يذكر على المنابر حتى في الرقة على الفرات. لكن هذه الحالة لم تدم أكثر من عشر سنوات.

كان السلاجقة قد تقدموا غرباً على نحو ما رأينا فاحتلوا القدس سنة ١٠٧١م ودمشق ١٠٧٦م. لكن جيوش بدر الجمالي استرجعت عكا وصور وجبيل للفاطميين. أما مصر فقد استمتعت في زمن الفاطميين بمركزها الذي هي أهل له في العالم العربي الاسلامي، وخاصة في أيام الخلفاء. فكانت مركزاً للفكر والحياة العلمية على ما نعرف من مختلف المصادر. وقد زار ناصري خسرو مصر في أيام المستنصر وترك لها وصفا وافياً نستدل منه على ما بلغته من ثروة وعظمة على أن تلاعب الوزراء في شؤون الخلافة، وتوليتهم خلفاء صبيانا ليكونوا آلة في أيديهم، أديا إلى إضعاف مصر. وتوالى عليها، فضلاً عن ذلك قحط وجوع ووباء، فأدت هذه الأسباب كلها مجتمعة إلى إضعاف البلاد. فهيأت بنفسها الجو الذي مكن لصلاح الدين من القضاء على الخلافة المضطربة، وإنشاء دولته الأيوبية على أنقاضها وعلى أنقاض الدولة النورية في سورية. ظلت الأندلس وشمالي أفريقية جزءا من الامبراطورية العربية الواحدة حتى انتهاء الحكم الأموي، لكن مجيء العباسيين كان إيذانا بالتصدع. ففي سنة ٧٥٤م أنشأ عبد الرحمن الداخل إمارة أموية بالأندلس هي التي حولها عبد الرحمن الناصر سنة ٩٦١م إلى خلافة أموية. وقد استمرت وحدة إلى القرن الحادي عشر، حيث أخذت بالتفسخ، مما أفسح في المجال للإسبان في استعادة البلاد تدريجاً، حتى تم لهم الاستيلاء على آخر مركز للعرب هناك

وهو غرناطة سنة ١٤٩٢. وفي العصر العباسي الأول ظهرت في المغرب دولتان استقلتا فعلاً عن الامبراطورية العباسية، أولاهما دولة الأدارسة (٧٨٨) - (٩٧٤م) في مراكش وقد أنشأها إدريس الأول، وإلى خليفته إدريس (الثاني) يرجع الفضل في إنشاء مدينة فاس (٨٠٨) التي أصبحت إحدى مراكز الحركة الفكرية في المغرب بسبب إنشاء جامع القرويين فيها. وأما الثانية فهي دولة الأغالبة (٨٠٠ - ٩٠٨) في تونس. فقد عين هارون الرشيد إبراهيم ابن الأغلب والياً على تونس، فاستقل هذا داخلياً وأسس إمارة وراثية ازدهرت في عهدها احوال البلاد الاقتصادية في زراعتها وصناعتها وتجارتها، واتسعت الفتوح بحيث شملت صقلية. وقد اهتمت الدولة بالعمران سواء في ذلك بناء المساجد الكبرى - وفي مقدمتها مسجد القيروان - والأسوار والحصون والصهاريج لخزن المياه (مثل صهريج الاغالبة في القيروان).

الدولة الصنهاجية

زالت دولة الادارسة بقيام الدولة الفاطمية في المهدية ٩٠٩ م، لكن هذه انتقلت سنة ٩٦٩ إلى القاهرة، وأصبح المغرب العربي تابعاً إما للأندلس أو تحت امارات صغيرة مستقلة، ولكن لم يعرف وحدة سياسية. ولعل أكبر دولة ظهرت إلى الوجود في هذه الفترة هي الدولة الصنهاجية (٩٧٢ - ١١٤٨م) وتعرف بالدولة الزيرية، وقد انتشرت إلى الجزائر أولاً، شأن الاغالبة، لكنها لم تلبث أن تقلصت بحيث اكتفت بالديار التونسية. وقد قلد الصنهاجيون الاغالبة باهتمامهم بتنمية موارد الحياة الاقتصادية والأدب والعمران.

جاءت الغزوة الهلالية في أواسط القرن الحادي عشر، فنتج عنها ازدياد التعرب والتعريب، لكنها أدت إلى تقويض الكثير من معالم الحضارة والعمران في تونس والجزائر، وقامت على أنقاض ذلك دويلات كثيرة.

وهكذا نرى أن القرن الحادي عشر الميلادي شهد ظهور دويلات صغيرة في أنحاء المغرب، كما عرف ظهور دويلات مماثلة في المشرق واحتلت بعض أجزائه على أيدي الصليبيين، كما أخذت تحتل بعض أجزاء مغربه في أسبانية وصقلية وحتى إن النورمان استولوا على معظم السواحل بما في ذلك المهدية في القرن الثاني عشر). في مثل هذا الجو المضطرب المفكك جاء الصليبيون إلى الشرق... ولو كنا نؤرخ للحملات الصليبية، لكان لزاما علينا أن نتناول العوامل التي أدت بهذه الجموع الكبيرة العدد المتباينة الأجناس إلى ترك بلادها، والهجوم على بلادنا. لكننا نرى أن نترك هذا كله، ونعنى بناحية واحدة من تاريخ الحروب الصليبية، وهذه الناحية هي كون هذه الحملات جزءاً من تاريخ الشرق العربي في العصور المتوسطة. وعلى هذا الأساس يمكن حسبانها أول محاولة من جانب أوروبة لاستعمار الشرق العربي.

الصليبيون يحتلون سورية

لما وصل الصليبيون إلى سورية لافتتاحها، كانت طرابلس مستقلة يحكمها بنو عمار منذ سنة ١٠٨٩ م وشيزر يحكمها بنو منقذ منذ سنة ١٠٨١م، وكانت القدس وعسقلان وعكا وصور وجبيل قد عادت إلى ملك الفاطميين الذين انتزعوها من السلاجقة وفي سنة ١٠٩٤م فرض ططش سلطانه على حلب والرها والموصل ولما قتل في العام

التـالي اختلـف أبنـاء رضـوان ودقـاق وايدهـما القـواد الطامعـون في الملـك، واسـتأثر رضـوان بحلـب ١٠٩٥ - ١١١٣م امـا دقـاق فاختـار دمشـق ١٠٢٥ - ١١٠٤م ، واسـتمرت الخصومـات بينهـما فلـم يكـن غريبـاً والحالـة هـذه أن يحتـل الصليبيـون سـورية بهـذه السـهولة وبهـذه السرعـة، فإنهـم خرجـوا مـن بلادهـم سـنة ١٠٩٦م ومـرت الحملـة الأولى بالقسـطنطينية وقاتلـوا السـلاجقة في تركيـة ثـم اسـتولوا عـلى الرهـا وانطاكيـة سـنة ١٠٩٨م واتجهـوا نحـو المعـرة فاحتلوهـا ودمروهـا وقتلـوا مـن أهلهـا عـدداً كبـيراً، يقـدره بعـض الـرواة بـالآلاف. ومنهـا سـاروا إلى طرسـوس بطريـق وادي البقيعـة وحصـن الأكـراد. وكانـت الرملـة أول مـا احتـل مـن فلسـطين لأن غودفـري رأى أن يتجـه الجيـش نحـو القـدس فتركـت طرابلـس وصـور وعـكا موقتـاً. وحـاصر الصليبيـون القـدس ثـم احتلوهـا يـوم ١٥ يوليـو ١٠٩٩م.

وبعـد نحـو شـهر انتـصروا عـلى جيـش مـصري قـرب عسـقلان، لكـن المدينـة نفسـها ظلـت فاطميّـة واسـتمرت مركـزا مـن مراكـز الاسـطول الفاطمـي الـذي أخـذ يضايـق الصليبيـين بعـض المضايقـة.

ولي غودفـري أمـر القـدس... وكان بلدويـن قـد رأس الرهـا، وبوهمنـد قـد اسـتقر في أنطاكيـة. ووجـه غودفـري همتـه الآن نحـو الموانـئ السـورية. وتقدمـت المـدن الإيطاليـة بالمسـاعدة العسـكرية والبحريـة لقـاء امتيـازات تحصـل عليهـا في هـذه الموانـئ. فأعانـه البيزيـون عـلى احتـلال يافـا سـنة ١١٠٠، ومـات غودفـري والاسـطول البندقـي عـلى حصـار حيفـا. أمـا عـكا وأرسـوف وقيسـارية، فقـد عقـدت معاهـدات عـلى اسـاس دفـع جزيـة للعـدو. وفي زمـن بلدويـن الأول ١١٠٠ - ١١١٨م أصبحـت القـدس عاصمـة

مملكــة تمتــد مــن بــيروت إلى العقبــة وســقطت طرابلــس ١١٠٩م وجعلــت إمــارة مســتقلة.

هكــذا نجــد أنــه في ســنة ١١١٨م كانــت ســورية الســاحلية، مــع امتــداد إلى الــشرق مــن نهــر الأردن، قــد أصبحــت في أيــدي الصليبيــين وصــارت أربــع وحــدات سياســية - هــي إمــارات الرهــا وأنطاكيــة وطرابلــس ومملكــة القــدس. وكانــت الامــارات تعتــبر نفســها تابعــة للمملكــة.

لكــن في ســنة ١١٤٤ بــدأ رد الفعــل مــن الجانــب العــربي الاســلامي.. فاحتــل عــماد الديــن زنــكي أتابــك الموصــل الرهــا (١١٢٧ - ١١٤٦م) في تلــك الســنة. وكان عــماد الديــن أول واحــد مــن جماعــة القــواد الكبــار الذيــن عملــوا تدريجــاً عــلى اخــراج الصليبيــين مــن هــذه البــلاد، وهــم نــور الديــن وصــلاح الديــن والملــك العــادل والملــك الكامــل والملــك الظاهــر وقــلاوون وابنــه.

وجــه نــور الديــن همــه إلى توحيــد أملاكــه فانتــزع أجــزاء مــن إمــارة انطاكيــة واحتــل دمشــق مــن حاكمهــا الســلجوقي وأتــم فتــح إمــارة الرهــا. ثــم تدخــل في شــؤون مــصر إثــر خــلاف بــين وزيــري الخليفــة الفاطمــي، وانتهــى التدخــل الــذي اشــترك فيــه أســد الديــن شــيركوه وصــلاح الديــن بــأن تــولى الأول شــؤون مــصر نائبــاً عــن نــور الديــن ثــم تولاهــا الثــاني بعــده. وألغــى صــلاح الديــن الخلافــة الفاطميــة نهائيــاً ســنة ٧٦٥ - ١١٧١م، وأعــاد مــصر الســلطان الخليفــة العبــاسي المســتضيء. وفي ســنة ١١٧٤م أصبــح صــلاح الديــن ســيد مــصر وســورية معــاً، وكانــت الحجــاز تتبــع مــصر، وكان أخــوه قــد اســتولى عــلى اليمــن. وولّى الخليفــة العبــاسي صــلاح الديــن ســنة ١١٧٥م حكــم مــصر والمغــرب والنوبــة وغــربي شــبه الجزيــرة وســورية وفلســطين. وبذلــك تــم

استعداده للعمل الذي كرس حياته ونفسه له. وهو اخراج الصليبيين من هذه البلاد. وكانت معركة حطين ٥٨٣ - ١١٨٧، نتيجة هذه الجهود النورية الصلاحية. وانتصر فيها صلاح الدين ومعركة حطين ليست انتصارا عاديا في معركة ولكنها كانت في الواقع نهاية للنجاح الصليبي في هذه البلاد وإن تأخر اخراجهم من سورية قرناً وبعض القرن. وبعد أن استولى صلاح الدين على القدس سلمت له حصون الأفرنج دون مقاومة تذكر.. فاللاذقية وجبلة وصهيون في الشمال، والكرك والشوبك في الجنوب، والشقيف (ارنون) وصفد وكوكب (٥) وعكا اصبحت كلها في قبضته. ولم يبق من المدن التي تستحق الذكر في أيدي الافرنج إلا انطاكية وطرابلس وصور وجاء حصار عكاء سنة ١١٨٩ - ١١٩١م الذي كان نتيجة للحملة الثالثة، بقيادة ريكاردوس وفردريك بربروسا وفيليب. فأوقف تقدم الجيوش الصلاحية، وانتهى بصلح الرملة (٦) بين صلاح الدين وريكاردوس، وبعد ذلك ببضعة أسابيع مرض صلاح الدين في دمشق وانتقل إلى رحمته تعالى.

القرن الثالث عشر

يمثل القرن الثالث عشر في تاريخ الشرق العربي فترة من فترات الخطر. فقد كان الافرنج لا يزالون في سورية، وقد اخذت مصر تغريهم بفتحها أيضاً. كما أن جموع التتار التي جاءت من الشرق وصلت إلى قلب العالم العربي فاحتلت بغداد سنة ٦٥٦ هـ ١٢٥٨م ودمرتها ، وهاجمت سورية وكادت تحتلها وتسير إلى مصر لولا أن كسرت في معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠م . على أن القرن نفسه ما كاد ينتهي حتى كان

الخطـران الأوروبي والتتـاري، قـد دفعـا عـن سـورية ومـصر، وكان للمماليـك ودولتهـم فضـل كبـير في ذلـك، وهـذا مـا نريـد أن نعـرض لـه الآن. أن جـزءاً كبـيراً مـما افتتحـه صـلاح الديـن اسـتعاده الصليبيـون، فبـيروت والنـاصرة والقـدس وبيـت لحـم وصفـد وطبريـة وعسـقلان عـادت لهـم ولم يقاتلـوا في سـبيل واحـدة منهـا . ولكنهـا أعيـدت بمعاهـدات مـع العـادل والكامـل واسـماعيل وايـوب في سـنوات ١١٩٨ و ١٢٠٤ و ١٢٤٠ و ١٢٤١م. ومـن الثابـت أن الحمـلات الغربيـة نفسـها لم تنجـح نجاحـاً حربيـاً يشرفهـا. وخـير الحمـلات أثـرا في اسـتعادة شيء هـي حملـة ١٢٢٨ - ١٢٢٩م، فـإن فردريـك الثـاني نـال مـا نـال بالمفاوضـة وبتأثـير شـخصيته لا بتأثـير جيشـه وأسـلحته.

ولا شـك في أن السـلاطين سـلموا لـه لأنهـم لم يريـدوا أن يجـرد الغـرب عليهـم جيوشـه الجـرارة وعندهـم في بلادهـم مـا يكفيهـم مـن المتاعـب ولـو دروا ان الغـرب وهنـت منـه القـوى، وخـارت النفـوس، وانعدمـت المـوارد وخلـت الجيـوب، لمـا تسـاهلوا هـذا التسـاهل، وتراخـوا هـذا التراخـي أمـا لاتينيـو سـورية فقـد كان السـعيد منهـم مـن يمتـد حكمـه إلى الأراضي المجـاورة لقلعتـه دون أن يلاقـي مـن يناهضـه دونهـا ويقاتلـه في سـبيلها.

تركة صلاح الدين

مـات صـلاح الديـن فانقسـم ملكـه بـين ابنائـه الثلاثـة .. فـكان للملـك الأفضـل نـور الديـن عـلي دمشـق وجنـوبي سـورية، وللملـك العزيـز عـماد الديـن عثـمان مـصر، وللملـك الظاهـر غيـاث الديـن غـازي حلـب وشـمالي سـورية. وقـد أدى هــذا الانقسـام إلى ضعـف ظهـر في القـوة الواحـدة المجتمعـة، كـما فتـح امـام الأخـوة بـاب الخصـام. وقـد بـدأ ذلـك بحـرب

بـين الأفضـل والعزيـز، ونـصر الملـك العـادل أخـو صـلاح الديـن العزيـز وناب عنـه في سـلطنة دمشـق، في سـنة ٥٩٢هـ ١١٩٦م، وكان عـلى شيء كبـير مـن الاسـتقلال. فلـما مـات العزيـز في سـنة ١١٩٨م خلفـه العـادل ملـكاً عـلى البـلاد، ثـم نـاوأ الظاهـر العـداء فاعـترف بـه هـذا أخـيراً سـنة ١٢٠٢ فصـار الملـك العـادل ملـك القطريـن ولقـب نفسـه بالسـلطان.

وفي سـنة ١٢١٨م قـرر الصليبيـون في «عتليـت» أن يهاجمـوا مـصر، لأن جماعـة مـن الغـرب واسـطولاً قدمـا عليهـم، فسـاروا إليهـا واحتلـوا «دمياط» وتقدمـوا في البـلاد وانكـسر أمامهـم جيـش العـادل الـذي مـات متأثـراً مـن هزيمتـه فخلفـه ابنـه الملـك الكامـل نـاصر الديـن محمـد في مـصر، وابنـه الثـاني الملـك المعظـم شرف الديـن عيـسى» في دمشـق. فشـدد الأول عزيمـة الجنـد وحمـل عـلى الصليبيـين حمـلات صادقـات، وقاتلهـم حتـى اضطرهـم إلى التقهقـر والخـروج مـن مـصر ٦١٨هـ / ١٢٢١م.

اقسـم فردريـك أن يعـين الصليبيـين ويحـارب الى جانبهـم لمـا تـوج سـنة ١٢١٥م، وبـدأ بذلـك في الحملـة المصريـة، فحـاول إيجـاد روح معاضـدة في أوروبـة وبعـد حـين تـزوج ابنـة ملـك القـدس وادعـي لنفسـه الحـق بهـذا اللقـب، ثـم أخـذ يهيـئ نفسـه لاحتـلال القـدس وفي سـنة ١٢٢٧م كان عـلى اهبـة السـير لكـن عاقـه تأخـر في صحتـه. فاعتـبر البابـا ذلـك تقصـيراً وحرمـه. ولمـا أعلـن رغبتـه واسـتعداده للسـير منعـه البابـا، لكنـه سـار غـير مبـال مـاراً بقـبرص، وألقـي مراسـيه في عـكا ١٢٢٨م.

جـاء فردريـك بعـدد قليـل مـن جنـده الخـاص .. ولمـا صـار في البـلاد، أدرك أنـه لا يمكنـه الاعتـماد عـلى لاتينيـي سـورية في قتـال أو صـدام مـع الأمـراء

الوطنيين، لأن البابا أمر بعدم الاعتراف به، فلم يعنه الفرسان وكل ما قام به تحصين يافا. لكن فردريك بدأ بمفاوضة امراء المسلمين دون أن يستشير رؤساء الفرق الدينية ولا القاصد الرسولي (نائب البابا في فلسطين).

الملك الكامل

كان الملك الكامل قد علم بما أخذ به فردريك نفسه من غزو الشرق، وكان على استعداد لأن يفاوضه ويصالحه ويعيد إليه بعض الأماكن المقدسة. وفي أثناء ذلك مات الملك المعظم، وصار نفوذ الكامل كبيرا. ثم جاء فردريك وأدرك الكامل ضعف جيشه وما بينه وبين البابا من النفور، فأراد أن يستفيد من ذلك في تقليل الجزء المعاد. ودامت المفاوضات خمسة أشهر، ثم علم فردريك أنه يتحتم عليه أن يعود إلى بلاده ليدفع عن عرشه شراً مستطيراً كان على وشك القضاء عليه. وكانت المفاوضات على جانب من الكياسة واللطف. وفي ١٨ (شباط) فبراير سنة ١٢٢٩م عقدت بين الفريقين معاهدة لعشر سنوات، وأكبر ما يلفت النظر في هذه المعاهدة تنازل الملك عن القدس للإمبراطور فردريك، على أن تبقى المساجد للمسلمين ويسمح لهم بالزيارة دائما. كذلك أعيدت بيت لحم والناصرة وبعض القرى الواقعة بينهما لتأمين الاتصال التام مع القدس.

كانت آخر الحملات الصليبية نتيجة لعاملين: حماسة دينية اشتعل بها صدر لويس التاسع ملك فرنسا، ومال كثير كان في خزائنه. بدأ هذا يفكر في الأمر سنة ١٢٤٤م ، فجمعت الأموال الكثيرة بمساعدة البابا

،ورجاله وكادت أوروبا تنهض ثانية لنصرة هذه الفكرة ومعاودة احتلال الأراضي المقدسة، لكن العداء الشديد بين البابوية والامبراطورية حال دون ذلك، فلما بدأ لويس عمله سنة ١٢٤٨م كانت الحملة فرنسية محضة يقوم بها الملك وحده، فشتى الملك في قبرص ثم حمل على مصر فنجح في احتلال دمياط سنة ١٢٤٩م ، لكن الأمر انتهى بعد قتال طويل، بأسر الملك لويس ونبلائه، على أن الأمراء المماليك تمكنوا من التفاهم مع لويس وعقد الصلح معه. فكان على لويس أن يدفع نفقات حربية وفدية عن أسراه ونفسه، ففعل. وعاد أكثر من كان معه إلى بلادهم. أما هو فجاء إلى فلسطين، وهنا سمح لإخوته بالعودة إلى فرنسا. وأرسل يطلب من رجال الدين والحرب المساعدة قائلاً لهم إن سورية ومصر المسلمتين تكاد أن تقتتلان.

دامت اقامته في سورية الجنوبية أربع سنوات. لكنه لم يتمكن من المهاجمة بالألف والأربعمائة الذين كانوا لديه، فكان يفاوض ويعمر القلاع والحصون، ثم ترك البلاد آسفا عليها.

تمكن الصليبيون من أن يقيموا في البلاد نحو أربعين عاما بعد عودة لويس ويعود ذلك إلى:

(١) وجود مملكة دمشق.

(٢) قيام التتار وهجومهم على سورية في هذه الأثناء.

فهذان الأمران منعا المماليك من القيام بطرد الصليبيين حالا. ولما فرغ المماليك من أمورهم الأخرى، طاردوا الصليبيين حتى اجلوهم عن

البـلاد جـلاء تامـاً حربيـاً . وقـد اعانوهـم هـم عـلى أنفسـهم بمـا أصابهـم مـن تفـرق وانقسـام.

خلفاء بغداد

اتخـذ خلفـاء بغـداد منـذ أجيـال عـدة، عـادة سيئة هـددت عـرش خلافتهـم بالـزوال وهـي جلـب الألـوف مـن العبيـد ذوي الأسـماء الحوشـية، مـن قبائل التركـمان والمغـول واسـتخدامهم حرسـاً لهـم، ومـادة لجيشـهم، ليناهضـوا بهـم الجنـود العربيـة فاسـتفحل أمرهـم، وأصبحـوا سـدى الجيـش ولحمتـه . فكانـوا يأتـون عبيـداً ، فـلا يلبثـون أن يصبحـوا ذوي الأمـر والنهـي، في بيـت الملـك، يشـعلون نـيران الفـتن والقلاقـل حتـى عجلـوا في أجـل الخلافـة المنهوكـة المنحلـة.

وسـلك سـبيلهم في ذلـك خلفـاء الفاطميـين... فأصابهـم مثـل مـا أصـاب مـن قبلهـم. وقـد نحـت دولـة الأيوبيـين (وهـي الدولـة التـي أنشـأها صـلاح الديـن وانتهـت بطـوران شـاه هـذا النحـو. وقـد أسـكن أمـراء الأيوبيـين مماليكهـم مـن الـترك والمغـول في جزيـرة في النيـل (جزيـرة الروضـة) ليكونـوا بعيديـن عـن المدينـة، ولذلـك سـموا بالمماليـك البحريـة. وأول أسرة مـن المماليـك ١٢٦٠ - ١٣٨٢م كانـت مـن هـذه الطائفـة أمـا المماليـك الآخـرون، فإنهـم جلبـوا إلى البـلاد بعـد ذلـك وسـموا البرجيـة» نسـبة إلى الأبـراج التـي كانـوا يقطنونهـا في القلعـة أو في أرجـاء المدينـة ومعظمهـم ينتسـب إلى الجنـس الجركـسي، ومـن هـؤلاء كانـت أسرة المماليـك الثانيـة ١٣٨٢ - ١٥١٧م.

دولة المماليك

انقرضت الدولة الأيوبية سنة ١٢٥٠م، وتولى الأمر بعدها دولة المماليك وهم يرجعون بتاريخهم إلى الملك الصالح الأيوبي الذي جلب عدداً كبيراً منهم، فكانت لهم اليد العليا في أمور الدولة وشؤونها وجيوشها، مما أدى بهم إلى الطمع بالاستقلال وتولي زمام الأمر، فقام «عز الدين أيبك» التركماني، واضعاً نفسه بدل الأشرف موسى الأيوبي الذي كان بعد صبيا. وكان أيبك هذا ثاني ملوك هذه الدولة. وأولهم شجرة الدر» الملكة. تزوج أيبك شجرة الدر هذه، وسلبها كل سلطة. فانتقمت لنفسها بقتله، فقتلها ابنه المنصور انتقاماً لأبيه، وتولى الأمر بعده وعقبه على الملك بعد أن عزله سيف الدولة قطز» وفي عهد هذا وقعت النكبة العظيمة نكبة تخريب بغداد على يد التتار، وانقراض الدولة العباسية سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م.

تقدم التتار إلى بغداد، فاستولوا على شمالي العراق والموصل وحلب وشمالي سورية، ومالوا إلى الجنوب، وأوفد قائدهم «هولاكو» رسولاً إلى مماليك مصر يطلب منهم تسليم البلاد، ويهددهم إن لم يفعلوا ذلك بالزحف عليهم فلم يعبأ قطز بهذا الانذار، بل جمع الجيوش، وكانت مؤلفة من عرب وكرد وترك وعجم، وولى أمرهم ركن الدولة بيبرس» الذي لقب فيما بعد بالظاهر بيبرس. فالتقى هذا القائد سنة ١٢٦٠ بجند التتار، وكانوا تحت قيادة «كتبغا»، بالقرب من بيسان على نهر «الجالود» الذي يصب في الأردن، فكانت واقعة من أشهر مواقع التاريخ، ومن مواقعه الحاسمة، انتصر فيها بيبرس على التتار

انتصاراً باهراً، وبذلك حفظ بقية البلاد السورية والمصرية من غارة الأقوام البربرية. ومن بعدها جهز جيوشه ليقضي على آمال الصليبيين وبقية جنودهم التي كانت مبعثرة في هذه البلاد. فتولى أمر الملك بعد قطز وانتصر على الصليبيين في محاربته لهم وهدم عليهم يافا وأنطاكية، ووصل بفتوحاته إلى آسيا الصغرى. وبذلك أعاد إلى العالم الاسلامي وحدته.. وجاراه خلفاؤه في هذا الأمر، وفي هذه الخطة. فكان منهم «قلاوون» الذي جهز الجيوش ليضرب الصليبيين ضربة قاضية في عكاء، آخر حصونهم وقلاعهم. وكذلك فعل ابنه الأشرف خليل الذي أصلى اللاتين حروباً حامية، وطردهم نهائياً من البلاد.

حكم بيبرس

تعتبر سنة ارتقاء بيبرس العرش بدء عهد جديد في اصطدام الشرق بالغرب، إذ عادت إليه روح صلاح الدين وهمته وكان بيبرس الرجل الذي يحسن اغتنام الفرصة ويعرف كيف يستفيد من الظروف. احتل بيبرس دمشق سنة ١٢٦١م، وكان قد عصى بها واليها وأبى الإذعان للسلطان الجديد. ثم اخذ السلطان على عاتقه تنظيم الأمور، وترتيب الجيوش وتقوية القلاع والحصون وجاء بيبرس في تلك السنة بأحد أبناء العباسيين من بغداد واقامه «خليفة عباسياً في القاهرة واعترف بسلطانه الديني، بل حمله على محاولة استعادة بغداد من أيدي التتار، لكنه لم يعنه اعانة كافية. وعاد بيبرس في السنة التالية إلى مصر. وكانت له على الخصوص علاقات ودية ميشيل الثامن إمبراطور القسطنطينية الذي كان قد استردها من اللاتين في سنة ١٢٦١م، لما

كان بـين هـذا والصليبيـين مـن العـداء والنفـور والوحشـة. وفي سـنة ١٢٦٣ تعـرف بيـبرس إلى كل السـاحات الحربيـة، وتفهـم حالـة جيشـه تماماً، ودخـل فلسـطين وجعـل معسـكره في جبـل الطـور (قـرب النـاصرة). وحـضرت إليـه الوفـود مـن اللاتـين، فلـم تسـفر المقابـلات عـن شيء سـلمي. وفي السـنة نفسـها احتـل الكـرك ثـم عـاد إلى مـصر وصرف جـزءاً كبـيراً مـن السـنة في الاهتـمام بأمـور داخليـة وأخصهـا الأمـور العلميـة والدينيـة، فبنـي في القاهـرة «المدرسـة الظاهريـة».

في سـنة ١٢٦٥م عـاود التـتر الهجـوم عـلى سـورية. فقـام بيـبرس لمناهضتهـم ودخـل جنـوب سـورية. فلـما ارتـدوا، بـدأ يهاجـم القـلاع والمـدن اللاتينيـة، فاحتـل قيسـارية وهدمهـا ثـم اسـتولى عـلى عتليـت وحيفـا وارسـوف. ولما رأى أن اتمـام هــذه الحمـلات يقتـضي اسـتعدادات خاصـة، انتظـر حتـى السـنة التاليـة ليدبـر أمـره، ثـم هاجـم صـور وصيـدا وطرابلـس وعـكا واخـذ يسـتعد لمهاجمـة صفـد، التـي أعمـل فيهـا تخريبـا وتدمـيرا.

حتـى سـلمت حاميتهـا، عـلى أن تحفـظ أرواحهـم، في ١٨ شـوال سـنة ٦٦٤هـ/ ٢٣ تمـوز (يوليـو) سـنة ١٢٦٥ ، ولكـن بيـبرس قتلهـم كلهـم بعـد الاسـتيلاء عـلى القلعـة. وقـد ألـح سـكان المـدن اللاتينيـة الآن في عقـد محالفـات، لكنـه رفـض طلـب كثـير مـن المـدن ومنهـا عـكا. وفي سـنة ١٢٦٧ اتخـذ السـلطان صفـد مركـزاً لـه، وأغـار عـلى عـكا ومـا اليهـا، دون أن يحتلهـا . ثـم وجـه همتـه نحـو شـمال سـورية، فانتـصر في معاركـه لما سـاد الصليبيـين مـن الانقسـام بـين انفسـهم وتمكـن مـن احتـلال انطاكيـة التـي كانـت حاميتهـا ٨٠٠٠ وكان عـدد سـكانها ١٠٠,٠٠٠ وكانـت الـثروة فيهـا إلى درجـة

أن الغنائم من النقود كيلت للناس بالأكواب، وبيع العبد الواحد من أولاد أنطاكية بـ (١٢) والبنت بخمسة من الدراهم، ثم أحرق الجند كل ما بقي. ولما كان السلطان عائداً من الشمال من دمشق، طلب إليه لاتينيو عكا الصلح ... فرضي على أن يقتسم أراضي عكا وصيدا وحيفا مع الصليبيين فرفض اللاتين ذلك وظلت العلاقات علاقات غزو وهجوم.

وفي سنة ١٢٧٠م عاد بيبرس إلى مصر ليستعد المصادمة حملة لويس التاسع ملك فرنسا الثانية، لكن ملك فرنسا ألقى مراسيه في تونس فأصيب هناك بالطاعون ومات فانفض القوم بعده كأن لم تكن حرب أو حملة.

ولما جاء عكا الأمير ادوارد الانكليزي وجنده سنة ١٢٧١م رضي بيبرس بعقد الهدنة مع المدينة لعشر سنين .. فوجه السلطان همه إلى قلعة القرين التي احتلها في تلك السنة، وبذلك أراح نفسه وجنده في صفد من غزوات فرسانها الدائمة.

وعقب ذلك عقد معاهدات مع كل المدن اللاتينية الأخرى. ومن المهم أن نلاحظ أن هذه المعاهدات كانت تعتبر لاغية بموت احد المتعاهدين وهذا ما حدث لما مات بيبرس في محرم سنة ٦٧٦هـ ، أول تموز (يوليو) سنة ١٢٧٧م، وقد صرف بيبرس المدة بين عقد محالفته مع اللاتين وموته في هجوم متواصل على قلاع الحشاشين في شمال سورية وعلى مملكة أرمينية.

خلف الملك الظاهر ابنه الملك السعيد، لكنه لم يبق في الملك إلا مدة قصيرة فخلع نفسه وسكن الكرك على أن تكون خاصة به. ولم تطل مدة ملك أخيه الصغير إلا ثلاثة أشهر فخلعه سيف الدين قلاوون (وسمى نفسه الملك المنصور) سنة ١٢٧٩م. وكان عليه أن يهدئ اضطرابا داخليا في شمال سورية، فقام إليها بنفسه، فنجح ثم هاجمه التتار وقام عليه صليبيو الشمال، فعاهد الآخرين وقاتل الأولين بقيادة «منجو تيمور» ابن هولاكو) في سهل حمص فانتصر عليهم انتصاراً مبينا. أما الصليبيون فقد اغتنموا فرصة عقد الصلح مع قلاوون، فاقتتلوا فيما بينهم وسهلوا له مهمة الانتصار عليهم.

ولن نطيل التحدث عن الغزوات التي شنها الملك المنصور سيف الدين قلاوون على اللاتين، تحاشياً للتفصيل، ولكننا نسهب بعض الاسهاب في احتلال عكا، لأن سقوط هذا الحصن كان الضربة القاضية على الاطماع اللاتينية في سورية.

احتلال عكا

كان الصليبيون في سورية تحت رحمة السلطان، وقد كان أملهم الوحيد أن تلبي أوروبا دعوة البابا فتلتفت إليهم.. لكن شيئاً من ذلك لم يكن، لأن الناس ملوا الحروب التي ارهقتهم واضنتهم وملكت عليهم نفوسهم، فتحرروا من ربقتها، ووجهوا همهم نحو مصالحهم التجارية وغير التجارية. لكن جماعة، يتراوح عددها بين الألف، والألفين أثر فيها نداء البابا، وكانت مزمعة الحج وزيارة بيت المقدس، فجاءت الشرق، وحلت في عكاء في سنة ١٢٩٠ فكانت نتيجة نزولهم أن حملوا

السلطان على الإسراع في الاستعداد لمهاجمة عكاء، لأنهم نقضوا العهد وأضروا ببعض من كانوا يقطنون حول عكاء، لكن السلطان مات في سنة ١٢٩٠م، في ليلة العاشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ٦ من ذي القعدة ٦٨٩ هـ ولما يقم بالهجوم على البلاد. فخلفه ابنه الملك الأشرف خليل الذي اخذ يتم ما بدأ به أبوه من استعداد بقصد الهجوم على عكاء. كان جيش الملك الأشرف الذي تجمع أمام عكاء في ربيع سنة ١٢٩١م مجهزاً بالكثيرين من رجال الحصار المختصين... وكان معه من آلات الحصار تسع وعشرون وكان عدد الجيش كبيراً جداً.

أما عكا، فقد كانت حصونها منيعة لكن حاميتها ليست على ما يرام. وكان عدد جند الحامية يتفاوت بين ١٤٠٠٠ و١٨٠٠٠ رجل وبين ٧٠٠ و٩٠٠ فارس وصلت أول فرقة من فرق الجيش المحاصر حول أواخر آذار (مارس) ١٢٩١م ووصلت آلات الحصار في ٧ نيسان (أبريل) ورتبت في ١١ منه وبدأ الحصار الجدي في أيار (مايو)، إذ بدأت الجيوش تطلق قذائفها على المدينة ودامت على ذلك عشرة أيام، وقد كان أثر هذا الأمر شديداً حتى أن المحاصرين خامرهم الريب في أنفسهم واستسلموا لليأس والقنوط. وأرسل بعضهم عيالهم وأموالهم إلى قبرص، والفرسان الذين لم يكونوا مجبرين على البقاء هجروا المدينة ... لكن بقي من الحامية ١٢٠٠٠ وعقب هذا الإطلاق المتواصل استعداد لنسف المدينة.. فرد المحصورون الهجوم الأول في ١٥ أيار (مايو)، ويوم ١٦ أيار كان فيه القتال شديدا. ولما تمكن المسلمون من الاستيلاء على بعض جهات من الأسوار، أحدثوا في السور فتحة ليسهل دخولهم .. لكن متى كلرمون مارشال فرقة القديس يوحنا تمكن من إخراجهم من المدينة.

وفي تلك الليلة بني سور موقت خلف الثغرة، ووضعت خلفه المجانيق لحراسته. صرف جند الملك الأشرف ليلتهم واليوم التالي يستريحون ويستعدون للهجوم النهائي، الذي قاموا به في اليوم الثامن عشر من شهر أيار (مايو)، وبدأوا قبل شروق الشمس وتمكنوا من الدخول إلى المدينة من الثغرة الأولى والباب المجار وثغرات أخرى اخترقوها. وقتل في هذا اليوم المارشال متى وجرح رئيس فرقة فرسان المستشفى، وهرب الملك هنري وبعض القواد الباقين. واعتصم من لم يفر بالأبنية الكبيرة التي في المدينة ثم اضطروا إلى التسليم. وعندها أمر الملك الأشرف بهدم التحصينات وحرق البيوت في هذه الفترة التي كان الشرق العربي يتلقى هذه الضربات ويتحملها أولاً ثم يردها، كان المغرب العربي يجتاز ادواراً هامة في تاريخه. فقد ظهرت فيه دولتان من الدول الكبرى في تاريخ العرب والإسلام هما دولة المرابطين ودولة الموحدين. ودولة المرابطين (١٠٥٣ - ١١٤٧) كانت أصلا حركة دينية سلفية تطهيرية بزعامة عبد الله بن ياسين، وبعد أن كانت محدودة في الصحراء المراكشية الجنوبية اتسعت شمالاً، وخاصة بقيادة يوسف بن تاشفين الذي بنى مدينة مراكش ووسع فتوحه بحيث امتدت إلى الجزائر، وقد استنجد به عرب اسبانيا فأنجدهم وانتصر على الإسبان في معركة الزلاقة المشهورة (١٠٨٦م).

تم القضاء على المرابطين على يد دولة الموحدين (١١٣٠ - ١٢٦٩م). وهي أيضاً قامت كحركة دينية اصلاحية بدأها ابن تومرت والفرق بين المرابطين والموحدين هو أن الأولين كانوا بدوا من الصحراء الجنوبية، أما الموحدون فهم من جبال الأطلس. كان ابن تومرت قد درس في

الأندلـس والمـشرق قبـل أن يأخـذ نفسـه بدعـوة النـاس إلى التوحيـد وطهـارة الأخـلاق، وجـاء خلفـه فوسـع رقعـة الدعـوة فضـم مراكـش والجزائـر وتونس وليبيـا وأعـاد بعـض عـدوة الأندلـس إلى سـلطان المغاريـة. ولعـل الموحديـن أول مـن وحـد المغـرب العـربي وليبيـا في ظـل دولـة واحـدة.

وقـد كان للموحديـن اسـطول كبـير سـيطر عـلى الحـوض الغـربي للبحـر المتوسـط وهـذا جعـل للموحديـن قيمـة عالميـة كبـيرة، فضـلاً عـن أنـه يـسر للمغـرب حمايـة لتجارتـه وازدهـاراً لأسـفار أبنائـه، واسـواقاً لمصنوعاتـه .. فليـس غريبـاً أن يعـرف المغـرب عـصراً مزدهـراً في ذلـك الوقـت. ولكـن هـذه الدولـة التـي بـدت قويـة متينـة، لم تلبـث أن عصفـت بهـا أيـدي الخطـوب فتمزقـت اطرافهـا أولاً ثـم عـدا عليهـا الدهـر.

الـشرق العـربي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر

تشـمل دراسـة تاريـخ الـشرق العـربي في القرنـين الرابـع عـشر والخامـس عـشر، ثلاثـة أمـور:

أولا - المماليـك الذيـن اسـتمروا في سياسـة توحيـد مـصر وسـورية والذيـن جعلـوا همهـم توسـيع أملاكهـم في الشـمال، فحاربـوا مملكـة ارمينيـة طويـلاً حتـى قضـوا عليهـا.

ثانيـا - محاولـة التتـار أن يسـتولوا عـلى سـورية وهجومهـم عليهـا المـرة بعـد المـرة ومـا كان مـن رد المماليـك لهـم.

ثالثـا ـ مـا قامـت بـه أوروبـا في سـبيل احتـلال سـورية ومـصر، مـما يصح أن نسـميه الحمـلات الصليبيـة المتأخـرة. وهـذا مـا سـنحاول التعـرض لـه الآن.

حكم الملك الناصر محمود ثلاث مرات بين ١٢٩٣ و ١٣٤٠م . وكان عليه ان يتلقى احدى هجمات المغول، إذ إن «غازان» هاجم سورية (١٢٩٩) وانتصر على جيش مصر شرقي حمص واستمر في سيره جنوباً حتى احتل دمشق في السنة التالية، ومع أن دمشق لم ينلها تدمير أو تخريب فقد لقيت بقية المدن في شمال سورية الأمرين على يدي التتارى وانسحب غازان من دمشق لكنه عاد بعد ثلاث سنوات فلقيه الناصر في مرج الصفر (جنوبي دمشق) ورده على اعقابه وانصرف بعدها إلى معاقبة الجماعات التي أعانت غازان من شمال سورية وإلى مهاجمة أرمينية.

على أن الناصر يذكره المؤرخون بأعماله العمرانية أكثر مما يذكرونه بحملاته العسكرية، إذ بلغت مصر في زمنه ذروة حضارتها في عصر المماليك البحرية ... فقد أنشأ ترعة الاسكندرية، وبنى المساجد والمدرسة الناصرية وشجع التجارة مع أوروبا والشرق، ولكن القحط والوباء اللذين أصابا مصر في أيامه حدا من نشاطه وأديا إلى إضعاف الروح المعنوية في مصر موقتا.

وخلفاء الناصر الذين حكموا من ١٣٤٠ إلى ١٣٨٢ كانوا من أسرته، وقد شغلوا أنفسهم بخصومات ومشاحنات داخلية، فأدى ذلك إلى زوالهم، وقيام المماليك البرجية (١٣٨٢ - ١٥١٧م).

المماليك البرجية

وأوسع المماليك البرجية شهرة هم برقوق، وفرج والمؤيد شيخ وبرساي، وجقمق واينال وخشقدم وقايتباي وقونصوه الغوري. ولعل حكم قايتباي (١٤٦٨ - ١٤٩٥) كان أهم دور في المدة كلها. ولعل أهم الحوادث التي يجدر بنا أن نتعرف إليها في أيام هؤلاء المماليك هي غزو تيمور واحتلال قبرص والفتح العثماني. في سنة ١٣٨٠ بدأ تيمورلنك (٨) حملاته العسكرية التي انتهت باستيلائه على أفغانستان وفارس وكردستان. وفي سنة ١٣٩٣ احتل بغداد، وفي السنة التالية وقع العراق كله تحت سلطانه. وقد روى مؤرخوه انه اقام في تكريت (٩) هرما من جماجم قتلاه. وفي سنة ١٣٩٥ وصل موسكو وأقام فيها ما يزيد على السنة، ثم وصلت فتوحه إلى دلهي بعد سنوات قليلة.

وفي سنة ٨٠٤ هـ / ١٤٠١م ظهر تيمور في شمال سورية. وكانت حلب أولى ضحاياه، إذ أباحها للنهب ثلاثة أيام وقتل من أهلها عشرين ألفاً أقام من جماجمهم أكواما متعددة ارتفاع الواحد منها عشرة أذرع. وهدم جوامعها ومدارسها النورية والصلاحية.

ثم سقطت حماة وحمص وبعلبك في يديه، وانكسر جيش السلطان فرج وانهزم فاحتل المنتصر دمشق التي نهبت وتركت طعاماً للنيران وحمل خيرة علمائها ومهندسيها وصناعها إلى سمرقند ليعينوه في تزيين عاصمته. واضطر تيمور إلى العودة إلى بغداد لينتقم لبعض رجاله الذين قتلهم أهل المدينة، فعاقبها بأن أقام مائة وعشرين برجا من جماجم القتلى فيها .

وفي سنة ١٤٠٢ اقتتل تيمور مع بايزيد العثماني في ٢١ تموز (يوليو) في انقرة واسر بايزيد وحمل مع جيش تيمور . وكان انتصار التتار هذا إيذانا بالشر المستطير الذي كان المماليك يتوقعونه على يدي تيمور لولا أنه توفي سنة ١٤٠٤م ، فكان ذلك فرجا لهم خاصة وأن خليفة تيمور شاه رخ (١٤٠٤ - ١٤٤٧) لم يشن حروباً على سورية.

أما الذين جاءوا بعده، فقد اضاعوا قوتهم في خصومات عائلية ... فلم يخرجوا من ديارهم. وكان هذا الخصام بينهم فرصة أدت إلى قيام الدولة الصفوية من الجهة الواحدة، وساعدت العثمانيين على تنظيم شؤونهم من الناحية الثانية واستراح المماليك قرنا من الزمان من غزوات التتار العنيفة المخربة.

وقد تم فتح المماليك لقبرص في حملة ١٤٢٤ - ١٤٢٦م في سلطنة برسباي وكانت غايته من ذلك القضاء على القرصان الذين كانت قبرص ملجأ لهم بالاتفاق مع حكامها من آل لوزنيان (١٠) وقد نجحت قوى برسباي البحرية والبرية في الاستيلاء عليها، وأسر ملكها جانوس. وحمل هذا إلى القاهرة، ولم يطلق سراحه بعد مدة إلا بفدية قدرها ٢٠٠,٠٠٠ دينار وجزية سنوية قيمتها عشرون ألف من الدنانير. وعقد برسباي معاهدة مع فرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس . وبهذين العملين أمن للتجارة طرق البحر المتوسط الشرقي.

بعد سقوط عكا سنة ١٢٩١، أصبحت قبرص مركز الصليبيين في الشرق، وكان ملكها يحمل لقب ملك القدس. على أن أوروبا ظلت تفكر في استعادة الشرق، ولكن المجال الذي أصبحت ترمي بنظرها إليه اتسع

في القـرن الرابـع عـشر. فتقـدم الأتـراك العثمانيـين في آسـية الصغـرى، وثـروة مـصر كانـا عاملـين رئيسـيين في توجيـه التفكـير في الحمـلات وفي الحمـلات نفسـها. أمـا أن اوروبـا لم تقـم في القـرن الرابـع عـشر بحمـلات واسـعة النطـاق، فيعـود إلى أن دولهـا كانـت مشـغولة بشـؤونها الداخليـة. فإمبراطـور ألمانيـا كانـت خزائنـه خاليـة، والفـرق الدينيـة فيهـا اتجهـت نحـو بروسـيا. أمـا فرنسـا وانكلـترا فكانتـا في شـاغل بحـروب المائـة سـنة عـن أي حملـة إلى الخـارج. هـذا بالإضافـة إلى انشـغالهما بالتطـور السـياسي الداخـلي فإنجلـترا كانــت منهمكــة بالخصومــة حــول قــوة البرلمــان، وفرنســا كانــت معنيــة بتطـور السـلطة الملكيـة. ومـن ثـم فـكل مـا عملـه ملـوك فرنسـا في سـبيل الحمـلات هـو تمنـي النجـاح لهـا. واسـبانيا كانـت منصرفـة إلى اسـتعادة بلادهـا مـن العـرب وتنظيـم شـؤونها الداخليـة امـا المـدن الايطاليـة فكانـت علاقتهـا التجاريـة مـع الـشرق تحـول دونهـا والاشـتراك في حمـلات عسـكرية ضـده. ومـع ذلـك، فقـد ظلـت الفكـرة حيـة. وسـاعد عـلى بقائهـا الرحالـون والحجـاج الذيـن كـثر ترددهـم عـلى الـشرق لدرسـه، والأمـراء المخلوعـون الذيـن كانـوا يتنقلـون في أوروبـا آملـين أن تهـب أوروبـا لنصرتهـم لاسـتعادة اماراتهـم مثـل ليـون السـادس ملـك أرمينيـة وبطـرس الأول لوزنيـان ملـك قـبرص ومـما أعـاد إلى الفكـرة نشـاطها في القـرن الرابـع عـشر فـرق الفرسـان مثـل اخـوة الهيكليـين وفرقـة السـيف وفرقـة التيوتـون . جـردت أوروبـا حمـلات ضـد الـشرق في القـرن الرابـع عـشر. ونحـن مضطـرون إلى الاكتفـاء بالإشـارة إليهـا في هـذه المناسـبة، عـلى أن نحيـل القـارئ إلى الكتـاب الجامـع الـذي وضعـه الدكتـور عزيـز سريـال عطيـة مؤرخـاً فيـه للحـروب الصليبيـة

في العصـور الوسـطى المتأخـرة.

والحملات هذه سـت هي: (١) حملة ضد أزمير ١٣٤٤

(٢) حملـة همـبرت الثـاني الفرنـسي ١٣٤٥ - ١٣٤٧م لتعضيـد الحملـة الأولى وقـد انتهـت بالفشـل.

(٣) حملة بطرس الثاني لوزنيان على الاسـكندرية، ١٣٦٥م.

(٤) حملــة أميديــو الســادس أمـير ســافوي ضـد الاتـراك، ١٣٦٥ - ١٣٦٧م.
(٥) حملـة لويـس الثـاني بربـون عـلى المهديـة في شـمال افريقيـة ١٣٩٠م.
(٦) حملــة نيكوبوليــس ١٣٩٦م.

ولعـل الحملـة التـي وجهـت ضـد الإسـكندرية سـنة ١٣٦٥ هــي الوحيـدة التـي تسـتحق عرضـاً خاصـاً في هــذه العجالـة (١٣) فقـد اسـتنجد بطـرس بأوروبـا فأنجدتـه، وجمـع قـواه في رودس واتخذهـا نقطـة ابتـداء. واحتفـظ بخطتـه سراً، فلـم يـدع بأنـه ينـوي الهجـوم عـلى الاسـكندرية حتـى صـارت المراكـب في عـرض البحـر. ومـن الطريـف أن بطـرس كان يخـشى الوحـدات الايطاليـة كثـيرا، فقـد حسـب أنهـا قـد تفضـل مصالحهـا التجاريـة عـلى مصلحتــه وحملتــه، فتوعــز بالخــبر إلى ســلطان مــصر فيســتعد. وصلــت الحملــة الإســكندرية في ٤ تشريــن الأول (أكتوبــر)١٣٦٥، وفي اليــوم التــالي هاجـم الجنـد المدينـة واحتلوهـا وأعملـوا فيهـا نهبـاً وسـلباً وتحريقـاً ثـم رحــل أكــثر الجيــش بعــد أن حملــوا ســبعين ســفينة بالغنائــم فلــما رأى بطـرس نفسـه في اليـوم السـادس عـشر مـن الشـهر وحيـداً مـع بعـض رجالـه المخلصـين وقـد اقـترب الجيـش المـصري الآتي لإنقـاذ المدينـة منهـا، انسـحب مـع اتباعـه، وهكـذا فقـد دامـت الحملـة أسـبوعاً واحـداً فقـط وكانـت

نتيجتها المباشرة إضعاف الإسكندرية وتعطيل تجارتها موقتاً

ابن خلدون يصف واقعة الإسكندرية

وقد روى ابن خلدون خبر واقعة الاسكندرية قال: «واستنفر ملك قبرص، من سائر الإفرنج ووافى مرساها (الإسكندرية) في السابع عشر من المحرم سنة سبع وستين وسبعمائة في أسطول عظيم يقال بلغ سبعين مركبا مشحونة بالعدة والعدد ومعه الفرسان المقاتلة بخيولهم. فلما أرسى بها قدمهم إلى السواحل وعبأ صفوفه وزحف، وقد غص الساحل بالنظارة. برزوا من البلد على سبيل النزهة.. لا يلقون بالا لما هو فيه ولا ينظرون مغبة أمره لبعد عهدهم بالحرب، وحاميتهم يومئذ قليلة، وأسوارهم من الرماة المناضلين دون الحصون خالية. ونائبها القائم بصالحها في الحرب والسلم، وهو يومئذ خليل بن عرام غائب في قضائه فرضه. فما هو إلا أن رجعت تلك الصفوف على التعبية ونصحوا العوام بالنبل. فأجملوا متسابقين إلى المدينة، واغلقوا أبوابها وصعدوا إلى الأسوار ينظرون. ووصل القوم إلى الباب فأحرقوه واقتحموا المدينة واضطرب أهلها وماج بعضهم في بعض. ثم أجفلوا إلى جهة البر بما أمكنهم من عيالهم وولدهم وما اقتدروا عليه من أموالهم وسالت بهم الطرق والأباطح ذاهبين في غير وجه حيرة ودهشة. وتوسط الافرنج المدينة ونهبوا ما مروا عليه من الدور ودكاكين الصيارفة ومودعات التجار وملأوا سفنهم من المتاع والبضائع والذخيرة والصامت. واحتملوا ما استولوا عليه من السبي والأسرى وأكثر ما فيهم الصبيان والنساء، ثم تسايل إليهم الصريخ من العرب وغيرهم. فانكفأ الافرنج إلى

أساطيلهم وانكمشوا فيها بقية يومهم وأقلعوا من الغد. وطار الخبر إلى كافل الدولة بمصر الأمير بيبقا فقام لركائبه وخرج لوقته بسلطانه وعساكره ومعه ابن عرام نائب الاسكندرية منصرفة من الحج وفي مقدمته خليل بن قوصون وقطلو بغا الفخري من أمرائه وعزائمهم مرهفة، ونياتهم في الجهاد صادقة حتى بلغهم الخبر في طريقهم بإقلاع العدو، فلم يثنه ذلك واستمر إلى الاسكندرية وشاهد ما وقع بها من معرة الخراب وآثار الفساد فأمر بهدم ذلك وإصلاحه ورجع أدراجه إلى دار الملك. وقد امتلأت جوانحه غيظاً وحنقاً ... على أهل قبرص».

وليس من شك في أن الحملة التي قام بها برسباي لغزو قبرص كانت انتقاماً لهذه الحادثة.

هذه الفترة في تاريخ المشرق يقابلها في الأندلس استمرار التوسع الاسباني وانسحاب العرب امامه حتى تم له القضاء عليهم نهائياً سنة ١٤٩٣م. أما في المغرب نفسه، فإن هذه الفترة رأت قيام دول ثلاث كانت متعاصرة هي: دولة المرينيين في فاس ودولة الزيانيين في تلمسان ودولة الحفصيين في تونس.

دولة بني مرين

امتد سلطان دولة بني مرين المراكشية (١١٩٥ ١٤٧٠م)، في أول أمرها إلى الجزائر وتونس وليبيا. ولكنها انسحبت أمام الحفصيين والزيانيين. وقد عرف المرينيون ايام عزهم في عهد يعقوب وابنه يوسف وأبي سعيد عثمان وأبي الحسن علي، فكان لهم اسطول هزم الإسبان غير مرة وأنشأوا دور صناعة وخططوا فاس الجديدة وتطوان وغيرهما،

واهتموا بالاقتصاد الزراعي والصناعي والتجاري. وقد ضعف أمرهم في أواخر عهدهم حتى استطاع البرتغاليون الاستيلاء على الكثير من المدن الساحلية المراكشية. ولولا قيام الدولة السعدية في القرن السادس عشر لكانت مراكش مزقت شذر مذر، خصوصاً وأن الاتراك، كانوا قد احتلوا تونس والجزائر، وأصبحوا يهددون المغرب الأقصى، الذي وقع بين نارين

والزيانيون أو (بنو عبد الواد) عاصروا المرينيين فقد قامت دولتهم في تلمسان سنة ١٢٣٥ واستمرت الى عام ١٣٩٣. وقاومت هذه الدولة هجمات الحفصيين والمرينيين وغزوات القبائل من الجنوب، وان كانت لم تستطع أن تقف في وجهها جميعاً. فقد احتل المرينيون تلمسان نفسها سنة ١٣٣٧، لكنها استردت حريتها منهم وكذلك احتلها الحفصيون. ومع أن بني عبد الواد فقدوا وجودهم كدولة في أواخر القرن الرابع عشر، فقد ظلت فتات دولتهم من القرصان إلى أن سقط القطر الجزائري في أيدي الأتراك في القرن السادس عشر.

الدولة الحفصية

قامت الدولة الحفصية (١٢٢٨ - ١٥٣٤م) في تونس على أيدي أبي زكريا، ثم وسعها خليفته المستنصر بحيث ضمت طرابلس والجزائر ومراكش، إذ قدم ملوكها المرينيون فروض الولاء للمستنصر، كما بايعه أمير مكة وأهل الحجاز سنة ١٢٦٠. وفي سنة ١٢٧٠ أغار لويس التاسع ملك فرنسا على تونس في الحملة الصليبية الثامنة ولكن نزول الطاعون بجيشه أفنى أكثره، وأصيب الملك نفسه ومات في تونس. ومع أن هذه القوة تلتها فترة ضعف وانقسام واضطراب، فإن الحفصيين عادت وحدتهم

في أوائـل القـرن الخامـس عـشر عـلى أيـدي أبي العبـاس وأبي فـارس اللذيـن أعـادا للدولـة بناءهـا ونشـاطها ووحدتهـا بحيـث اسـتطاعت أن تسـتولي عـلى الجزائـر وعـلى قسـم كبـير مـن مراكـش. لكـن الضعـف عـاد فاسـتحوذ عـلى الدولـة، وظلـت كذلـك حتـى الاحتـلال العثـماني. هـذا عـرض موجـز للعـالم العـربي بـين عهـد الفتـح العـربي والفتـح العثـماني، وضعنـاه بـين يـدي القـارئ تسـهيلاً لتتبـع حـركات الرحالـين العـرب الذيـن تنقلـوا في أجزائـه ونواحيـه عـلى الغالـب، وإن كان بعضهـم تجـاوز رقعتـه عـلى اتسـاعها، إلى بقـاع أخـرى عـلى مـا سـنرى.

القسم الأوَّل

الرِّحلة والرَّحَّالون في العصور الوسطى

الرِّحلة والحجّ

•••

كانت الرحلة من الظواهر الرئيسة في حياة العصور الوسطى، وكانت دوافعها متعددة وغايات الرحالين مختلفة، ونحن إذا استعرضنا زيارات الأوروبيين لفلسطين خاصة وللشرق العربي عامة، خرجنا بفهم صحيح لهذه البواعث والمقاصد. ويجدر بنا أن نتناول هذا البحث على أساس زمني. فبواعث السفر والتنقل ورغبات الناس اختلفت باختلاف الأزمنة والأحوال التاريخية. ولعلَّ من الخير لنا وللموضوع أن نعرض له على التقسيم التالي: (١) من القرن الرابع إلى القرن العاشر (٢) في زمن الحروب الصليبية، (٣) في القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

والذي نستطيع أن نقرره قبل كل شيء أن الحج كان الباعث الأول والرئيسي في الفترة الأولى، وإن كان ثمة باعث آخر فقد جاء عفوا، أو كان قليل الأثر في توجيه الرحلة.

فالمسيحيون كانوا يرون لزاما عليهم، ولو لم تفرض ذلك المبادئ الدينية، أن يزوروا البلاد التي عاش فيها المسيح، ويتبركوا بلمس ترابها ومشاهدة آثاره وآثار أصحابه ومع أن الكنيسة لم تهتم بالحج بادئ ذي بدء فإنها لم تلبث أن قبلت بما قام به الناس وجعلته جزءا أصليا من أعمال التوبة، وسبيلا لغفران الخطايا، وقد بقي الحج إلى فلسطين عاملا رئيسيا في الرحلة إلى الشرق في الفترتين الأخريين، ولذلك

سنكتفي الآن بتقرير هذا، على أن نعود إلى درس الحج بتفصيل في آخر الفصل. أما في فترة الحروب الصليبية، وحتى قبلها بقليل، فقد دخلت

التجارة إلى جانب الحج في البواعث على الأسفار ويكفي أن نذكر ما كان للجنوبين والبنادقة والبيزيين وغيرهم من الأوروبيين من مصالح تجارية منذ القرن العاشر الميلادي في موانئ سورية ودولة البيزنطيين لنستوثق من هذا الأمر، والعامل التجاري في التنقل والأسفار قوي كثيرا بعد خروج الصليبيين من سورية ونشط التجار في توطيد العلاقات مع سورية وتجديدها مع مصر. وجميع الرحالين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر يشيرون إلى البيوت التجارية والفنادق التي كانت للأوروبيين في الاسكندرية والقاهرة وعكا وبيروت ودمشق وغيرها.

على أن الأوروبيين في زمن الحروب الصليبية كان منهم من أتي إلى الشرق ليقيم ويستعمر، إما لأنّه لم يجد في بلاده قوتا أو رزقا، أو لأنه أراد أن يتحرر من الرق السياسي والاقتصادي هناك، أو لأنه رغب في التخلص من خصومات سياسية، فحاول أن يجد مكانا جديدا بعيدا عن هذه الأمور كلها.

والفروسية الأوروبية كانت عاملا هاما في شحذ الهمم للرحلة. فالفارس كان يرغب في أن يلمس سيفه القبر المقدس في كنيسة القيامة بالقدس لأن ذلك يزيده شرفا وقدرا. والفارس العاشق كان يقوم بالرحلة إرضاء لحبيبته التي أظهرت مثل هذه الرغبة والفارس المغامر كانت تثيره إلى الرحلة القصص التي كان يسمعها من العائدين من الشرق عن سحره وغرائبه، فقصة برستر يوحنا شاعت في أوروبة بعيد احتلال الصليبيين لفلسطين. وقصص يوحنا مندفيل انتشرت انتشارا كبيرا في أوروبة في

القـرن الرابـع عـشر ومثلهـا قصـة الملـوك الثلاثـة والروايـات الكثـيرة عـن شـعوب أفريقيـة والهنـد.

وكان التبشـير مـن عوامـل السـفر والرحيـل الهامـة. ذلـك أن الأوروبيـين اهتمـوا في زمـن الصليبيـين بنـشر المسـيحية، واسـتمروا في هـذه المحاولـة بعـد ذلـك لأغـراض سياسـية واسـتعمارية. ومـع أن محاولاتهـم الأولى اقتـصرت عـلى العـالم الإسـلامي في حـوض البحـر المتوسـط، فقـد اتجهـت رغبـة البابـاوات وأمـراء أوروبـة وملوكهـا نحـو تنصـير المغـول (التتـار) تمهيـدا لعقـد محالفـات معهـم ضـد المماليـك في مـصر وسـورية. ويؤسـفنا أن المجـال لا يتسـع هنـا لـدرس هـذه الناحيـة مـن النشـاط الأوروبي درسـا وافيـا، لذلـك نكتفـي بالإشـارة إليهـا.

وفي القرنـين الرابـع عـشر والخامـس عـشر نتعـرف إلى نـوع جديـد مـن الرحالـين هـم السـفراء السياسـيون المعروفـون والمتنكـرون بـزي الحجـاج أو التجـار. ومـن هـؤلاء مـن كان يقـوم بمهمتـه بنـاء عـلى طلـب البابـا أو أحـد الملـوك، ومنهـم مـن كان يفعـل ذلـك بدافـع شـخصي لكنـه يقـدم ثمـرة اختباراتـه إلى الرجـال المسـؤولين وفي هـذه الحـالات كان الباعـث التعـرف الى نواحـي الضعـف في الـشرق العـربي والوقـوف عـلى خـير الطـرق لاحتلالـه والقضـاء عـلى سـلطان أهلـه السـياسي وضمـه إلى المجـال الاقتصـادي الأوروبي.

أننـا نجـد حتـى في أيـام الصليبيـين رحالـين زاروا الـشرق للدراسـة العلميـة ومـع ولنقـل مـا فيـه مثـل ادلارد في القـرن الثـاني عـشر، إلا أن هـذا النـوع

مـن الرحالـين جـاء متأخـرا في أواخـر القـرن الخامـس عـشر والسـادس عـشر ففـي تلـك الأزمنـة أصبحـت الرحلـة ينظـر إليهـا عـلى أنهـا عامـل تهذيبـي يوسـع الأفـق العقـلي ويحمـل المسـافر عـلى التفكـير والتعلـم. ولنعـد إلى الحـج فنوليـه بعـض العنايـة لأنـه ظـلَّ طيلـة العصـور الوسـطى أحـد العوامـل الرئيسـة في الرحلـة إلى فلسـطين ومـا جاورهـا مـن الـشرق العـربي. حـج مسـيحيو أوروبـة إلى فلسـطين منـذ أن اسـتطاعوا الوصـول إليهـا وقـد وصلتنـا بعـض أنبـاء حجـاج القـرن القـرن الرابـع مكتوبـة وكان قصدهـم زيـارة الأمكنـة التـي ولـد السـيد المسـيح وعـاش فيهـا، واقتـصرت هـذه في أول الأمـر عـلى بيـت لحـم والقـدس والنـاصرة وبعضهـم كان يـزور نهـر الأردن (الشريعـة) وبحـيرة طبريـة. لكـن عـدد الأماكـن أخـذ يتزايـد وصـارت القصـص والروايـات تتراكـم حـول بقـاع متعـددة في فلسـطين فتجعـل منهـا مراكـز متصلـة بحيـاة المسـيح أو رسـله أو غيرهـم مـن القديسـين؛ وأنكـر آبـاء الكنيسـة قيمـة الحـج بـادئ الأمـر لكنهـم منـذ القـرن الخامـس، أو حتـى منـذ القـرن الرابـع، رأوا أنـه مـن الخـير لهـم أن يعترفـوا بالقيمـة الدينيـة لمثـل هـذه الأسـفار، فأقروهـا وانتهـى الأمـر بـأن أصبحـت الكنيسـة تطلـب إلى الخطـاة مـن أتباعهـا أن يكفـروا عـن خطاياهـم بالحـج إلى فلسـطين. وهكـذا بعـد أن كان الحـج في أشـكاله المختلفـة نتيجـة لدافـع شـخصي لتمجيـد اللـه وتقديـم الشـكر لـه وطلـب المعونـة ووفـاء لنـذر والحصـول عـلى آثـار شـخصية للقديسـين، جعلـت الكنيسـة منـه نظامـا أساسـه تكليـف المـرء القيـام بالحـج إلى أمكنـة معينـة وزيارتهـا بشـكل خـاص لتغفـر لـه خطايـاه لسـنة واحـدة أو سـبع سـنوات أو للحيـاة والـذي

نعرفـه أن مثـل هـذه الفـروض كانـت أو قـد أصبحـت واضحـة الحـدود في سـنة ١٠٥٩. ويحدثنـا الرحالـون المختلفـون عـن عـدد سـني الغفـران الكثـير مـن الأماكـن المقدسـة في فلسـطين في القـرن الثالـث عـشر والرابـع عـشر، ويذكـر كل مـن فابـري ووواي أمـام كل مـكان قيمتـه مـن الغفـران بالسـنين.

ونسـتطيع أن نشـير هنـا إلى أن الحجـاج الأوروبيـين لقـوا كل تشـجيع مـن السـلطات والهيئـات الرسـمية في زيارتهـم لـلأراضي المقدسـة هـذا، إذا اسـتثنينا مـا كان ينـال بعضهـم مـن اسـاءة أو يتعـرض لـه البعـض الآخـر مـن النهـب أو السـلب كنتيجـة لاضطـراب حبـل الأمـن. وحتـى بعـد سـقوط عـكا شـجع الحـكام الحجـاج عـلى الزيـارة. ففـي سـنة ١٣٠٤ دعـا حاكـم صفـد التجـار البنادقـة لزيـارة الأماكـن المقدسـة والاتجـار مـع سـورية وأمنهـم عـلى أرواحهـم وأموالهـم.

كان الأوروبي الـذي يرغـب في الحـج يتحتـم عليـه أن يحصـل عـلى اذن مـن رئيـس كنيسـته وآخـر مـن صاحـب السـلطان الزمنـي. وكانـت الكنيسـة تمنـح الإذن مجانـا أولا، لكنهـا جعلتـه لقـاء رسـوم معينـة منـذ أواخـر القـرن الخامـس عـشر. وكان الاذن يعطـى في حفلـة دينيـة خاصـة. فبعـد ذلـك يـودّع الحـاج أهلـه وجماعتـه ويبـدأ سـفره. والذيـن كانـوا يأتـون الأرض المقدسـة دون أن يحصلـوا عـلى إذن مـن الكنيسـة كان عليهـم أن يعلنـوا أنفسـهم للكاهـن عنـد حضورهـم أول خدمـة كنسـية في يافـا أو القـدس ليحلهـم الأسـقف مـن خطيئتهـم وليسـمح لهـم بالزيـارة.

كان الحـاج يرتـدي ثيابـا خاصـة يعـرف بهـا. والغالـب أن يرتـدي واحدهـم قبـاء أغـبر اللـون ويتمنطـق بحـزام عريـض عليـه صليـب أحمـر ويحمـل

عصاه وكيسا. وقد يسير البعض حفاة، خصوصا إذا كانوا يقومون بالحج كفارة لذنب بأمر الكنيسة.

وقد يهدي الحاج عصاه أو كيسه أو ثوبه أو حزامه، أو هذه الأشياء كلها إلى كنيسة بلده بعد عودته. وبالإضافة إلى ما يحمله الرحالة من النقود أو الثياب يغلب عليه أن تكون معه حلي ومجوهرات يعطيه إياها أقاربه وأصدقاؤه ليضعها على القبر المقدس للتبرك .. وقد يحمل الحجاج سبائك الفضة والذهب ويلجأون إلى شتى الوسائل لاخفائها.

كانت موانئ إيطالية - البندقية وجنوة وبيزا - ومرسيليا في فرنسة الأماكن التي يقصدها الحجاج المسافرون بحراً إلى فلسطين والمدن التي كانوا ينزلون فيها هناك كانت تختلف باختلاف الدول الحاكمة، لكن يافا كانت أكثرها استعمالاً حتى في أيام خرابها. وفي زمن الصليبيين كانت عكاء الميناء الرئيسي. أما الذين كانوا يريدون زيارة أجزاء أخرى من الشرق فكانوا يختارون الميناء المناسب، مثل رحالي القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

وقد اهتمت البندقية بسفريات الحجاج وغيرهم فنظمت رحلتين كل سنة في سفن كبيرة تسع الواحدة منها ١٥٠٠ من الركاب. وقد كان فرسان القديس يوحنا ينقلون نحو ٦٠٠٠ مسافر في السنة الواحدة . أما مدة الرحلة البحرية فقد كانت تستغرق بين السنة والثمانية من الأسابيع، والوقت العادي الذي يقضيه الحجاج في القدس عشرة أيام لزيارتها وما حولها.

كان الحاج يعد نفسه ضيفاً على الدير الذي يمر به أو رئيس الكنيسة في البلدة الواقعة في طريقه، أو أي جماعة يجتاز منازلها سواء في ذلك بلاده أو الأرض المقدسة، لكن منذ القرن الحادي عشر اعتنى المسؤولون، وخصوصاً فرق الفرسان ببناء المضافات لإقامة الحجاج في القدس وعكا وقبرص ورودس ومالطة. ونجد أن رجال الدين والرهبان كانوا يقيمون في المنازل الكنسية في القدس، مثل منزل جبل صهيون، أما الحجاج الأخرون فكانوا يستأجرون غرفاً أعدها أهل القدس لهذا الغرض، وكان الترجمان واسطة الاستئجار.

وقد وصلت إلينا معلومات كثيرة عن نفقات هذه الرحلات، نذكر هنا بعضها على سبيل المثال:

في القرن الثاني عشر الميلادي أنفق غوزوين مئة مارك من الفضة (نحو خمسين جنيهاً مقدرة بعملة ما قبل الحرب العالمية الثانية في زيارته للأرض المقدسة. ويمكن القول إن مبلغاً يتراوح بين ٢٨٠ و ٣٠٠ من الدوكات أي (١٤٠ - ١٥٠ من الجنيهات) كان يكفي لرحلة مريحة. وفي القرن الثالث عشر كان الشخص الواحد يدفع ماركاً فضيا واحداً أجرة لنقله بحراً. أما الفارس فيدفع ثمانية ماركات فضية عن نفسه ورجاله الثلاثة (تابعين وخادم) وخيولهم . ولما حج اغناطيوس ليولا في القرن السادس عشر دفع نحو سبعة فلورينات ذهبية أي) نحو ثلاث جنيهات أجرة نقله من البندقية إلى يافا.

وفي سنة ١٤٦١م حج وليم دوق سكسونيا فأنفق مئتي ألف مارك فضة (نحو ١٠٠,٠٠٠) جنيه.

ومع أننا لا ندري تماما عدد الرحالين الذين زاروا فلسطين أو غيرها من بلاد الشرق العربي فما لا شك فيه أنه كان كبيرا. ويكفي أن نذكر أن رورخت جمع أسماء ما يزيد على ١٤٠٠ من الحجاج الألمان المعروفين الذين زاروا البلاد بين ١٣٠٠ و١٦٠٠.

الحجّاج المسيحيُّون

•••

يمتاز القرن الرابع الميلادي باعتناق قسطنطين الكبير ٣١٢ - ٣٣٧ م المسيحية وجعلها دينا رسميا من أديان الإمبراطورية الرومانية. وبذلك أصبح للكنيسة صفة رسمية لم تلبث أن سيطرت على الحياة العقلية في أوروبة. فلما سقطت الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس قوي سلطان الكنيسة وتغلغلت آراؤها في المجتمع الأوروبي، فكان من جراء ذلك أن فقد هذا المجتمع النشاط العلمي المدني الذي بدأ يتذوقه في أيام الإمبراطورية الرومانية، واستعاض عنه بحماسة دينية كانت بعيدة الأثر في نفوس القوم والذي يعنينا من آثار هذه الحماسة أنها دفعت الكثيرين من الأوروبيين إلى زيارة البلاد التي عاش فيها المسيح. فتجشموا مشاق الأسفار وتحملوا صعوبات التنقل، لينعموا برؤية فلسطين والتبرك بآثارها. ومن ثمّ عني هؤلاء الزوار بالتعرف إلى الأماكن التي ظنوا أن لها علاقة بحياة المسيح أو رسله غيرهم من القديسين وقد قبلوا الأقاصيص التي سمعوها والأساطير التي حكيت لهم دون أن يجادلوا بشأنها أو يناقشوها. ولذلك يتحتم علينا أن نقرأ أخبارهم ونحن على أشد ما نكون من الحذر.

وإذا تذكرنا هذا الأمر عرفنا السر في انعدام الشمول والإحاطة في أخبار هؤلاء الحجاج فقد كان همهم أن يتنقلوا في البلاد باحثين عن الأماكن المقدسة المسيحية دون ملاحظة ما بينها، أو العناية بشؤون السكان، إلا إذا جاء ذلك لمسألة شخصية. ويلفتنا الدكتور بلس بهذه المناسبة، إلى

أن انطونيـوس الشـهيد (مـن حجـاج القـرن السـادس) إنمـا ذمّ أهـل صـور وصيـدا ومـدح أهـل غـزة لأن الأولـين ضايقـوه والآخريـن أظهـروا حبهـم للسـياح.

ونـرى أنـه منـذ القـرن السـادس تـزداد الروايـات عـن الآثـار المقدسـة، أي الأشـياء التـي تعـزى إلى شـخص المسـيح ومـن لـه بـه صلـة. والسـبب في ذلـك يرجـع إلى رغبـة نصارى الغـرب أنفسـهم في الآثـار المقدسـة، وعنايـة السـياح وغيرهـم بإشـباعها.

ومـن الطبيعـي أن تتجـه عنايـة الحجـاج نحـو فلسـطين، دون غيرهـا مـن أجـزاء بـلاد الشـام أو مـصر. عـلى أننـا مـع ذلـك نجـد أن خمسـة مـن هـؤلاء الحجـاج - بينهـم سـيدة واحـدة - اتسـعت أسـفارهم فشـملت بعـض الأقطـار المجـاورة، وهـم سـلقيا (مـن القـرن الرابـع (وأنطونيـوس (مـن القرن السـادس) واركولـف (مـن القـرن السـابع) وولبولـد (مـن القـرن الثامـن) وبرنـارد (مـن القـرن التاسـع).

وقـد وصلـت إلينـا مخلفـات الكثيريـن مـن زوار الأراضي المقدسـة بـين القـرن الرابـع والقـرن التاسـع، وأبعدهـم أثـرا في تعريفنـا بالبـلاد هـم: مـن القـرن الرابـع حـاج بـوردو ٣٣٣، وبـاولا ٣٨٥ وسـلقيا (اثريـا)، مـن القـرن الخامـس جـيروم وبوخـيروس وداود مـن القـرن السـادس ثيودوسـيوس وانطونيـوس ٥٦٠، ومـن القـرن السـابع اركولـف حـول ٧٠٠، ومـن القـرن الثامـن ولبولـد ٧٢١ - ٧٢٧، ومـن القـرن التاسـع برنـارد الحكيـم ٨٦٧. ووصـل إلينـا أيضـا كتـاب مـن القـرن السـادس لا نعـرف شـيئا عـن مؤلفـه بعنـوان وصـف مختـصر للقـدس».

كان حاج بوردو أول زائر وصلتنا أخباره كاملة. وهو يحدثنا في أول كتابه عن الطريق التي اتبعها في سفره من مدينته بوردو بفرنسة إلى أن وصل قيسارية بفلسطين، مارا بميلان وبلغراد والقسطنطينية وأنطاكية. ومن قيسارية زار بيسان فنابلس فالقدس فالخليل. ومن القدس اتجه لزيارة أريحا ونهر الأردن والبحر الميت. ثم عاد من القدس إلى اللد ومن ثمَّ إلى القسطنطينية فبوردو. والكاتب ينقلنا من مكان إلى آخر نقلا سريعا، دون أن يصف الطريق أو السكان، لكنه يروي قصة هنا وأخرى هناك مما له علاقة تاريخية بالأماكن كالذي يرويه إذ وصل زرعين في مرج ابن عامر في شمال فلسطين: «هنا حكم آخاب ووعظ ايليا». أما باولا فقد قضت سنتين متنقلة مسافرة تصحبها ابنتها فزارتا أثناءهما من فلسطين يافا والقدس والخليل والجليل كله ونابلس وغزة وذهبتا إلى مصر برا وعادتا منها بحرا إلى غزة ثم استقرتا في بيت لحم إلى حين وفاة الأم سنة ٤٠٤ وقد انصرفت في هذه المدة إلى أعمال البر فأنشأت أديرة وتكايا للحجاج بين يافا وبيت لحم.

وقد روى جيروم أخبار باولا وجمع رسائلها بعد موتها بمدة وهي فياضة بالحيوية زاخرة بالعاطفة، فضلا عن أنها تحتوي على فوائد طبوغرافية ترجح أن الفضل فيها يعود إلى جيروم. وقد ورد وصف شائق لبيت لحم في إحدى رسائلها جاء فيه: «كل ما في قرية المسيح خلا التسابيح، هادئ. حيثما قلبت وجهك سمعت التهليل. فالحارث القابض على محراثه ينشد هللويا، والحاصد المضنى يستعيد نشاطه بتلاوة المزامير، وحارس الكرم يرتل نشيد داود هذه أشعار السكان

وأناشيدهم في هذه هي البلاد، هذه هي أغاني الحب التي يرددها الراعي ويترنم بها الفلاح. لا يهمنا أن نفكر فيما نعمل ولا كيف نظهر، بل أن نرى ما تتوق إليه نفوسنا».

كانت رحلة القديسة سلفيا (أثريا) أوسع نطاقا وأبعد مدى من سابقتها بأولا، إذ شملت مصر وسيناء وفلسطين وشرق الأردن وسورية وبعض آسية الصغرى والجزء الأول من رحلتها مفقود، لكن الباقي منه يدل على دقة في الوصف حتى إن بيزلي قال عنها: «لو أن كل ما وصلنا من الأخبار كتبه أشخاص على شاكلتها، وكانت لهم ثقافة علمية وخبرة عالمية، لكانت معرفتنا عن الشرق أقرب إلى الصواب مما الآن». هي أقامت سلفيا في القدس ثلاث سنوات حول سنة (٣٨٥) ووصفها للقدس من الناحية الطبيعية بين ما وصل إلينا من كتاباتها. لكننا حصلنا منها على وصف حفلة تقبيل الصليب يوم الجمعة الحزينة (الجمعة العظيمة) في الجلجثة في كنيسة القيامة إذ تقول .. جلس المطران في مقعده الخاص ووضعت أمامه طاولة عليها صندوق فضي يحتوي خشب الصليب المقدس فتح الصندوق ووضع ما فيه على الطاولة، فوضع المطران يده على الخشبة وتنبه الأساقفة المحيطون به للحراسة، وتقدم الناس واحدا واحدا فانحنوا ثم لمسوا الصليب بجباههم أولا ثم بمحاجرهم ثم قبلوه ومروا. والغاية من وجود الأساقفة هو المحافظة على خشب الصليب إذ إنه حدث مرة أن اقترب أحد الناس لتقبيله فعض جزءا منه للتبرك وهرب به».

لكن سلقيا نقلت في أخبارها ما سمعته من القصص عن الأماكن المقدسة، وروت أنها رأت شجرة الحق التي غرسها موسى وهارون في صحراء التيه والمكان الذي أقام فيه بنو اسرائيل العجل الذهبي، والعليقة التي كلّم موسى أمامها الرب بعد أن رآها تتقد. هذا إلى عشرات من هذه الأمثلة.

ومن حجاج القرن الخامس اثنان حريان بالذكر جيروم وداود أقام جيروم في بيت لحم أربعا وثلاثين سنة وتوفي فيها سنة ٤٢٠. وقد تنقل كثيرا في فلسطين. والأثر الرئيسي لجيروم أنه نقل كتاب يوزبيوس (من أهل القرن الرابع) (من اليونانية إلى اللاتينية وعلق عليه وزاد في معلوماته، حتى صح أن يعتبر أحد مؤلفي الكتاب. والكتاب يحتوي على ثلاثمئة اسم لأماكن مختلفة في الأرض المقدسة من حيث علاقتها بالكتاب المقدس، مع ذكر المسافات بينها، فضلا عن سبعمئة مكان آخر لا يعينها بالضبط لأنها كانت قد درست وعفت آثارها. والكتاب يمكن الاعتماد عليه في أنه حفظ لنا النظرة التقليدية للأماكن كما كانت معروفة في أيامه، وهذه كان قد تسرب إليها بعض الخطأ. ومن هنا جاء ما نجده من اضطراب في بعض النتائج التي وصل إليها جيروم، عندما نقابلها بنتائج البحث العلمي الحديث. وجدير بنا أن نذكر هنا أن جيروم ترجم الكتاب المقدس إلى اللاتينية وهي الترجمة المعروفة باسم Vulgate.

أما داود الولشي فقد أوحي إليه وإلى اثنين آخرين أن يتوجهوا إلى القدس ليقوموا بواجب الحج، فلما اجتازوا بحر المانش وهبطوا

فرنسة لم يستطيعوا التفاهم مع أهلها فحلت نعمة الروح القدس على داود فصار يتكلم بكل لسان، ولم يبق ثمة صعوبة. ولما وصلوا القدس قابلهم البطريرك، الذي كان قد أوحي إليه باقترابهم، بالتبجيل، وسمى القديس داود رئيس أساقفة. وهناك طلب إليهم أن يدحضوا حجج اليهود الدينية، فقاموا بالأمر، حتى أقنعوا الكثيرين الذين أخذوا يدخلون في المسيحية أفواجا. وقد كافأ البطريرك داود على خدماته بهدية مقدسة شملت مذبحا وجرسا كبيرا وهراوة وحلة منسوجة من الذهب. وكل واحد منها كانت لها كرامات وعجائب. ولما اعتزم داود العودة إلى بلاده حملت الملائكة له الهدية، إذ لم يكن باستطاعته أن يحملها بنفسه. وكذلك حملت هدايا رفيقيه.

وصلنا إلى حجاج القرن السادس الذين بقي من آثارهم «الوصف الموجز لمدينة القدس» و «رحلة مثيودوسيوس» وأخبار انطونيوس الشهيد وتمتاز هذه كلها، وغيرها مما وصلنا من القرن نفسه، بعنايتها بالآثار المقدسة التي يتزايد عددها حتى يبلغ المئات في القرون التالية. فالوصف الموجز» يعدد الحربة المقدسة، المصنوعة من خشب الصليب، والتي تلمع في ظلام الليل الدامس كأنها الشمس في رابعة النهار والقرن التي صُب منه الزيت على رأس كل من داود وسليمان لما مسحا ملكين والخاتم الذي كان سليمان يختم به على الجن والتراب الذي خلق آدم منه، والقصبة والاسفنجة عدا عشرات غيرها من الآثار. وقد تابعه ثيودوسيوس (٥٢٠ - ٥٣٠) فذكر هذه وأضاف إليها سواها. أما أنطونيوس الشهيد (سنة ٥٧٠) فقد كانت رحلته مثل

رحلة سلقيا واسعة النطاق طريفة في أخبارها، فقد زار فلسطين وسيناء ومصر وسورية والجزيرة ودوّن ما رأى وسمع، فجاءت كتاباته مليئة بذكر الآثار القدسية مثل كرسي مخاض العذراء ودنان الخمر في قانا الجليل (كفركنا) والكتاب الذي تعلم فيه المسيح «الألفباء» في الناصرة، حيث لا يزال المقعد الذي جلس عليه مع رفاقه موجودا. ويقول في مكان آخر إن أهل السامرة كانوا يكرهون المسيح حتى إنهم كانوا يحرقون آثار أقدام السياح المسيحيين ويأبون أن يأخذوا منهم النقود قبل طرحها في الماء لتطهر من رجس أيديهم. ويحدثنا أنطونيوس عن التكايا التي أنشئت في البلاد المقدسة لإيواء الحجاج والأماكن التي كان يعتزل فيها البرص. ولكنه يبالغ في عددها وفي سعتها. منذ أوائل القرن السابع تغيرت الأحوال السياسية في الشرق الأدنى كله. فقد احتل الفرس سورية ٦١٤ - ٦١٧ ودمروا الكنائس وغيرها من أماكن العبادة ولما استعاد البيزنطيون البلاد رمموا بعض ما تهدم. ومن ذلك كنيسة القبر المقدس. وفي القرن نفسه احتل العرب سورية بعد معركة اليرموك ٦٣٦، والذي نعرفه أن هذا الاحتلال لم يمنع الحجاج من المجيء إلى الأراضي المقدسة بل إن العرب شجعوهم على القيام بهذا الفرض الديني. فالحجاج الذين زاروا البلاد في العصر الأموي مثلا لا نجد في كتابتهم أثرا للشكوى أو التذمر. إلا أننا نلحظ أنهم أخذوا يفدون بطريق مصر، بدلا من طريق آسية الصغرى، بسبب العداء الذي كان مستحكما بين العرب والروم. والحوادث العدائية الفردية التي وقعت لبعض الحجاج كان سببها وشاية اليهود. ولما قام العباسيون اتسع نطاق التجارة مع

العرب وزادت الزيارات عما كانت عليه قبلا. وهذه الفترة التي مرت بين احتلال العرب لسورية وبين أواخر القرن التاسع يمثلها ثلاثة من الحجاج أركولف وولبولد وبرنارد الحكيم.

أركولف مطران من بلاد الغال زار الأراضي المقدسة ودمشق وصور والاسكندرية والقسطنطينية في أواخر القرن السابع وقضى في القدس تسعة شهور وتردد على كل البقاع المحيطة بها. وقد قص أخبار سياحته على راهب انكليزي اسمه أدمنان وهذا دونها فيما بعد، ولعله أضاف إليها شيئا نقله من أخبار الرحالين السابقين.

تقع أخبار أركولف في ثلاثة أقسام. أولها عن القدس وما إليها، والثاني عن بقية الأراضي المقدسة ومصر. والثالث عن القسطنطينية. والرحالة يعني بملاحظة أمور كثيرة لها علاقة مباشرة بجغرافية البلاد في أيامه. فهو يشير إلى صخور جبال القدس الجرداء وقحولتها ونباتها الشائك وضعف محصولها الزراعي، ويقارنها بالأرض الخصبة حول قيسارية والزيتون الكثير المزروع في الطريق إليها. وينتبه إلى الغابات الكثيفة التي كانت تحيط ببحيرة طبريا والبساتين المحيطة بدمشق وأزهار جبل طابور. وقد زار برية الأردن ووصف النهر ومكان اعتماد المسيح والجراد والعسل البري الذي استعمله يوحنا في حياته، إذ يقول: «وفي البرية نوع من الجراد الصغير لا يتجاوز حجم الواحد منه حجم الإصبع، يسهل القبض عليه لأنه يقفز ولا يطير، يقلى بالزيت ويستعمل طعاما. وفيها أيضا شجر له أوراق كبيرة مستديرة، إذا ضغطت خرجت منها عصارة حلوة - هذا هو العسل البري»، وإذ يصل أركولف إلى

الإسكندرية يصف ميناءها وصفا دقيقا ويشير إلى اتساع نطاق تجارتها ويحددها ببحيرة مريوط والنيل ويقول إنه احتاج إلى نهار كامل من أيام تشرين الأول (اكتوبر) حتى تمكن من اختراقها. ويعلق رايط على هذا الوصف بقوله: يظهر مما بين أيدينا من وصف أركولف ان الاسكندرية لم تفقد قيمتها بعد الفتح العربي.

لكن أركولف مع كل ذلك لم يستطع أن يتخلص من الروح الدينية العامة القائمة على أن للآثار المقدسة فعلا عجيبا في شفاء الأمراض وغفران الخطايا. فهو يعدد الآثار التي رآها مثل الكأس الفضية المقدسة والمنديل الذي غطي به المسيح في القبر والاسفنجة والحرية التي شهدت صلب المسيح. وقد لمسها وقبلها. وذكر أنه توجد على جبل الزيتون (الطور) كنيسة الصعود التي لا سقف لها؛ لأن عاصفة تهب في كل سنة في مثل الوقت الذي صعد فيه المسيح إلى السماء فتعصف بالسقف إذا كان موجودا أو بالمواد التي تكون قد جمعت لبنائه. وقد شاهد ذلك بنفسه. ويقول في مكان آخر: اعتاد الناس أن يفدوا إلى القدس جماعات كبيرة في الخامس عشر من أيلول (سبتمبر) من كل سنة للاحتفاء بعيد الصليب المقدس ولتبادل السلع والبضائع حتى إنه كان من الصعب السير في طرق المدينة لكثرة الأقذار المسببة عن الحيوانات التي يؤتى بها. ولكن العناية الإلهية كانت تبعث على أثر مغادرة الناس للمدينة بأمطار غزيرة تنظفها.

وولبولد الانكليزي الذي زار سورية بين ٧٢١ - ٧٢٧ هو بطل سياح القرن الثامن. وقد كان من عادة الكثيرين من جوابي تلك العصور

وحجاجها أن يكتفوا بذكر أسماء ما يمرون به من البلاد قبل وصولهم فلسطين، فإذا جاءوها ذكروا أخبارهم بالتفصيل. لكن ولبولد يصف رحلته كلها في أواسط أوروبة واجتيازه جبال الألب ومروره برومة والبراكين التي شاهدها. ويقول مثلا إن سكان المدينة المجاورة لبركان أتنا في صقلية يدفعون عن أنفسهم غائلة ثوران هذا البركان برفع وشاح القديسة «أغاتا» المدفونة عندهم، فيهدأ ثائر جهنم.

هبط ولبولد سورية في طرطوس وسافر منها إلى حمص. ولما كان العرب يخشون عندها تجسس الغربيين بسبب ما كان بينهم وبين الروم من عداء، وكان عدد رفاق ولبولد قد بلغ الثمانية، فقد راب القوم أمرهم، وألقي القبض عليهم وزجوا في السجن، إلى أن حقق معهم ومثلوا أمام الخليفة يزيد الثاني (٧٢٠ - ٧٢٤). فلما عرف بلادهم وغايتهم أطلق سراحهم وزودهم برسائل تمكنهم من التجول في البلاد وأعفاهم من ضريبة الحج، فسافروا إلى دمشق ومنها إلى القدس بطريق الناصرة وطبرية ووادي الأردن وأريحا واتخذوا المدينة المقدسة مركزا لزياراتهم. وقد مروا في إحداها بحمص ثانية فزودهم حاكمها بكتاب لكل اثنين منهم وأمرهم أن يسافروا اثنين اثنين فقط إذ لم يكن سبيل لهم للحصول على طعام يكفيهم جميعا إذا سافروا معا.

كان نقل زيت البلسان من فلسطين ممنوعا. وكان عقاب من يخرجه الموت. ولكن ولبولد رغب في حمل بعضه إلى بلاده، فملأ أنبوبة صغيرة منه، ثم جعلها في أنبوبة أخرى أكبر منها ملأها زيتا صخريّا لعله

النفط أو القار. فلما وصل إلى صور وفتشوا أمتعته لم يهتدوا إلى البلسم بسبب رائحة الزيت. ومن صور سافر ولبولد إلى القسطنطينية.

والفائدة الجغرافية التي نحصل عليها من أنباء ولبولد قليلة، لأنها مقصورة على ملاحظات تتعلق ببعض الأماكن التي لها علاقة بالتوراة. لكن الصورة التاريخية لذلك العصر، من حيث الحاجة إلى جواز سفر للتنقل وعناية الحكام بالتدقيق على الغرباء والتفتيش على بضائعهم وأمتعتهم المتعلقة بمعيشة الناس، ذات قيمة كبيرة. برنارد الحكيم هو نموذج سياح القرن التاسع الميلادي، وهو القرن الأخير من عصر التفاهم والتسامح بين الشرق والغرب الذي سبق الحروب الصليبية، وبرنارد لا يبدأ رحلته قبل أن ينال رضى قداسة البابا في رومة، ثم هو يمر بالأراضي الإيطالية التي كانت خاضعة للنفوذ العربي، فيحمله صاحب باري رسائل إلى أمير الاسكندرية وإلى أمير الفسطاط في مصر. وكذلك كان شأنه في كل مدينة مر بها أن يعطي كتابا إلى السلطة الحكومية في المدينة التالية لقاء دينار أو دينارين.

كان برنارد أدق ملاحظة وأحرص على راحة المسافرين ممن سبقه، لذلك عني بوصف صعوبات الطريق وأماكن اكتراء الدواب وشراء الزاد للسفر. وقد جاء برنارد فلسطين من الجنوب، على نحو ما دخلها ابن بطوطة بعده بنحو خمسة قرون. فجاء من دمياط إلى تنيس بحرا ثم سار إلى الفرما (القلزم). وفي الفرما وجد كثيرا من الإبل يكتريها المسافرون لحملهم وأمتعتهم ستة أيام عبر الصحراء. ويذكر برنارد

خانين كبيرين هما مركزان للتبادل التجاري بين المسافرين وأهل البلاد. ثم يمر بالعريش وغزة ويصف الأرض المنزرعة حول الأخيرة ويقارنها بالصحراء البيضاء كأنها مكسوة بالثلج دائما. وإذ يصل إلى الرملة يتجه نحو القدس ويحل في النزل الذي كان قد بناه شارلمان للحجاج.

ويؤسفنا أن برنارد يقتضب كثيرا عندما يصف القدس وبقية فلسطين. لكنه يعنى بذكر الحفلات الدينية. وهو أول من ذكر «فيض «النور» في اليوم السابق ليوم الفصح المقدس. فقد قال: «يجد الداخل إلى القبر قناديل كثيرة معلقة فوقه. فإذا كان صباح السبت السابق ليوم الفصح بدئت الصلاة في الصباح، حتى إذا تمت أنشد الكل بصوت رخيم استجب يارب، واستمروا في ذلك حتى ينزل الملاك وينير القناديل المذكورة. وعندها يتقدم البطريرك ويعطي لكل مطران حصته من هذا النور المقدس ثم يسمح للشعب أن ينير كل قنديله.

وعلى ذكر ما أورده برنارد عن سبت فيض النور تنقل ما كتبه أبو الفرج عن هذه المسألة في زمن الحاكم بأمره: قيل إنه وشى بعضهم إلى الحاكم أن النصارى يوم فيض النور يدهنون السلاسل التي تعلق بها القناديل بزيت البلسم، فإذا جاء الحارس العربي المكلف حراسة القبر وختم بابه، خشية التلاعب فيه، أشعلوا البلسم الذي على السلاسل من ثقب خفي، فتضاء القناديل وعندها تنهمر دموع الفرح من مآقي الشعب ويصيح يا رب ارحم حاسبين أن النور قد هبط من السماء فيقوى بذلك إيمانهم.

كان القـرن التاسـع الميـلادي (القـرن الثالـث الهجـري) عـصرا مـن عصـور النظـام والاسـتقرار في الـشرق العـربي، بينـما كان فـترة مـن فـترات الاضطـراب في أوروبـة. وقـد تـرك ذلـك في نفـس برنـارد أثـرا قويـا بـدا في الملاحظـة التـي ختـم بهـا أخبـاره عـن رحلتـه، إذ قـال إن المسـلمين والمسـيحيين في القـدس ومـصر هـم عـلى تفاهـم تـام. حتـى إننـي إذا سـافرت ونفـق في الطريـق جمـلي أو حـماري وتركـت أمتعتـي مكانهـا وذهبـت لاكـتراء دابـة مـن البلـدة المجـاورة عـدت فوجـدت كل شيء عـلى حالـه لم تمسـه يـد. فقانـون الأمـن العـام في تلـك الديـار يقـضي عـلى كل مسـافر بالليـل أن يكـون بيـده وثيقـة تبـين هويتـه. فـإذا عدمهـا زج في السـجن حتـى يحقـق في أمـره ويتضـح أمـره ويتضـح قصـده.

وقـد وصلـت إلينـا انبـاء كثيريـن مـن الحجـاج الذيـن جـاءوا إلى الأرض المقدسـة والبلـدان المجـاورة في القرنـين العـاشر والحـادي عـشر نكتفـي بالإشـارة إلى بعضهـم. فممـن جـاء في القـرن العـاشر كونـراد أسـقف كونسـتانس ٩٣٤ - ٩٧٦ وهكـذا أم جـيرو رئيـس أسـاقفة كولـون بألمانيـا، والكونتـس هومونـد مـن ايبرزبـرغ. أمـا رحالـو القـرن الحـادي عـشر فمنهـم يوبـو رئيـس أسـاقفة تربـير بفرنسـا ١٠٢٨ - ١٠٣٠م وقـد وصـل إلى نهـر الفـرات. وفي سـنة ١٠٦٤ - ١٠٦٥م جـاء فلسـطين أربعـة أسـاقفة هـم سـغفريد أسـقف مينـز وغونـتر أسـقف بامـبرغ ووليـم أسـقف اترخـت واوتـو أسـقف ويغتزبـرغ وقـد كان معهـم سـبعة آلاف رجـل، فقـد أكثرهـم في البحـر وفي معـارك السـلاجقة في فلسـطين ولم يعـد منهـم سـوى ألفـين.

الجغرافية والرِّحلات في الإسلام

•••

كانت مسألة إدارة البلاد المفتوحة وتنظيمها من أمهات المسائل التي شغلت العرب، وهي مسألة كثيرة التعقيد لارتباطها بالطريقة التي تم بها الفتح. لذلك اهتم أصحاب السير والمغازي ورواة الأخبار ببحثها، ليتقرر مقدار الجزية والخراج ومن ثم كان وصف البلدان جزءا من عمل المؤرخين. لكن الأمر لم يلبث أن اختلف. فاستقل كتاب بوصف الأقاليم ودرسها. وكانت المحاولات الأولى تدور حول التعرف إلى البلاد وطرقها وخراجها. ومن ثمَّ كان كتاب المسالك والممالك»، وهو من أقدم الكتب الجغرافية العربية، تقريرا عن جباية المملكة العباسية في أواسط القرن الثالث، وليس من المصادفات أن مؤلفه ابن خرداذبه، كان متولي البريد والخبر بنواحي الجبل بفارس. وكذلك كتاب «الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر، فإنه يبين الطرق والمسافات فضلا عن قيمة جباية المملكة.

وقد شجع الإسلام الكتابة الجغرافية من ناحيتين أخريين أما الأولى فجاءت عن طريق الحج. فالحج فريضة على المسلم ما استطاع إليه سبيلا. ومن حق الحاج على سلفه أن يبين له خير الطرق للوصول إلى مكة والمدينة، ويشرح له الصعوبات ووسائل التغلب عليها وكان أثر هذا الأمر كبيرا في إثارة الكتاب إلى تدوين ما لاحظوا ورأوا. كابن جبير وابن بطوطة. وأما الناحية الثانية التي شجع الإسلام فيها الكتابة الجغرافية فهي طلب العلم. فقد كان المسلمون يتنقلون في سبيل انتجاع

المعرفـة مـن قطـر إلى آخـر. وحـرص علماؤهـم عـلى تدويـن مشـاهداتهم ليطلـع عليهـا الخلـف ويسـتفيد منهـا. ونحـن إذا عرضنـا للمكتبـة الجغرافيـة العربيـة وجدناهـا تضـم انتـاج مـا يقـرب مـن الثلاثـين مـن كبـار المؤلفـين الذيـن وصلـت إلينـا آثارهـم غـير الذيـن لم يبـق مـن كتابتهـم شيء. وقـد تأثـرت الأبحـاث الجغرافيـة في عهدهـا الأول بمـا وصـل إليـه اليونـان مـن قبـل، شـأن بقيـة الأبحـاث التـي أخذهـا العـرب عنهـم.

ومـع أنـه لم تصـل إلينـا ترجمـة تامـة لكتـاب بطلميـوس، فقـد خلـف لنـا الخوارزمـي الفلـكي خلاصـة لـه عملهـا سـنة ٨٣٠ ميلاديـة. فالأطـوال والعـروض والمواقـع عنـده وعنـد غـيره مـن معاصريـه ترجـع في غالبهـا إلى كتـاب بطلميـوس. ومـن أظهـر آثـار العـالم اليونـاني في جغرافيـي العـرب في هـذه الفـترة تقسـيم الأرض إلى سـبعة أقاليـم، وكتـاب الكنـدي المسـمى «رسـم المعمـور مـن أقطـار الأرض» هـو اقتبـاس لبطلميـوس اليونـاني.

وابـن خـرداذ بـه نقـل بعـض كتابـه المسـالك والممالـك عـن بطلميـوس أيضـا، ثـم أضـاف إليـه الخـراج والطـرق عـلى مـا ذكـره هـو في مقدمـة كتابـه. ومثـل ذلـك يقـال عـن اليعقـوبي وابـن الفقيـه وابـن رسـته.

ويـرى ميلـر أن هـؤلاء الكتـاب الجغرافيـين العـرب الذيـن ذكـروا يمثلـون المعرفـة الجغرافيـة اليونانيـة الرومانيـة مترجمـة إلى اللغـة العربيـة، وأن الخـرط التـي رسـموها كانـت منقولـة عـن بطلميـوس.

عـلى أن القـرن الرابـع الهجـري (العـاشر الميـلادي) يمثـل في تاريـخ البحـث الجغـرافي العـربي فـترة النضـج. والاصطخـري وابـن حوقـل والمقـدسي يمثلـون درجـة عاليـة في البحـث المبنـي عـلى الاختبـار الشـخصي والمعرفـة المكتسـبة

مـن السـفر والتنقـل والتأليـف الجغـرافي الناضـج هـذا اسـتمر ثلاثـة قـرون وكانـت تظهـر فيـه، في أول أمـره، آثـار فـارس، لكنـه لم يلبـث أن خلصـت عروبتـه والاتجاهـات التـي نلمسـها فيـما خلَّفـه لنـا كتـاب هـذه الأزمنـة ثلاثـة أولهـا عنايـة شـديدة بأقاليـم العـالم الإسـلامي والأقطـار المجـاورة عـلى مـا نـراه عنـد البلخـي والاصطخـري وابـن حوقـل والمقـدسي وثانيهـا نـوع مـن التخصـص في قطـر واحـد. فقـد كتـب الهمـذاني «صفـة جزيـرة العـرب». وكتـب البـيروني عـن الهنـد وتـرك لنـا ابـن فضـلان وصفـا لبـلاد الصقالبـة (عـلى الفولغـا) إذ زار بلادهـم في وفـد الخليفـة المقتـدر سـنة ٣١٠هـ / ٩٢١م. وأمـا الاتجـاه الثالـث فقـد بـدا في كـثرة المعاجـم الجغرافيـة التـي وجـدت طريقهـا إلى المكتبـة الجغرافيـة منـذ القـرن الخامـس للهجـرة (الحـادي عـشر للميـلاد). فالبكـري يعرفنـا بكتابـه بقولـه: «هـذا كتـاب معجـم مـا اسـتعجم ذكـرت فيـه جملـة مـا ورد في الحديـث والأخبـار والتواريـخ والأشـعار مـن المنـازل والديـار والقـرى والأمصـار والجبـال والآثـار والميـاه والآبـار والـدارات والحـرار منسـوبة محـددة ومبوبـة عـلى حـروف المعجـم مقيـدة. وياقـوت الحمـوي في طليعـة أصحـاب المعاجـم الجغرافيـة عـلى الإطـلاق. فكتابـه معجـم البلـدان خزانـة علـم وأدب وتاريـخ وجغرافيـة لأنـه إذا ذكـر بلـدا أورد شـيئا مـن تاريخـه ومـن اشـتهر فيـه أو نسـب إليـه مـن الأدبـاء والشـعراء والفقهـاء. هـذا بالإضافـة إلى «مقدمـة وافيـة في علـم الجغرافيـة». والمعجـم دقيـق في معلوماتـه منظـم في طريقتـه. وتمتـاز هـذه الفـترة بـأن الخـرط التـي رسـمها هـؤلاء الجغرافيـون «كانـت انتاجـا عربيـا خالصـا، وقـد أحـصى ميلـر مئتـين وخمسـا وسـبعين خارطـة للعـالم الإسـلامي

تعـود إلى ذلـك العـصر (هـذا باسـتثناء خـرط الادريـسي الآتي ذكرهـا فيـما بعـد).

ثمـة ناحيـة أخـرى مـن الإنتـاج الجغـرافي حريـة بالعنايـة هـي الموسـوعات الكبـيرة التـي ظهـرت في القـرن الثامـن الهجـري، فقـد وصلـت إلينـا كتـب فيهـا التاريـخ والأدب والجغرافيـة وغـير ذلـك. ومـن هـذه نهايـة الأرب للنويـري وصبـح الأعـشى للقلقشـندي ومسـالك الأبصـار لابـن فضـل اللـه العمـري. فهـذه الكتـب المعتـبرة في مقدمـة خزائـن المعرفـة تحـوي فصـولا في الجغرافيـة العامـة والسياسـية تمدنـا بالكثـير مـن معلوماتنـا عـن الـدول الإسـلامية وغيرهـا مـن الأقطـار في تلـك العصـور.

وتمتـاز الكتـب الجغرافيـة العربيـة، وخاصـة بعـد تحررهـا مـن تأثـير اليونـان المبـاشر بأنهـا تعتمـد عـلى المشـاهدة الشـخصية والحـس. فاليعقـوبي يقـول عـن نفسـه إنـه سـافر وحـدث وسـأل. وابـن حوقـل يقـول: «وأعاننـي عـلى تأليفـه تواصـل السـفر وانزعاجـي عـن وطنـي... إلى أن سـلكت وجـه الأرض بأجمعـه في طولهـا، وقطعـت وتـر الشـمس عـلى ظهرهـا». أمـا المقـدسي فقـد جـال في البلـدان ودخـل أقاليـم الإسـلام ولقـي العلـماء وخـدم الملـوك وجالـس القضـاة ودرس عـلى الفقهـاء واختلـف إلى الأدبـاء والقـراء، وخطـب عـلى المنابـر، وسـاح في الـبراري وتـاه في الصحـاري وأشرف عـلى الغـرق وسـجن في الحبـوس ولـزم التجـارة في كل بلـد وعنـي بالمعـاشرة مـع كل أحـد. وهـذا الأمـر - أي العنايـة بالرحلـة في سـبيل التعـرف إلى البلـدان والكتابـة عنهـا - ينطبـق عـلى العـالم الإسـلامي، ذلـك أن أكـثر الكتـاب عنـوا

بهـذا الجـزء مـن العـالم. ومـع أن بعضهـم تحـدث عـن البقـاع الأخـرى، فقـد جـاء هـذا متأخـرا.

فالاصطخـري يقـول: ذكـرت في كتـابي هـذا أقاليـم الأرض إلى الممالـك وقصـدت منهـا بـلاد الإسـلام بتفصيـل مدتهـا وتقسـيم مـا يعـود بالأعـمال المجموعـة إليهـا ..... وابـن حوقـل يذكرنـا أنـه فصـل بـلاد الإسـلام إقليـما إقليـما وصقعـا وصقعـا وكـورة كـورة لـكل عمـل. وهـذان الكاتبـان، يبـدآن الوصـف بديـار العـرب، لأن القبلـة ومكـة فيهـا وهـي أم القـرى، وهـي بلـد العـرب وأوطانهـم. ومثـل ذلـك المقـدسي. أمـا اليعقـوبي فيتخـذ العـراق نقطـة ابتـداء لكتابـه لأنـه وسـط الدنيـا وسرَّة الأرض» ويبـدأ بذكـر بغـداد «لأنهـا وسـط العـراق والمدينـة العظمـى التـي ليـس لهـا نظـير في مشـارق الأرض ومغاربهـا». ويعنـى الجغرافيـون العـرب بالمسـالك والطـرق والمسـافات لعلاقتهـا بالرحلـة والتجـارة والبريـد. وهـذه عندهـم صحيحـة دقيقـة والمسـتعمل عندهـم الفراسـخ والأميـال للقيـاس والفرسـخ ثلاثـة أميـال، والميـل يقـل عـن الكيلومـتر قليـلا. ويسـتعملون للمسـافات الطويلـة وحـدة للسـير هـي اليـوم فسـورية مثـلا طولهـا خمسـة وعـشرون يومـا. وقـد وجـدت بعضهـم كالإدريـسي مثـلا يذكـر: «يومـا طويـلا في تعيـين المسـافات».

ومـن النـادر أن يعـثر القـارئ في كتـب الجغرافيـين العـرب عـلى إحصـاء يتعلـق بعـدد السـكان، أو مقـدار مـا ينتـج في صناعـة معينـة أو مـن زراعـة مبينـة. عـلى أن إحصاءاتهـم المتعلقـة بالخـراج وارتفـاع الأرض المترتـب عـلى ذلـك، دقيقـة صحيحـة. فالأرقـام التـي يوردهـا قدامـة بـن جعفـر عـن

ارتفاع السواد مأخوذة من القيود الرسمية للسنة ٢٠٤ للهجرة (٨١٩م)، وهو يذكرها بالحنطة والشعير والدراهم.

وقد نقل الخلف عن السلف في الكثير من الأحيان، فالبعض ذكر ذلك والبعض الآخر سكت عنه. وقد حذَّر المقدسي قراءه فذكرهم أنه لم ينقل عن أحد ولكنه خبر ودون وكتب». وانتقد المقدسي كتب من سبقه من الجغرافيين. فمنهم من كتب باختصار لا يفيد ومنهم من جمع الغرباء وسألهم عن الممالك ودخلها، وكيف المسالك إليها. ومنهم من اختصر ولم يذكر الأسباب المفيدة. ويقول عن ابن الفقيه الهمذاني إنه «أدخل في كتابه ما لا يليق به من العلوم.. مرة يزهد في الدنيا وتارة يرغب فيها، ودفعة يبكي وحينا يضحك ويلهي». وهنا نلحظ المقدسي الجغرافي العالم الدقيق الذي يريد أن يكون البحث دائما مبنيا على الدرس والاختبار، منظما مبوبا وافيا بحيث لا يخلط بين جد العالم وهزل الهازل. كذا نلمس هذه الناحية فيه إذ يقول عند تقرير خطته وفي كتابنا هذا اختصار لفظ يدل على معان، مثل قولنا لا نظير له نريد أن ليس مثله بتة ... فإن قلنا غاية فإنها معنى الجودة من الأجناس. ولما جاء أبو الفداء تناول في مقدمة كتابه «تقويم البلدان من تقدمه من الجغرافيين بالنقد. فأظهر أن ابن حوقل والإدريسي وابن خرداذبة لم يحققوا الأسماء وغيرهم لم يحقق الأطوال. أما هو فقد جمع بين التحقيق في الأسماء والأطوال والواقع أن كتابه يصح أن يعتبر تاريخا انتقاديا للكتابة الجغرافية العربية إلى عصره (القرن الثامن للهجرة).

ثمة مؤلف جغرافي آخر حري بالالتفات - ذلك هو الإدريسي صاحب كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق». كتب هذا الكتاب بالعربية في صقلية في بلاط ملكها روجر الثاني سنة ١١٥٤م. وصاحبه لم يزر الممالك الإسلامية الشرقية، لكنه كتب عنها مما حصل عليه من كتب الرحلات ورسائل الزوار والإدريسي يمثل مدرسة جغرافية خاصة، هي التي سماها ميلر المدرسة العربية النورمانية فقد كان بلاط روجر الثاني ملتقى الحضارتين وموئلا للحرية العلمية في القرن الثاني عشر الميلادي والخرط التي رسمها الإدريسي كانت ذات أثر كبير في تصوير الدنيا للأوروبيين بعد عصره.

ويمكن القول إجمالا بأن الجغرافيين العرب عرفوا قومهم ومن جاء بعدهم في الشرق والغرب بالعالم الإسلامي منه خاصة. وقد وقف الابتكار العربي في الجغرافية أيام الادريسي، اذ لم يقم بعده من جاء بجديد سوى الرحالين. وتجدر الإشارة هنا الى أن مؤرخي الأبحاث الجغرافية متفقون على أن فضل العرب على الفلك كان عظيما جدا.

وكانت الرحلة عنصرا قويا في حياة المجتمع الإسلامي في عصوره الزاهرة. فقد رحل الناس لزيارة مهبط الوحي، ولقوا في سبيل ذلك الكثير من صعوبات السفر التي تحملوها راضين مسرورين ورحل الناس في طلب العلم من قطر إلى آخر. فقد كانت مراكز العلم منتشرة في أنحاء العالم الإسلامي، وطلابه كانوا يتحملون من المشاق في سبيل الحصول عليه ما يحملنا على احترامهم وإجلالهم ورحل القوم في سبيل الاتجار. فقد كانت الأسواق الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها مرتبطة بعضها

ببعض كل الارتباط، وكان التجار يحملون متاجرهم وسلعهم إلى حيث يرجون الربح الوفير. أضف إلى كل ذلك رحلة الرسل المترددين بين الملوك والأمراء والمغامرين الواجدين في الرحيل لذة خاصة، والساعين في سبيل الرزق إذا ضاقت بهم أرضهم، وجوابي الآفاق. كل هذه نماذج من الرحلة عرفها العرب والمسلمون. وقد شجعهم على الاستزادة منها خضوع العالم الإسلامي برقعته الواسعة لدولة واحدة بادئ الأمر. فلما ذهبت الوحدة السياسية بقيت وحدة الدين ووحدة اللغة وهاتان ربطنا الحجاج وطلاب العلم ورسل السلاطين وحملة البضائع وزعماء الصنائع فاحتفظوا بالصلة. بل لعل الرحلة كانت أقوى في عهد التفرق السياسي منها قبلا لاعتياد العالم الإسلامي درجة من المعيشة ونوعا من الحياة، ولونا من التفكير، تحتم على أفراده الاتصال والاتجار والتبادل الفكري والأدبي.

وقد دون كثير من رحالي المسلمين أخبار أسفارهم وتنقلهم، فذكروا المدن التي هبطوها، والمسافات التي اجتازوها والصعوبات التي تغلبوا عليها، ووصفوا البلاد وزروعها، وقيدوا مشاهداتهم عن صناعتها وتجارتها، وأتوا على وصف حياة السكان فعرضوا للطيب من عاداتهم بالمديح وعابوا ما فيهم من ضعف، كالذي انتقده ابن جبير من عادة أهل دمشق في تحيتهم وصفة سلامهم، فقال عنهم: «وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء... فيا عجبا لهؤلاء الرجال كيف تحلوا بسمات ربات الحجال.

وهـذه اللفتـات التـي نعـثر عليهـا في مذكـرات السـائح هـي التـي تميـزه مـن الكاتـب الجغـرافي. فهـذا يسـأل ويسـتقصي ويحقـق ويحـاول أن يشـمل كل جـزء مـن المنطقـة التـي يعـرض لدرسـها. أمـا الرحالـة فينقـل مـا يشـهد، وتكـون صورتـه جزئيـة، ولكنهـا ثمينـة في هــذه الناحيـة. ففـي حـين أن المقـدسي أو أبـو الفـدا يذكـران كل شيء عـن إقليـم الشـام، نجـد أن أبـن جبـير، وهـو سـائح، لا يتنـاول مـدن الغـور أبـدا لأنـه لم يصـل إليهـا. وابـن بطوطـة يذكـر جنـوب سـورية وخاناتـه وأماكـن المكـس والتفتيـش فيـه لأنـه جـاء البـلاد بـرا مـن مـصر.

وقـد حفـظ لنـا التاريـخ عـشرات مـن مذكـرات الرحالـين المسـلمين، أكثرهـا باللغـة العربيـة، وبعضهـا بالفارسـية أو التركيـة وأهمهـا الرحـلات التـي كتبـت بـين أواسـط القـرن الخامـس للهجـرة وأواسـط القـرن التاسـع وهـذه يزيـد عددهـا عـلى العشريـن، وهـي تحـوي أسـماء البـيروني صاحـب الآثـار الباقيـة التـي تتنـاول الهنـد وابـن بطـلان الـذي وصـف انطاكيـة ومـا إليهـا في رسـالة إلى صديـق لـه ونقـل عنـه ياقـوت الكثـير مـن المعلومـات عـن تلـك الجهـات والمـازني الغرناطـي والسـائح الهـروي وعبـد اللطيـف البغـدادي والعبـدري والبلـوي ويشـبك فالعبـدري المغـربي رحـل للحـج في أواخـر القـرن السـابع ٦٨٨ هــ / ١٢٨٩م فسـار في سـاحل شـمال أفريقيـة إلى الاسـكندرية ثـم ارتحـل بـرا إلى مكـة. ووصـف المصاعـب التـي لقيهـا في الاسـكندرية عـلى أيـدي مفتـشي المكـوس في المينـاء، حتـى إنـه لعنهـم والبلـوي أندلـسي مـن أهـل القـرن الثامـن جـاء للحـج فمـر بتونـس والاسـكندرية والقاهـرة وقـضى بعـض الوقـت في القـدس.

أما الرحالون الذين نريد أن نتحدث عنهم في هذه الفصول من حيث علاقتهم بالشرق العربي فهم ناصري خسرو وابن سعيد وابن جبير وأسامة بن منقذ والهروي والبغدادي وابن بطوطة وقايتباي الملك الأشرف.

الرَّحّالة المسلمون

•••

إن الرحالين الذين نتناولهم الآن إنما هم نماذج للعدد الكبير من الناس الذين تنقلوا في أنحاء العالم الإسلامي لأداء فريضة الحج أو طلب العلم أو لإشباع رغبتهم في التنقل والسفر وتجنبنا التحدث عن التجار، لأننا إنما نعني بالأشخاص الذين تركوا لنا صورا للحياة في الشرق العربي فناصري خسرو وابن جبير وأسامة والبغدادي وابن سعيد وابن بطوطة - كل واحد منهم نجد عنده هذه الصور الواضحة الخطوط الغنية بالألوان. أما الهروي فرحلته دليل ديني. وقد رأينا أن نتناول رحلة الملك الأشرف قايتباي بالعناية لأمرين أولهما أنها تدل على يقظة الملك وعنايته المباشرة بشؤون ملكه. وثانيهما: انها فريدة في بابها في الرحلة العربية. هذا مع العلم بأن اختصارها جردها مما كنا نأمل منها، فظهرت تقريرا رسميا مختصرا بدلا من أن تكون صورا حية للمجتمع السوري في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد. وأول هؤلاء الرحالين هو ناصري خسرو وهو فارسي الأصل والنشأة والثقافة.

ولد بالقرب من بلخ سنة ٣٩٤هـ / ١٠٠٣م وتأدب وشارك في علوم عصره ونال وافرا في معارفه، وزار الهند وعمل في بلاط الغزنويين. ثم عاد إلى فارس وشغل منصبا كبيرا عند السلاجقة، إذ كتب لجعفر أو جفري بك)، وهو أخ طغرل بك. وكان منغمسا في الملاهي والملذات حتى تراءى له ليلة رجل في الحلم نهاه عن المعاصي، وأسر إليه أن

زيـارة البيـت الحـرام هـي سـبيل التوبـة النصـوح، فـكان لهـذا الحلـم أثـر بالـغ في نفسـه، أدى إلى تغيـير حياتـه، فأقلـع عـما كان فيـه حـالا وسـار للحـج في العـام التـالي.

بـدأ مـن مـرو فمـر بنيسـابور والـري وتبريـز وميافارقـين وآمـد وحـران ودخـل سـورية بطريـق منبـج. وزار في بـلاد الشـام أمهـات مدنهـا في طريقـه، إذ مـر بحلـب وحـماة والمعـرة ثـم اتجـه إلى الشـاطئ فـزار طرابلـس وجبيـل وبـيروت وصيـدا وصـور وعـكاء. ومـن هنـا عـرج عـلى طبريـا ثـم عـاد إلى عـكاء ومنهـا اتجـه إلى الرملـة بطريـق قيسـارية وكفـر سـابا. ومـن الرملـة قصـد القـدس فوصلهـا سـنة ٤٣٨ هــ وقـضى فيهـا أربعـة أشـهر ثـم حـج وعـاد إلى القـدس بطريـق دمشـق وسـافر إلى مـصر بـرا عـن طريـق عسـقلان فوصـل في ٧ صفـر سـنة ٤٣٩ هــ / ١٠٤٧م. فأقـام في مـصر ثمانيـة أشـهر ثـم حـجّ ثانيـة وعـاد وظـل يتنقـل في بـلاط الخليفـة المسـتنصر سـنتين إلى أن غـادر عاصمـة الفاطميـين نهائيـا في ١٤ ذي الحجـة سـنة ٤٤١ هــ / نيسـان (ابريـل) سـنة ١٠٥٠م بطريـق عيـذاب إلى جـدة وبعـد أن حـج للمـرة الأخـيرة عـاد إلى بـلاده بعـد أن اجتـاز الطريـق مـن مكـة إلى الحسـا بـرا وزار البـصرة، فوصـل مـرو في ١٥ (حزيـران) يونيـو سـنة ١٠٥٢.

كان نـاصري خـسرو اسـماعيليا شـديد التعصـب لمذهبـه، وفي أثنـاء إقامتـه في القاهـرة تـدرّج في مناصـب الدعـاة الإسـماعيليين وقابـل الخليفـة نفسـه، وكان يـرى أن القاهـرة المركـز الدينـي لمذهبـه وأن الخليفـة هـو الإمـام الحـق. ولمـا عـاد إلى بـلاده كان في مقدمـة الدعـاة. وقـد نقـل بـراون عـن

جامع التواريخ أن ناصري خسرو قضى عشرين سنة متخفيا في جبال خراسان، لما اشتد السلاجقة في طلبه. ويقي في منفاه هذا إلى أن توفي في سنة ٥٤٢ هـ / ١٠٦٠م.

كان ناصري خسرو دقيق الملاحظة شديد العناية بتقصي الأخبار ورواياتها فجاءت رحلته المعروفة باسم سفرنامه غنية بالصور، مليئة بالمعلومات عن البلاد التي زارها. وتلقي رحلته نورا على الكثير من الشؤون الاجتماعية والاقتصادية قبيل مجيء الصليبيين.

فوصف ناصري خسرو للحرم الشريف بالقدس من أدق ما وصل إلينا من المعلومات عن هذا المسجد المبارك، ولعله أول من ضبط أبعاد الأقصى وقياساته. ويلاحظ هذا السائح أبواب المدن واتجاهها وميناء عكا وصناعات صور وصيدا ويعنى بمصادر المياه في كل بلد، وتسترعي نظره كثرة الرخام في الرملة. ولعل من أدق ملاحظاته ما ذكره من أن قرى القدس تقوم على رؤوس الجبال أو سفوحها. ثم هو لا يغفل عن زهر النرجس الذي يكسو بقعة من الأرض إلى الغرب من حماة أو عن الوردتين الجميلتين اللتين رآهما في جبيل بيد صبي في شهر شباط (فبراير) أو الأشجار التي تكسو الطريق حول كفر سابا في فلسطين والمدن الداخلية السورية التي نالها حظ الوصف في رحلته هي حلب وحماة وطبريا وبيت المقدس. أما باقي ما كتبه عن سورية فهو عن مدن الساحل. فهو يذكر أن حلب تتمتع بيسار ورخاء إذ تلتقي عندها طرق التجارة الشامية والرومية والعراقية والمصرية. ويحدثنا عن أبي

العلاء عند مروره بالمعرة، فقد كان لا يزال حيا، ويصف طرابلس بقوله: «أرياض المدينة تملأها البساتين... وقصب السكر ينمو هنا بكثرة... ومثله البرتقال والليمون والتمر... وقد كانوا أيام وصولنا يستخرجون عصير قصب السكر ... وفنادق المدينة تتألف من أربع طبقات أو خمس وقد تصل إلى ست... وبيوتها وأسواقها حسنة البناء نظيفة .. وفي المدينة مكاتب لفرض الضريبة الجمركية على السفن القادمة إلى المدينة من بلاد الروم أو الغرب أو غيرهما .. وللسلطان - أمير المدينة - سفن تحمل تجارته إلى بزنطية وصقلية والغرب وأهل طرابلس كلهم شيعة. ولما وصل ناصري خسرو صيدا بهره ثراؤها وزينتها فقال وأسواق المدينة بهية الزينة حتى ظننت أنها زينت لمناسبة قدوم السلطان أو لأمر آخر سار. فلما استقصيت عرفت أن ذلك أمر عادي». وقد كانت صور في الوقت الذي زارها فيه ناصري خسرو، من أكبر مراكز التجارة البحرية، يدلنا على ذلك فنادقها التي كانت ذات خمس طبقات أو ست وشوارعها كانت نظيفة تدل على الثروة الهائلة. «وصور معروفة بغناها وقوتها بين المدن السورية الساحلية وأكثر سكانها شيعة ولكن قاضيها سني». ويتنقل في مدن الساحل السوري من المدينة إلى الأخرى حتى يمر بقيسارية ثم يتجه إلى الرملة وبعد أن يصف هذه المدينة الكبيرة وبيوتها المبنية من الرخام الذي يكثر وجوده فيها، يذكر طريقة تقطيعه أعمدة أو ألواحا بمنشار غير مسنن. وفي القدس يعني ناصري خسرو بزيارة الأماكن المقدسة كلها ويلاحظ أن شوارع المدينة مبلطة. ويعطينا عدد السكان على أنه عشرون ألفا. ثم يقول: «والأرض في

نواحـي القـدس مسـتغلة اسـتغلالا طيبـا. والزيتـون هنـاك كثـير. ويبلـغ الدخـل السـنوي لبعـض كبـار المثريـن هنـاك نحـوا مـن الخمسـين ألـف مَـنْ يقابـل ٤٢٠٠ تنكـة». ويقـول نـاصري خـسرو «إن القـار المجمـوع مـن ميـاه البحـر الميـت يسـتعمل في طـلاء الأجـزاء السـفلى مـن الأشـجار لحفظهـا مـن الديـدان ويسـتعمله الصيادلـة للمحافظـة عـلى العقاقـير مـن الحـشرات.

ووصـف نـاصري خـسرو ولمـصر مـن خـير مـا وصـل إلينـا. وقـد تنـاول البـلاط الفاطمـي والعاصمـة والإدارة الحكوميـة في زمـن المسـتنصر بالتفصيـل. ولم يكـن هـذا بغريـب عـلى الرجـل الـذي أقـام في القاهـرة مـدة طويلـة وعـاشر المقدمـين مـن أهلهـا وحظـي بمقابلـة الخليفـة نفسـه. فـتراه يتحـدث عـن قاعـة المـآدب في القـصر والاحتفـال بـولادة ابـن للخليفـة وعـن جـبر الخليـج ويقسـم القاهـرة إلى حاراتهـا العـشر ويعطينـا أسـماءها مثـل بجـروان وزويلـة والجديـرة. وتعجبـه فواكـه مـصر وأثمارهـا فيذكرهـا وينبئنـا أن البلسـم مغـربي الأصـل جـاء بـه أجـداد الخليفـة المسـتنصر لمـا فتحـوا مـصر وإذ يذكـر جامـع عمـرو بـن العـاص وجامـع ابـن طولـون يـروي أن أحفـاد هذيـن الرجلـين أرادوا بيـع كل مـن الجامعـين في زمـن الحاكـم بأمـر اللـه فابتاعهـما الخليفـة نفسـه.

ولمـا عـاد نـاصري خـسرو مـن مـصر إلى بـلاده بطريـق الحجـاز والحسـا ذكـر ملاحظـات قيمـة عـن المـدن التـي مـر بهـا. منهـا صنـع القـماش في أسـيوط واسـتخراج الأفيـون فيهـا. وأجـرة الجمـل الـذي اسـتأجره منهـا إلى عيـذاب كان دينـارا ونصـف الدينـار. وقـد تعـرف نـاصري في أسـوان إلى رجـل اسـمه الفلجـي وتآخيـا. فلـما وصـل إلى عيـذاب أخـذ نقـودا بنـاء عـلى توصيـة كان

حمله إياها صاحبه الأسواني. وانتقل إلى جدة فوصفها وذكر أن سكانها لا يتجاوزون الخمسة آلاف من الذكور. كما أنه قال عن سكان مكة الأصليين انهم لا يتجاوزون الألفين من الذكور، وبها نحو خمسمائة مجاور وأشار إلى القحط الذي أصاب الحجاز سنتي ٤٣٩ و٤٤٠ هـ.

وقد خص ناصري خسرو مكة المكرمة ومناسك الحج ومشاعره فيها بقسط كبير من جهده ووقته وكتابه. ونالت فلج والحسا والبصرة حظها من عناية ناصري خسرو، إذ اجتاز بلاد العرب من الغرب إلى الشرق. وكانت البصرة أيام زارها ناصري خسرو، خربة والأجزاء المسكونة منها متباعدة، ومع ذلك فقد كانت فيها تجارة رائجة. وكان من عادة أهلها أنه إذا هبطها التاجر أودع أمواله عند صراف وأخذ بها رقاعا فإذا اشترى شيئا دفع الرقاع إلى البائع وهذا يستبدلها بالنقد من عند الصراف.

ورغب ناصري خسرو وأخوه في دخول الحمام، لكن ثيابهما الوضيعة حملت المشرف على الحمام على إقصائهما. ومما يدل على دقة ناصري خسرو ذكره المد والجزر في الخليج الفارسي وعلاقة ذلك بالفيضان في شط العرب. ومن البصرة عاد إلى مرو.

وأما ابن جبير فقد جاء المشرق من الأندلس. ولد في بلنسية سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥م. سمع من أبيه وأخذ القراءات عن ابن أبي العيش وعني بالأدب فبلغ فيه الغاية وتقدم في صناعة القريض والكتابة وخلّف شعرا كثيرا وله نثر جميل في الحكم وأكبر آثاره رحلته المعروفة باسم تذكرة بالأخبار عن اتفاق الأسفار كتب ابن جبير عن السيد أبي سعيد

بـن عبـد المؤمـن صاحـب غرناطـة فاسـتدعاه لأن يكتـب عنـه كتابـا، وهـو علـى شرابـه، فمـد يـده إليـه بـكأس فأظهـر الانقبـاض لأنـه لم يـشرب قـط، فأقسـم السـيد ليشربـن منهـا سـبعا ففعـل مرغـما فملئـت لـه الـكأس دنانـير سـبع مـرات فحمـل المـال إلى منزلـه وأضمـر أن يجعـل كفـارة شريـه الحـج بتلـك الدنانـير. ولمـا أظهـر ذلـك للسـيد أسـعفه في قصـده.

خـرج مـن غرناطـة يـوم الخميـس ٨ شـوال سـنة ٥٧٨ هــ / ١١٨٣م ووصـل الاسـكندرية بعـد ثلاثـين يومـا قضاهـا عـلى ظهـر البحـر بـين سـبتة وبينهـا. وكان سـفره البحـري في مركـب للجنوبـين وقـد كان الطريـق الطبيعـي لابـن جبـير إلى الحجـاز هــو السـفر مـن الإسـكندرية إلى أحـد موانـئ سـورية ليرافـق الحـاج الشـامي. لكـن بسـبب وجـود الصليبيـين في سـورية اضطـر رحالتنـا إلى السـير بالطريـق المـصري. فاتخـذ سـبيله إلى القاهـرة ثـم مـر بقـوص وعيـذاب وجـدة في طريقـه إلى مكـة والمدينـة، واجتـاز بعـد ذلـك الطريـق النجـدي إلى الكوفـة وزار بغـداد والموصـل وعـاد بطريـق سـورية، فمـر بحلـب وحـماة وحمـص ودمشـق وعـكاء. ومـن هـذه الأخـيرة أقلـع في مركـب افرنجـي إلى صقليـة ومـرّ بصـور. وعـاد إلى غرناطـة فوصلهـا في الثامـن مـن المحـرم سـنة ٥٨١هــ / ١١٨٥م.

ولم يكـن ابـن جبـير وحيـدا في رحلتـه هـذه. فقـد رافقـه جـده لأمـه القـاضي ابـن عطيـة وأبـو جعفـر الطيـب.

ورحـل بعـد ذلـك مرتـين إلى المـشرق، وحـج في كل منهـما. ذلـك أنـه لمـا شـاع الخـبر المبهـج بفتـح بيـت المقـدس عـلى يـد صـلاح الديـن قـوي عـزم ابـن جبـير عـلى رحلتـه الثانيـة.

فخرج من غرناطة في ٩ ربيع الأول سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م وعاد إليها في ١٣ شعبان سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١م وقضى أكثر من ربع قرن في غرناطة ومالقة وسبتة وفاس منقطعا إلى أسماع الحديث والتصوف وتروية ما عنده وكان فضله وورعه في هذه المدة يحققان أعماله الصالحة.

وتوفيت زوجه عاتكة أم المجد وكان كلفه بها جما فعظم وجده عليها وخرج من سبتة، فوصل مكة وجاور بها طويلا ثم زار بيت المقدس ثم تحول إلى مصر والاسكندرية، فأقام يحدث ويؤخذ عنه حتى وفاته سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧م.

تذكرة ابن جبير هي أخبار رحلته الأولى وقد دوّنها صاحبها على شبه مذكرات يومية يستعمل فيها دائما التاريخين القمري (مع السنة الهجرية والشمسي (دون ذكر السنة). وقد عني كاتبها بالرسوم الدينية والنواحي الاجتماعية عناية فائقة. فمشاعر الحج كلها مدونة وصعوبات السفر ومواكب الأمراء وتجارة مكة كلها موصوفة وصفا بارعا دقيقا. ورحلته فيها كثير من الصور التي توضح العلاقات بين أهل البلاد والصليبيين في سورية. ويشير غير مرة إلى الحياة الاقتصادية من حيث المزروعات والسلع المتبادلة وابن جبير شديد العناية بالبحث عن المدارس والمارستانات، وليس هذا بغريب على رجل عالم فقيه. وهو في كل هذا دقيق الملاحظة سهل العبارة واضح الأسلوب. وقد أثر ابن جبير في كثير من الكتاب الذين جاءوا بعده، فنقلوا أجزاء كبيرة من رحلته. وليس أدل على ذلك من أن ابن بطوطة نفسه نقل عنه وصف كل من حلب ودمشق وبغداد، على أنه من المؤسف أننا لا نجد في

رحلتـه شـيئا يدلنـا عـلى عـدد السـكان في أي مـن البلـدان التـي زارهـا.

وابـن جبـير سـني، ويبـدو هـذا واضحـا فيـه عندمـا يتحـدث عـن منـازل الشـيعة في شـمال سـورية.

وقـد تنـاول ابـن جبـير في الجـزء الأخـير مـن رحلتـه صقليـة بوصـف رائـع وروى أخبارهـا بشـكل يجعـل هـذا القسـم مصـدرا رئيسـا مـن مصـادر تاريـخ صقليـة في زمـن وليـم الثـاني وخاصـة فيـما يتعلـق بعلاقـة السـكان المسـلمين في الجزيـرة بحكامهـا الأوروبيـين.

الهروي

الهـروي كان مـن معـاصري ابـن جبـير أصـل أسرتـه مـن هـراة، لكنـه ولـد في الموصـل وطـاف في سـورية والعـراق واليمـن والحجـاز ومـصر وبـلاد الـروم وجـزر البحـر المتوسـط حتـى صقليـة، وتنقـل في مزاراتهـا ومسـاجدها وخالـط أهلهـا، وكانـت لـه نزعـة صوفيـة وفيـه فضيلـة ولـه معرفـة بعلـم السـيما. دخـل القسـطنطينية في زمـن عمانوئيـل كومنينـوس سـنة ١١٤٣ - ١١٨٠م وهبـط الاسـكندرية سـنة ٥٧٠هــ / ١١٧٤م وسـمع فيهـا لابـن الرحـال المحـدّث وحملـه القائـد أبـو القاسـم بـن حمـود رسـائل إلى صـلاح الديـن يطلـب فيهـا تجهيـز حملـة ضـد صقليـة. وكان في القافلـة التـي نهبهـا ريـكاردوس في جنـوب فلسـطين سـنة ٥٨٨ هــ / ١١٩٢م عـلى مـاء الخويلفـة في مقاطعـة الـداروم ففقـد فيهـا كتبـه. وطلـب ريـكاردوس الهـروي ليقابلـه فلـم يمكـن ذلـك. ولمـا جـاء رسـول ابـن النافـذ وزيـر الخليفـة العبـاسي النـاصر لديـن اللـه إلى صـلاح الديـن ليوثـق العلاقـات بـين السـلطان

والبـلاط العبـاسي، ومـرَّ بدمشـق كان الهـروي فيهـا، وكان اجتماعـه بـه سـببا في تأليـف «الاشـارات إلى معرفـة الزيـارت».

قـضى الهـروي أيامـه الأخـيرة في حلـب في ظـل الملـك الظاهـر بـن صـلاح الديـن الـذي قربـه لمعرفتـه بالسـيما، فشـمله برعايتـه وبنـى لـه مدرسـة بظاهـر حلـب. وقـد دفـن في قبـة بناحيـة مـن هـذه المدرسـة، عـلى مـا رآه ابـن خلـكان، وكانـت المدرسـة لا تـزال قائمـة في عهـده. والكتـاب الـذي بـين أيدينـا هـو «الإشـارات» وقـد قـدم المؤلـف نفسـه وكتابـه لقرائـه بقولـه : «أمـا بعـد فإنـه سـألني بعـض الاخـوان الصالحـين والخـلان الناصحـين أن أذكـر لهـم مـا زرتـه مـن الزيـارات ومـا شـاهدته مـن العجائـب والأبنيـة والعـمارات ومـا رأيتـه مـن الأصنـام والآثـار والطلسـمات في الربـع المسـكون والقطـر المعمـور فوقـع الامتنـاع إلى أن حصـل الاجتـماع برسـول وفـد مـن الديـوان العزيـزي شرفـه اللـه وعظمـه وتبركنـا بزيارتـه واسـتعبدنا برؤيتـه، إذ كان قدومـه مـن دار السـلام وقبـة الإسـلام وذكـر الفقـير للرسـول زيـارات الأنبيـاء عليهـم الصـلاة والسـلام فوقـع الابتـداء بذكـر الزيـارات مـن مدينـة حلـب.

وقـد اختـصرت مـا حـضرني عـلى سـبيل الايجـاز وأنـا أسـتعيذ باللـه مـن شر حاسـد ونكـد معانـد يقـف عـلى مـا ذكرنـاه في بعـض الصحابـة والتابعـين وآل الرسـول صلـوات اللـه وسـلامه عليهـم أجمعـين وعـلى ذكـر بعـض الآثـار فيقـول قرأنـا في التاريـخ الفـلاني ضـد ذلـك وقـد ذكـر فـلان غـير هـذا وأنـا مـما لا أشـك في قولـه ولا أطعـن في حديـث إلا أننـي ذكـرت مـا شـاع خـبره وذاع ذكـره بطريـق الاسـتفاضة واللـه أعلـم بصحتـه. وقـد ذكـر أصحـاب

التاريخ جماعة من آل الرسول عليهم الصلاة والسلام ومن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم قتلوا وماتوا ببلاد الشام والعراق وخراسان والمغرب واليمن وجزاير البحر، ولم أر أكثر هذه الأماكن كما ذكروه. ولا شك أن قبورهم اندرست وآثارهم طمست. ذهبت آثارهم وبقيت أخبارهم والزاير له صدق نيته وصحة عقيدته وقد ذكروا أيضا بلادا وأماكن وطرقات لا تعرف الآن لتقادم العهد وتغير الزمان. وإن جرى السهو فيما أذكره فبطريق الغلط لا بطريق القصد. فأسأل الناظر فيه والواقف عليه الصفح في ذلك وإصلاح الخطأ وإيضاح الحق فإن كتبي أخذها الانكتار ملك الفرنج ورغب في وصلي إليه فلم يمكن ذلك، ومنها ما غرق في البحر. وقد زرت أماكن ودخلت بلادا من سنين كثيرة وقد نسيت أكثر ما رأيته وشذ عني أكثر ما عاينته، وهذا مقام لا يدركه أحد من السائحين والزهاد ولا يصل إليه أكثر المسافرين والعباد إلّا رجل جال الأرض بقدمه واثبت ما قلته بقلبه وقلمه.

على أن للهروي كتبا أخرى غير هذا. فقد قال هو إن ما ذكره من الأبنية والآثار والعجائب والأصنام له كتاب مفرد، وأشار في موضع آخر إلى كتاب منازل الأرض ذات الطول والعرض. وروى ابن خلكان أن له كتابا اسمه الخطب الهروية. وقد جاء في الإشارات ذكر لمئات من الأماكن الدينية وهي المقصودة بالذات من التأليف. لكن الهروي يضيف بين آن وآخر فوائد تاريخية وملاحظات عامة، كوصفه لدمشق وإشارته لرأس الحسين ونقله من عسقلان، وتحدثه عن مقياس النيل في جزيرة الروضة، وكالذي رواه من أن الصليبيين حاولوا أن يبنوا كنيسة على عين البقر بظاهر عكا لكن ذلك لم يتم لهم. ومما رواه

أن الإفرنج لم تغير «ما على أبواب المسجد الأقصى من آيات القرآن العزيز وأسامي الخلفاء رضي الله عنهم» ولعل من ألطف ما جاء من ملاحظاته العامة وصفه لزهور مصر ونباتها قال: «فإن في ديار مصر ونيلها من عجائب الدنيا كثيرا. ورأيت بها في آن واحد مجتمعا وردا ثلاثة ألوان ورأيت ياسمين لونين ولينوفرا لونين وآسا ونسرينا وريحانا وخبزيا وبنفسجا ومنتروا ونبقا واترنجا مركبا وطلعا ورطبا وموزا وجميزا وحصرما وعنبا وتينا أخضر ولوزا وقثى وفقوس وبطيخا وباذنجانا وباقلا أخضر ويقطينا وحمصا أخضر وخسا والبقول والرمان وهليونا وقصب السكر». وذكر الاسكندرية فقال عنها إنها ثلاث طبقات وعمارتها على هيئة رقعة الشطرنج. وأشار إلى السمك الرعاد فيها. ونقل عن ابن منقذ أن بالإسكندرية ١٢٠٠٠ مسجد أو ٢٠٠٠٠ مسجد ومعبد وكان السائح الهروي مغرما بكتابة اسمه في الأماكن التي يزورها، مثل صنم الأشمونيين وإلى ذلك أشار جعفر بن شمس الخلافة في بيتين قالهما في شخص يستجدي من الناس بأوراقه:

أوراق كديته في بيت كل فتى

على اتفاق معان واختلاف روي

قد طبق الأرض من سهل ومن جبل

كأنه خط ذاك السائح الهروي

أسامة بن منقذ

كان أسامة بن منقذ أميرا فارسا من أهل الشرق العربي. فقد تنقل في مصر وسورية وبغداد وإنما أدخلناه في عداد الرحالين لأن كتاب الاعتبار نسيج وحده في الأدب العربي ومذكرات صاحبه تشمل صفحات مجيدة في تاريخ الفروسية العربية تجعلها في مقدمة ما يجب أن نعنى بدرسه من كتب السلف الصالح.

ولد أسامة بقلعة شيزر في ٢٧ جمادي الأولى ٤٨٨ هـ / ٤ تموز (يوليو) ١٠٩٥م. وكانت شيزر، الواقعة على بعد أربعة وعشرين كيلومترا إلى الشمال من حماة، حصن بني منقذ منذ أن انتزعوها من الصليبيين سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١م، مع أنهم كانوا يملكون إقطاعا في أرضها قبل ذلك بمدة طويلة. وكان من حق مرشد، والد أسامة، أن يتولى الإمارة. لكنه شغف بنسخ القرآن والصيد فتنازل عنها لأخيه واتجهت همة الأمير سلطان إلى أسامة يهيئه ليخلفه. لكن لما رزق ولدا ذكرا فترت همته نحو أسامة فرأى هذا أن يغادر شيزر فتغيب بادئ ذي بدء عنها موقتا. لكنه لم يلبث أن غادرها نهائيا. وبعد عشرين سنة أصاب القلعة زلزال (سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م) قضي على آل منقذ بأسرهم إذ كانوا مجتمعين في حفل عائلي، عدا أسامة الذي كان غائبا.

عاش أسامة فارسا شهما وجاب أنحاء الشرق العربي صرف معظم شبابه في البلاط النوري بدمشق وفي قصر الخليفة الفاطمي بالقاهرة (١١٤٤ - ١١٥٤ م). وأما كهولته فصرفها عند أتابكة الموصل وفي حصن كيفا.

زار بيت المقدس وحجٌ وتنقل بين معظم العواصم الإسلامية وتعرف إلى كبار الإفرنج، فضلا عن صداقته للخلفاء والملوك. وقبيل وفاته دعاه صلاح الدين إلى دمشق وأجرى عليه رزقا وأعاد إليه اقطاعه وأخذ الشيخ يلقي محاضرات في البديع ويدرس في المدرسة الحنفية بدمشق. وأملى مذكراته في هذه الفترة. وتوفي أسامة سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨م.

وكتاب الاعتبار، بالإضافة إلى ما فيه من عبر رمى إليها الكاتب، يحوي إشارات كثيرة إلى أحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية. فالقطن كان يزرع في كفر طاب وغابات البلاد الكثيفة في الشمال كانت موطن الأسود والنمور وحمر الوحش. وجلاء العروس والمآتم واضحة الصور في الكتاب والفصل الذي عرض فيه أسامة للإفرنج ممتع حقا. فقد تناول فيه شجاعتهم وطبهم ومحاكماتهم.

عبد اللطيف البغدادي

عبد اللطيف البغدادي رحالة عالم، شملت معرفته الطب بالإضافة إلى النحو واللغة وعلم الكلام واشتهر بصناعة الطب في كل مكان أقام فيه وخاصة في دمشق. وقد اخترناه لسببين: الأول هو الاتجاه العلمي الذي كان يغلب على تقييده مشاهداته، فتراه يشير إلى أنه رأى وفحص ونقب. فضلا عما يسمع. وإذا روي له أمر وشك فيه أظهر ذلك في كتابته. والثاني لأنه خلف لنا وصفا لمصر في سنوات الضيق والقحط والوباء (٥٩٥ - ٥٩٨هـ). هذا بالإضافة إلى أنه تناول أمورا في حياة مصر الاجتماعية والعمرانية بتفصيل العالم ودقته.

ولـد عبـد اللطيـف في بغـداد سـنة ٥٥٧ هــ. وانـصرف شـأن طـلاب العلـم في العـالم الإسـلامي في عـصره، إلى سـماع الحديـث وحفـظ القـرآن واجـادة الخـط وحفـظ الشـعر والمقامـات وأخـذ لنفسـه إجـازات مـن شـيوخ بغـداد ثـم مـن شـيوخ خراسـان. فلـما اطـمأن إلى أنـه أخـذ عـن شـيوخه كل مـا عندهـم تحـول إلى الموصـل وحـدث في مدرسـة ابـن مهاجـر ودار الحديـث ولم يلـق بالموصـل سـوى الكـمال بـن يونـس وكان جيـدا في الرياضيـات.

وكان صـلاح الديـن سـيد سـورية ومـصر، آنئـذ، قـد أحسـن إلى عـدد كبـير مـن العلـماء فـأووا إلى دمشـق وجاءهـا عبـد اللطيـف يطلـب علمهـم. فوقعـت بينـه وبينهـم مناظـرات انتـصر فيهـا عليهـم، فتوجـه إلى القـدس وجـاء معسـكر صـلاح الديـن بظاهـر عـكا حيـث لقـي بهـاء الديـن شـداد قـاضي العسـكر وعـماد الديـن الكاتـب والقـاضي الفاضـل والراجـح أن الأخـير أعجـب بعبـد اللطيـف لأنـه زوّده برسـالة توصيـة إلى وكيلـه في مـصر ابـن سـناء الملـك الـذي احتفـل بـه. وهنـاك تيـسر لـه الاتصـال بياسـين السـيميائي ومـوسى بـن ميمـون وأبي القاسـم الشـارعي. وقـد أعجبـه الأخـير مـن هـؤلاء الثلاثـة فكانـا يتفاوضـان الحديـث فتكـون الغلبـة لعبـد اللطيـف بقـوة الجـدل وفضـل «اللسـن»، ويتغلـب الشـارعي «بقـوة الحجـة وظهـور المحجـة».

عـلى أن إقامـة عبـد اللطيـف بمـصر هـذه المـرة لم تطـل إذ رحـل إلى القـدس للقـاء صـلاح الديـن بعـد الهدنـة. وتـم لـه ذلـك. وقـد وصـف مجلـس السـلطان بقولـه: « ... وأول ليـل حضرتـه وجـدت مجلسـا حافـلا بأهـل العلم يتذاكـرون في أصنـاف العلـوم وهـو يحسـن الاسـتماع والمشـاركة ويأخـذ في

كيفيـة بنـاء الأسـوار وحفـر الخنـادق ويتفقـه في ذلـك ويـأتي بـكل معنـى بديـع . ورتـب صـلاح الديـن وأولاده لعبـد اللطيـف مائـة دينـار في الشـهر، فدخـل دمشـق وأكـب عـلى الاشـتغال بالعلـم وإقـراء النـاس بالجامـع.

لكـن عبـد اللطيـف كان يمـل الاسـتقرار في مـكان واحـد مـدة طويلـة فرحـل إلى مـصر في ركاب العزيـز سـلطانها لمـا جـاء لحصـار الأفضـل أخيـه في دمشـق في حملـة فاشـلة. وعـاد في مـصر إلى مصاحبـة الشـارعي حتـى تـوفي. وكان يقـرئ النـاس بالأزهـر صباحـا ومسـاء ويقـرئ الطـب للكثيريـن في وسـط النهـار. وفي هـذه المـدة وقـع بمـصر الغـلاء العظيـم والمـوت، وكتـب عبـد اللطيـف كتـاب الإفـادة والاعتبـار في الأمـور المشـاهدة والحـوادث المعاينـة بـأرض مـصر»، في وصـف أحـوال مـصر في وقتـه. ثـم دعـاه حـب السـفر ثانيـة فانتقـل إلى القـدس ودرس في الجامـع الأقـصى ونـزل دمشـق حيـث اشـتهر بصناعـة الطـب ودرّس في المدرسـة العزيزيـة. وتنقـل بعـد ذلـك بـين حلـب وأذربيجـان في بـلاد الـروم وارزن الـروم وبغـداد وتـوفي بهـا. هـذا هـو عبـد اللطيـف الـذي درس علـوم عـصره العقليـة والنقليـة وحـدث وعلـم الطـب وألـف كتبـا كثـيرة فيـه، وانتفـع النـاس بعلمـه في دمشـق والقاهـرة والقـدس وحلـب وبغـداد.

ابن سعيد

ابـن سـعيد رحالـة أندلـسي ولـد بغرناطـة ليلـة الفطـر سـنة ٦١٠ للهجـرة في أسرة عريقـة في الحسـب والنسـب كان لأفرادهـا صلـة بالملـوك وكان أبـوه مـن أهـل الأدب والتأليـف. والمترجـم بـه هـو متمـم كتـاب «المغـرب في أخبـار المغـرب». فقـد بـدأه جـده وعمـل فيـه أبـوه وأتمـه هـو.

عمل أبن سعيد لوزير الموحدين بافريقية ابن جامع، وكان للمترجم به ابن عم يعمل في خدمة الموحدين أيضا . فوقعت بين الفريقين فرقة خشي ابن سعيد عاقبتها فاستأذن في الرحيل الى المشرق برسم الحج. وصل الاسكندرية سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤١م.

وكان والده قد رحل إليها وأقام فيها وكان متأخرا عن موعد الحج، فذهب إلى القاهرة ولقي بها ايدمر التركي والبهاء زهير وابن يغمور وهو يومئذ رئيس الأمور بالديار المصرية. وقد أستدعى سيف الدين بن سابق ابن سعيد إلى مجلس بضفة النيل مبسوط بالورد وقد قامت حوله شمامات نرجس فقال ابن سعيد:

من فضل النرجس فهو الذي

يرضى بحكم الورد إذ يرأس

أما ترى الورد غدا قاعدا

وقام في خدمتيه النرجس

ووافق ذلك وقوف المماليك الترك في الخدمة فطرب الحاضرون.

وقد ترك لنا ابن سعيد وصفا نفيسا لمصر والفسطاط، أعطانا فيه صورة حية لما كانت عليه الحالة يومئذ. فتناول شوارع المدينة وأبنيتها وأزقتها بالوصف، ثم عن نواح من الحياة في الأحياء المخصصة للهو والطرب إذ قال عنها إنه قد يرقص الواحد في وسط السوق وقد يسكر الناس من الحشيش. لكن بعضهم علق على ذلك بقوله «وفيه تحامل كثير» وقد دافع المقريزي عن ابن سعيد بقوله: «ومن نظر

بعين الإنصاف علم أن التحامل في نسبة التحامل إليه».

ورحل من مصر صحبة جمال الدين بن القيم إلى حلب فدخل على الناصر صاحب حلب فأنشده قصيدة أعجبت السلطان فاستجلبه وتلطف به وسأله عن قصده من رحلته، ولما عرفه وعده بالمساعدة قائلا: «نعينك بما عندنا من الخزائن ونوصلك إلى ما ليس عندنا كخزائن الموصل وبغداد وتصنف لنا ووهبه الناصر من الخلع والدنانير والتواقيع بالأرزاق ما لا يوصف. وتعرف ابن سعيد إلى عدد كبير من رجال السيف والقلم كانوا يعملون في حاشية الناصر. ثم تحول إلى دمشق ودخل مجلس السلطان المعظم ٦٣٧ - ٦٤٧ هـ وحضر مجلس خلوته. ودخل الموصل وارتحل إلى بغداد في عقب سنة ٦٤٨ هـ. ثم رحل إلى البصرة وحج وعاد إلى المغرب فنزل في أقليبة بإفريقية سنة ٦٥٢هـ. واتصل بخدمة الأمير أبي عبد الله المستنصر.

على أن ابن سعيد ارتحل من تونس الى المشرق ثانية في سنة ٦٦٦ هـ وذكر أنه لما دخل الإسكندرية سأل عن الملك الناصر فأخبر بحاله وما جرى له من قتل التتار له. ويروي ابن سعيد ما وصل إليه علمه من أخبار هجوم هولاكو على حلب وما تركته حملته من آثار التخريب والتدمير.

وتواليف ابن سعيد كثيرة منها، المرقصات والمطربات والمقتطف من أزاهر الطرف، والطالع السعيد في تاريخ بني سعيد أي تاريخ بيته وبلده، والموضوعان الغريبان المتعددا الأسفار وهما المغرب في حلى المغرب» و«المشرق في حلى المشرق وعدة المستنجز وعقلة المستوفز.

ابن بطوطة

ابـن بطوطـة هـو الرحالـة العـربي الـذي طبـع الرحلـة في القـرن الرابـع عـشر بطابعـه، تمامـا كـما تـرك مواطنـه ابـن خلـدون في تاريـخ القـرن نفسـه أثـرا عميقـا . ولم يكتـب ابـن بطوطـة رحلتـه بنفسـه. وإنمـا رواهـا ورتبهـا أحـد كتـاب سـلطان فـاس الـذي عمـل ابـن بطوطـة نفسـه في خدمتـه . وهـذا هـو سـبب الاضطـراب الظاهـر في أخبـاره والأخطـاء الموجـودة فيـما ذكـره عـن الصـين حتـى إن بعـض نقـاده شـكوا في أمـر وصولـه إلى تلـك البـلاد. ولكـن ليـس بـين مؤرخيـه إجـماع عـلى هـذه المسـألة. وأخبـار رحالتنـا ممتعـة وتتجـلى فيهـا مقدرتـه ونشـاطه وحبـه للتقـصي. وكان الرجـل يسـتمتع بالحيـاة ويحافـظ عـلى ناحيتهـا الروحيـة، ويقـوم بالفـروض الدينيـة. وقـد امتـدت أسـفاره ثمانيـة وعشريـن عامـا بدأهـا مـن طنجـة وسـار إلى مـصر بطريـق شـمال أفريقيـة. ثـم زار سـورية وحـج وتنقـل في فـارس وبـلاد العـرب ووصـل إلى شرق افريقيـة ثـم زار القـرم والفولغـا الأدنى ودخـل القسـطنطينية فاحتفـى بـه ملكهـا قسـطنطين الرابـع (١٣٤٤ - ١٣٤٣ م). واتجـه بعدهـا شرقـا إلى خـوارزم وبخـاري وتركسـتان وافغانسـتان والهنـد وخـدم ملـك دلهـي ثمـاني سـنوات. وتعـرف إلى جـزر الهنـد الشرقيـة والصـين وعـاد إلى طنجـة، لكنـه قـام بعـد ذلـك برحلتـين الواحـدة إلى إسـبانيا والثانيـة إلى أواسـط افريقيـة وصـل فيهـا إلى تمبكتـو وأبحـر في نهـر النيجـر وعـاد إلى فـاس بطريـق الصحـراء الكـبرى. وقـد قـدرت المسـافة التـي اجتازهـا بنحـو ١٢٠.٠٠٠ مـن الكيلومـترات. وابـن بطوطـة مولـود في طنجـة ١٤ رجـب سـنة ٧٠٣هــ / ٢٤ شـباط (فبرايـر) ١٣٠٤ وتـوفي في فـاس سـنة

٧٧٠هـ / ١٣٦٩م). وأسرته معروفة باشتغالها بالعلوم الشرعية. وقد كان هو نفسه عالما. وقد عرف الحجاج له فضله فقدموه قاضيا عليهم وهم بعد في تونس. وعمل ابن بطوطة قاضيا في جزائر ملديف فضلا عن توليه القضاء في الهند.

يعنى الكاتب بذكر أخبار البلدان التي يمر بها باختصار وقد ينقل الوصف عمن سبقه. وهو كثير الاهتمام بالأشخاص الذين يلقاهم فيذكر إجازتهم له وتحديثه إياهم. ويروي في تضاعيف رحلته قصصا وكرامات كثيرة تشوّق القارئ وتطلعه على نواحي المجتمع في زمنه ونحصل منها بين آن وآخر على معلومات تجارية ذات قيمة خاصة، كالذي رواه من أن حاكم قسنطينية أهداه إحراما بعلبكيا مما يدل على اتساع تجارة المنسوجات اللبنانية آنئذ ومثله ذكره مجبى بلد بين الاسكندرية ومصر بأنه ٧٢٠٠٠ دينار.

من السهل أن يتابع القارئ تنقل ابن بطوطة في مصر وقد جاء الإسكندرية ورحل منها إلى مصر. ومر في طريقه بشيخ فوه الذي تنبأ له برحلة طويلة عريضة، ومرًّ. فأثار همته واتجه من القاهرة إلى عيذاب ميناء الحاج الإفريقي. لكن السفر إلى الحجاز لم يتيسر له لأن الحدربي سلطان البجاة كان في حرب مع الأتراك وقد حرق المراكب وهرب الترك أمامه. فعاد ابن بطوطة إلى مصر واجتاز إلى الشام بطريق سيناء فوصل القدس، أما تنقل ابن بطوطة في سورية فمن الصعب متابعته فيه. ولعله إذ أملى رحلته أو قص أخباره على راويته لم يعن بالترتيب الذي سار عليه، وإنما روى ما تذكر. ولكن شيئا من التنظيم

يعـود إلى روايتـه في طريـق الحـاج الشـامي وفي انتقالـه مـن الحجـاز إلى العـراق وليـس هـذا الأمـر غريبـا في هذيـن الطريقـين.

كتـاب ابـن بطوطـة هـو عبـارة عـن نسـخة مـن الصـور التـي ارتسـمت في ذهـن الرحالـة عـن الأشـخاص وعـن النـاس الذيـن ألقـت بهـم الصـدف في طريقـه. فهـو صفحـة مـن التاريـخ الاجتماعـي الإسـلامي أكـثر منـه كتابـا في تقويـم البلـدان والجغرافيـا.

الملك الأشرف

بـين الرحـلات التـي وصلـت إلينـا أخبارهـا مـن أيـام المماليـك رحلـة رسـمية قـام بهـا الملـك الأشرف قايتبـاي (٨٤) ٨٧٢ - ١٩٠١ هــ / ١٤٦٨ - ١٤٩٦م في سـورية سـنة ٨٨٢هـ/١٤٧٨م.

كان شـمال سـورية معرضـا آنئـذ للخطـر العثـماني، بعـد أن اسـتقر العثمانيون في شـبه جزيـرة آسـية الصغـرى كلهـا. فـأراد السـلطان أن يـشرف بنفسـه عـلى حصـون البـلاد وقلاعهـا وطرقهـا وجسـورها. فقـام بهـذه الرحلـة التـي امتـدت مـن آخـر جـمادي الأولى إلى أواخـر رمضـان مـن تلـك السـنة زار الملـك خلالهـا تلـك الأجـزاء كلهـا وأمـر بإصـلاح مـا كان قـد تهـدم مـن مراكـز الدفـاع والثغـور.

خـرج السـلطان مـن القاهـرة المحروسـة في آخـر جـمادى الأولى دون ضجـة أو حفـلات (٨٦) ولم يكـن رفقـاؤه في الرحلـة يتجـاوزون الأربعـين نفـرا، بينهـم الأمـير تـاني قـره بـك وجـاني بـك ويشـبك الجـمالي وشـاهين الجـمالي وقـاضي القضـاة قطـب الديـن الخـداري وقـاضي الشـافعية بدمشـق.

مـر بطريقـه بالصالحيـة والعريـش وغـزة وقاقـون والنـاصرة وصفـد وبعليـك وطرابلـس واللاذقيـة وأنطاكيـة وبغـراس (بغـرص) وعينتـاب وديـار بكـر ووصـل قلعـة المسـلمين. ثـم عـاد مـن ديـار بكـر بطريـق حلـب وسرمـين وحـماه وحمـص والنيـك ودمشـق وسعسـع وجـسر بنـات يعقـوب وخـان منيـة وقاقـون ومـن هنـا اتبـع الطريـق نفسـها التـي جاءهـا إلى القاهـرة. أصـاب السـلطان مـرض شـديد أيـام إقامتـه بدمشـق. وقـد اهتـم فضـلا عـن التفتيـش عـلى القـلاع والجسـور واصـلاح مـا تهـدم منهـا، بمقابلـة الحـكام والأمـراء المحليـين. فقـد كان يدعوهـم إليـه ويبحـث معهـم شـؤون المناطـق التـي يحكمونهـا. وعقـد مثـل هـذه المؤتمـرات في بغـراس وعـزاز وحمـص ودمشـق. وكـم كنـا نـود لـو أن مؤلـف الرحلـة التـي بـين أيدينـا أعطانـا أخبـارا مفصلـة عـن الأمـور التـي تحـدث فيهـا السـلطان إلى نوابـه. ولكـن كل مـا نقلـه إلينـا هـو أسـماء الأمـراء الذيـن دعاهـم لمقابلتـه عـلى أننـا متـى تذكرنـا أن الرحلـة كانـت عسـكرية قبـل كل شيء سـهل علينـا أن نعـرف المواضيـع التـي طرقهـا المجتمعـون. ولعلنـا نسـتطيع أن نضيـف أن المـوارد الماليـة للدولـة كانـت ضمـن مـا تحدثـوا بـه، لأن هـذه كانـت مشـكلة رئيسـة في عهـد قايتبـاي، كـما كانـت في عهـد أكـثر المماليـك. ولم يكـن مجـرد مصادفـة أن يعنـى قايتبـاي بإلغـاء الاحتـكار والضريبـة الملازمـة لـه في كل مـن طرابلـس ودمشـق. وكان الأمـراء في الطريـق يقدمـون هدايـا ثمينـة للسـلطان ورجـال حاشـيته. وكان السـلطان نفسـه يخلـع في مناسـبات كثـيرة عـلى الأمـراء والنـواب. فنحـن نجـد أنـه أهـدى إلى نائـب حلـب الأمير قانصـوه اليحيـوي سـلارية بيضـاء عليهـا فـرو. وأهـدى صاحـب صفـد سـلارية زرقـاء. وأقـام حفـلا فخـما في حلـب أهـدى فيـه إلى أمـراء التركـمان

الأطالس المزركشة بالذهب وغير ذلك. واغتنم فرصة عودته ومروره بخان منية فأهدى إلى صاحب صفد كاملية.

ولعلّ أكبر الهدايا هي ما أعطاه لإسحاق باشا رسول الناصري ابن عثمان صاحب مملكة الروم ورفقائه. فقد بعث السلطان إليه بهدية فاخرة بمناسبة سفره لأداء فريضة الحج. وشملت الهدية ألف دينار وثلاثمئة رأس من الغنم ومئتي اردب من الشعير وأربعمئة قنطار من البقسماط ومئتي طير دجاج وخمسين أوزة وعشرة قناطير سكر وعشرة قناطير رمان وعشرة قناطير دبس. وخمسة عشر اردبا من الأرز المقشور. على أنه لم يقتصر على الزاد بل تعداه إلى الثياب الفاخرة، ومعدات السلاح. فأرسل إليه إحدى وخمسين تفسيلة اسكندرية وعشرة دبابيس من صنع بزدغان وعشرة أكفاف مذهبة وعشر حراب وثلاث درعيات جلدية وخمسين قصبة للحراب وعشر قطع موصلين من صنع مشتول (في دلتا مصر) وسكر نبات من إنتاج حماة وأربع جرار من العصير الكابولي.

كتب رحلة قايتباي أبو البقا بن جيعان وهو أحد الذين رافقوا السلطان وسماها «القول المستظرف في رحلة مولانا الملك الأشرف». ولم يحاول أن يزخرف عبارتها بل إنه لجأ إلى البساطة التامة. وقد قال أبو البقا إنه أراد أن يدوّن أخبار هذه الرحلة لأنها منقطعة النظير. ونحن نرى أن الرحلة كتبت بناء على طلب الملك الأشرف نفسه أو بتشجيع منه، ولعله قصد منها الدعاية للملك.

الرَّحّالـة الأوروبيُّون في زمن الصَّليبيِّين

•••

مـا كادت جيـوش الصليبيـين تحتـل سـواحل سـورية وتفتـح القـدس حتـى أخـذ الحجـاج يهبطـون الأراضي المقدسـة زرافـات ووحدانـا. فقـد أصبحـوا يفـدون بـلادا يحكمهـا قـوم منهـم. فصادفـوا عـلى أيـدي بنـي جنسـهم تيسـيرا لإقامتهـم وحمايـة لهـم ورعايـة لشـؤونهم.

وقـد وصلنـا مـن أخبـار هـؤلاء الرحالـين الـشيء الكثـير. إذ يزيـد عـدد الكتـب التـي بـين أيدينـا عـلى الثلاثـين، فضـلا عـن الرسـائل العديـدة والمذكـرات التي حفظهـا لنـا التاريـخ. وكـما ضمـت جمـوع الصليبيـين التـي جـاءت سـورية وحـدات مـن شـعوب أوروبـة المختلفـة، فقـد كان الرحالـون أيضـا يمثلـون السـكان عـلى اختـلاف أجناسـهم فبينهـم الولـشي والنرويجـي والـروسي والألمـاني واليونـاني والفرنـسي والإسـباني.

وتغلـب عـلى سـياح الجـزء الأول مـن فـترة الحـروب الصليبيـة السرعـة والعنايـة بالأماكـن المقدسـة خاصـة. ولذلـك نجـد أن كتابـات سـيولف لا تعـدو كونهـا جـدولا يحـوي أسـماء الكنائـس التـي زارهـا في القـدس، وإن كان تعـرض لبعـض النواحـي الأخـرى القليلـة بـشيء مـن التفصيـل. أمـا الذيـن زاروا البـلاد في النصـف الثـاني مـن تلـك الفـترة فتغلـب عليهـم الدقـة والعنايـة. ولعـل السـبب يرجـع إلى أنهـم جـاءوا بعـد أن جنـى العـالم ثمـرة الاختـلاط بـين الـشرق والغـرب، فـكان وصفهـم دقيقـا وجـاءت معرفتهـم صحيحـة. ونظـروا إلى البـلاد نظـرة عامـة شـاملة بـدلا مـن النظـرة القديمـة الجزئيـة. حتـى إن بعضهـم رسـم خرطـا لسـورية أو لأجزائهـا مثـل بـركارد.

وتحامـل كتـاب القـرن الأول مـن العـصر الصليبـي عـلى العـرب والإسـلام. ولكـن ذلـك تبـدل بعـض الـشيء في أوائـل القـرن الثالـث عـشر. فنحـن نـرى أن تتـمار يحـاول أن يـدرس الإسـلام ويفهمـه فيتصل بالمسـلمين ويسـتفسرهم الكثـير مـن المسـائل التـي تمـر بـه.

كان أول الرحالــين في هــذه الفــترة ســيولف الولــشي الــذي زار فلســطين بعيـد مجـيء الصليبيـين ببضـع سـنوات (١١٠٢م أو ١١٠٣م). وقـد اقتـصرت أسـفاره عـلى أجـزاء مـن فلسـطين تشـمل القـدس والجليـل ومـا بينهـما. نـزل هـذا الحـاج في مرفـأ يافـا. وبعيـد وصولـه إلى الـبر بقليـل قامـت عاصفـة قويـة أغرقـت ثلاثـا وعشريـن سـفينة كانـت في الميـنـاء. ولـولا أنـه رغـب في ذكـر نجاتـه مـن هـذه العاصفـة بأعجوبـة لمـا حصلنـا مـن سـيولف عـلى شيء يشـير إلى سـعة الميـنـاء الـذي يتسـع لهـذا العـدد مـن السـفن. ويقـضي سـيولف يومـين في الطريـق بـين يافـا والقـدس ويعـرض لوصـف وعـورة الطريـق وأخطارهـا.

فهـي وعـرة لأنهـا جبليـة. أمـا الأخطـار فتـأتي مـن مرابطـة بعـض السـكان في الطريـق، ومـن الحيوانـات المفترسـة الكثـيرة ونحـن بعـد أن نقـرأ هـذا الوصـف نأمـل أن يطيـل السـائح الحديـث عـن الأماكـن التـي يزورهـا، لكنـه يخيـب أملنـا ويكتفـي بذكرهـا ويختـم كلامـه بقولـه: «أمـا وقـد انتهينـا مـن زيـارة الأماكـن المقدسـة فقـد قفلنـا راجعـين إلى يافـا.

سـيولف شـديد النقمـة عـلى العـرب. فـلا يعـثر عـلى مـكان خـرب أو متهـدم حتــى يــسرع فيتهمهــم بذلــك. ويلاحــظ بلــس أن الأمــر الوحيــد الــذي

نستفيده من سيولف هو وصفه لكنيسة القبر المقدس قبل أن يمسها الصليبيون بإصلاح أو إضافة.

جاء دانيال الروسي إلى فلسطين في سنة ١١٠٦ أو ١١٠٧ م وهو راهب من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية، ومن ثم فقد اهتم بالأديرة كثيرا فوصف دير مار سابا. وتمتع دانيال بسعة من وقته فزار الأردن أربع مرات، وقضى عشرة أيام على شواطئ بحيرة طبرية ومكث في عكاء أربعة أيام. ومن ثم فقد رأى أكثر مما رأى غيره من الرحالين المسرعين. وإن كانت ملاحظاته لا تعدو كونها لفتات فهو يتنبه إلى قحولة جبال القدس واعتماد المدينة على ماء المطر. أما الخليل وما جاورها فإنها «بلاد الله المرجاة، كثيرة القمح والكروم والزيتون وجميع أصناف الخضراوات. وأغنامها تلقح مرتين في العام، ونحلها يبني خلاياه في صخور جبالها الجميلة، المكسوة سفوحها بما لا يحصى من الأشجار المثمرة كالزيتون والتين والخرنوب والتفاح... ليس تحت السماء مكان يعدل هذه البقعة.

اصطحب دانيال معه راهبا متقدما في السن ليرشده في تجواله وهو يؤكد لنا أن معلوماته هي نتيجة مشاهداته، فإذا نقل شيئا عن غيره أسرع إلى الاعتراف به. ولعل المسافات الخاطئة التي يذكرها دانيال جاءت من اعتماده على روايات غيره.

ويظهر أن دانيال كان على علاقة طيبة جدا مع حكام اللاتين في فلسطين. فلما اعتزم زيارة الجليل رافق الجيش الذي كان يعده

بلدوين الأول ١١٠٠ - ١١١٨ لمهاجمة دمشق، وكان ذلك بإذن من الملك نفسه. ويضيف دانيال إلى هذا الخبر أنه بذلك أمن بطش السكان، إذ إنه تعرض للأخطار بين القدس وبيت لحم. ويقول إنه امتنع عن زيارة لبنان لأنه كان بيد سكان البلاد. ومن هذه الملاحظات نرى أن الصليبيين لم يكونوا قد ضبطوا أمور البلاد تماما، حتى في مكان قريب إلى القدس مثل بيت لحم.

وفي القرآن الثاني عشر كثرت عناية الكتاب بالحجاج. فظهر عدد كبير من الكتب التي وضعت لإرشادهم. وهذه الكتب خالية من أثر المؤلف الشخصي، لأن الغاية كانت إعطاء الحاج المعلومات اللازمة. ويعد دليل فتلوس ١١٣٠ م نموذجا لهذا النوع من الكتب، فقد ذكرت فيه أسماء مئة وعشرة أماكن في سورية وفلسطين لها علاقة بالكتاب المقدس، ولائحة بالأماكن التي وقف فيها بنو إسرائيل في صحراء التيه، وعينت المسافات بينها. ورويت القصص والأساطير التي حفظتها الأجيال المتعاقبة عن هذه الأماكن أو اختلقتها لها.

لم يحاول الكاتب أن يصف البلاد وصفا عاما، مع أنه جمع الأماكن الواقعة في منطقة واحدة معا. فإن انتقاله من منطقة إلى أخرى لم يكن له أساس طبيعي أو منطقي، لكن الواقع أن هذا الدليل فيه محاولة للتعرف الى الأماكن المقدسة من حيث علاقتها بتاريخ الكتاب المقدس وجغرافيته.

وقبل معركة حطين بمدة قصيرة زار فلسطين رحالان ألمانيان هما يوحنا وثيودوريتش. وقد كان الأول كاهنا في ورتزبرغ، ولعلّ الثاني كان مطران

المدينـة نفسـها. والمرجـح أن الأول زار البـلاد يـن سـنتي ١١٦٠ م و١١٧٠م، والثـاني جاءهـا سـنة ١١٧٢م. وثيودوريتـش أدق وأكـثر عنايـة بالتفصيـل مـن يوحنـا. ولذلـك فسـنتناوله أولا. ونحـن لا ننـسى أن الرجـل كان قبـل كل شيء حاجـا، وعنايتـه اتجهـت إلى وصـف الأماكـن المقدسـة، لكنـه أول كاتـب أوروبي في القـرون الوسـطى يعنـي بوصـف فلسـطين وصفـا عامـا قبـل أن ينتقـل إلى الأجـزاء والمـدن. فهـو في طليعـة الذيـن نظمـوا دراسـة الجغرافيـة الطبيعيـة لفلسـطين. بـدأ كتابـه بفصـل سـماه «تدمـير البـلاد (فلسـطين) وتغيـير أسـمائها» يشـير فيـه إلى جهـل المحدثـين مـن الصليبيـين للبـلاد وخلطهـم في تعيـين الأماكـن. ثـم يعمـد إلى تقسـيم فلسـطين إلى أقسـامها الثلاثـة الطبيعيـة: الجليـل والسـامرة وجبـال القـدس، ويخلـص إلى ذكـر حـدود القسـم الثالـث منهـا، ثـم يقـول إن بـلاد القـدس جبليـة وتبلـغ أقـصى ارتفاعهـا حـول المدينـة المقدسـة. وهـذه الجبـال صخريـة لكـن صخورهـا جميلـة. أمـا حيـث يتجمـع بعـض الـتراب بـين الصخـور، فتنمـو جميـع أنـواع الفواكـه، وتكـون الجبـال مكسـوة بالكـروم والزيتـون والتـين. أمـا الأوديـة فتملأهـا الحبـوب والبسـاتين. وفي الفصـل الثالـث يرتـب ثيودوريتـش ذكـر جبـال القـدس وأوديتهـا ويوضـح علاقتهـا بعضهـا ببعـض. ويذكـر عـين سـلوان ويعـرض لأسـطورة تقـول إن مـاء هـذه العـين يـأتي مـن شـيلوه ثـم ينقدهـا ذاكـرا اسـتحالة هـذا الأمـر مـن ناحيـة طبوغرافيـة.

والظاهـر أن اختبـار ثيودوريتـش الشـخصي في فلسـطين لم يتعـد القـدس ووادي الأردن والسـامرة والجليـل. وأمـا الأجـزاء الأخـرى فينقـل أخبارهـا عـن غـيره، لذلـك خلـت مـن الصبغـة الشـخصية وجـاءت جافـة.

ولم يتخلص الكاتب الدقيق تماما من الإيمان بالعجائب. فالبحر الميت يعيد ذكرى تدمير سدوم وعمورة كل سنة إذ تطفو على وجه الماء فيه أحجار وأخشاب تذكَّر الناس بما أصاب هذه المدن وأهلها.

أما يوحنا، الحاج الألماني الآخر الذي عاصر ثيودوريتش، فقد اهتم بالمسيح والأماكن المتصلة به مباشرة، لذلك فهو يرتب أخباره ووصفه للأماكن بحيث تندرج مع حياة المسيح. وإذ يعرض لتقليد، يناقش أصوله التاريخية ويعنى يوحنا بنقل النقوش التي يمر بها نقلا أمينا فهو من هذه الناحية يفوق ثيودوريتش في مقدار ما نقل.

ويجدر بنا أن نذكر الآن السائحين اليهوديين بنيامين التطيلي الاسباني (١١٦٠ - ١١٧٣م) ويتاحيا (بين ١١٧٠م و١١٨٧ م). وهذان يمثلان الحجاج اليهود الغربيين الذين جاءوا الشرق لزيارة بني جنسهم فيه.

بدأ بنيامين أسفاره من سرقوسه في اسبانية فجاء ايطالية ثم بلاد اليونان ومنها إلى القسطنطينية. ثم زار جزر الأرخبيل اليوناني ونزل في انطاكية واتجه بطريق عكا ونابلس إلى القدس. ومنها ذهب إلى دمشق ثم إلى بغداد على أنه لم يكن يتبع في أسفاره اتجاها واحدا دائما. وكثيرا ما عاد إلى مدينة أو قرية ليتحقق من بعض الأخبار. وبعد إقامة في بغداد وغربي فارس دامت سنتين أو ثلاثا سافر إلى مصر بطريق بلاد العرب والنوبة ومنها إلى صقلية ثم إلى إسبانيا بعد أن ساح في المانية.

ونرى من هذا المدى الذي بلغته أسفار بنيامين، فهو في الواقع أول أوروبي تجاوز الأراضي المقدسة وما جاورها مباشرة، في رحلته. والملاحظ

في أخبـار بنيامـين انـه يعنـى عنايـة خاصـة بأخبـار اليهـود في كل مـكان يمـر بـه - فيذكـر عددهـم وأعمالهـم وحالهـم عامـة. ثـم يعطينـا أسـماء كبارهـم ورجـال الديـن منهـم. لكـن «أشر» يـرى أن بنيامـين، وإن كان مـن رجـال الديـن، فقـد كان قبـل كل شيء تاجـرا، ولذلـك اهتـم بأعـمال اليهـود وصناعتهـم وتجارتهـم.

ونحـن إذا تناولنـا أخبـار بنيامـين وجدنـا أنـه يحدثنـا عـن الهنـد وغيرهـا مـن بـلاد المـشرق حديثـا طويـلا، ومـن رأي «أشر» أن سـياحات بنيامـين لم تتعـد العـراق شرقـا. أمـا مـا يرويـه مـن أخبـار الـشرق الأقـصى فهـو مـما سـمع مـن التجـار والمسـافرين الذيـن قابلهـم بغـداد وفي الطريـق. ويبنـي أشر حكمـه هـذا عـلى أن بنيامـين يذكـر أسـماء كبـار اليهـود في البـلاد التـي وصلهـا، أمـا في البـلاد الأخـرى فيشـير إلى اثنـين فقـط في كل أخبـاره.

وقـد حفـظ لنـا بنيامـين أخبـارا عـن سـورية ومـصر لم يعـن بهـا الحجـاج المسـيحيون المعـاصرون، كالزلـزال الـذي هـز سـورية قبيـل زيارتـه بمـدة قصـيرة، فدمـر طرابلـس وقتـل مـن أهـل فلسـطين عشريـن ألفـا، ووصـف هيـكل وثنـي في جبيـل، والـدروز في لبنـان، وأحـوال السـامريين في نابلـس. ويـروي بنيامـين قصـة مؤداهـا أن عامـلين كانـا يعمـلان في جبـل صهيـون (القـدس) عـثرا عـلى قـبر الملـك داود ورأيـا قاعـة كبـيرة مزينـة بالذهـب والفضـة ولكنهـما لم يـكادا يدخـلان حتـى عصفـت ريـح شـديدة قذفـت بهـما خـارج القاعـة فاقـدي الوعـي، ولم يجـرؤا بعـد ذلـك عـلى العـودة إلى المـكان نفسـه. وقـد سـد المـكان المنفتـح بجـدار. لكـن بنيامـين يقـول إن القبـور الحقيقيـة موجـودة في الخليـل ويسـتطيع المـرء أن يراهـا.

ويحدثنا بنيامين عن جبيل فيقول إن شؤونها كان يديرها سبعة من الجنوبين يتزعمهم أمبراكو وينقل الرحالة أخبارا عن الدروز يبدو فيها التحامل وقبول ما يقال له، لكنه يشير إلى اعتزازهم ببلادهم وإلى زيارات تجار اليهود لهم لكنهم لا يقيمون بينهم. ويذكر صناعة الزجاج والسفن في صور. وتنال كل من دمشق وبغداد حظا كبيرا من عنايته.

ويمر بنيامين بالنوبة في طريقه إلى أسوان، ويرسم لنا صورة لحياة الكسل التي يحياها الناس هناك، وللطريق التي يقنص بها تجار الرقيق من أسوان أهل النوبة. فإنهم يلقون أمامهم التين والزبيب والحبوب فيأتون لأخذها فيلقون القبض عليهم. ويتابع سائحنا النيل إلى القاهرة ومنها إلى الإسكندرية ويعنى بالتحدث عن طرق القوافل التي تتفرع من أسوان والقاهرة وغيرهما شرقا وغربا.

أما الأخطاء التي يرتكبها بنيامين فعلى نوعين: الأول منها ما يعود سببه إلى تصديقه روايات لها علاقة بالأماكن المقدسة بحيث يصعب على مثله رفضها، والثاني يرجع إلى نقله أنباء البلاد القاصية من رواتها وتدوينها على أنها من اختباراته. فمن النوع الأول خلطه في أسماء المدن الفلسطينية عند ذكر حوادث التوراة، ومن الثاني ما ذكره عن الدروز والهنود وعدد اليهود في شرقي إيران والهند ودين سكان ملبار.

ويذكرنا رايط أن بنيامين لم يؤثر إلا قليلا في معرفة أوروبة الجغرافية في القرون الوسطى لكننا مع ذلك نجد في المعلومات التي يعطينا إياها ما يساعدنا على فهم حال الشرق العربي في القرن الثاني عشر للميلاد.

أما بتاحيا فقد ولد في راتزبون وقضى جزءا كبيرا من حياته في براغ. وقام بين سنة ١١٧٠٠م ١١٨٧م برحلة واسعة النطاق زار فيها بولونيا وكييف (أوكرانيا) وشيه جزيرة القرم وبلاد التتار وأرمينيا ومادي وفارس والعراق وسورية (بما في ذلك فلسطين وبلاد اليونان. وقد كان في دمشق بين سنتي ١١٧٤م و١١٨٧م. وأخباره التي بين أيدينا دونها من مذكراته الأصلية يهوذا الصالح بن شمويل. ويتفق بتاحيا مع بنيامين في أنه رحل للتعرف بأحوال اليهود في العالم، لكن أخباره أقل قيمة من أخبار الآخر.

كان بين رحالي القرن الثاني عشر راهب كريتي اسمه فوكاس، وهو الذي ترك لنا وصفا مختصرا لسورية في سنة ١١٨٥م أي قبل معركة حطين بسنتين. وأسلوب فوكاس في وصفه أسلوب أدبي رائع. فالمعلومات التي نحصل عليها ليست جديدة علينا، ولكن صوره كثيرة الألوان متناسبتها واضحة الخطوط مميزتها، على نحو ما نرى في وصفه لأنطاكية ودقته وينابيع لبنان وميناء بيروت ونواحي عكا الكثيرة الأمراض. فميناء بيروت صنعها الفن هلالا واحتضنتها المدينة عاطفة عليها ... وفي نهايتها برجان كبيران في أحدهما أصل سلسلة ضخمة تسحب منه إلى الآخر فتحفظ السفن في الميناء. وإذ يصل إلى بيت لحم ويدخل كنيسة المهد تعجبه الرسوم فيها فيصفها وصفا دقيقا جميلا حتى ليخيل إليك أنك تراها أمامك وأنت تقرأه.

لكن مما نأسف له أن الكاتب لم يسبغ على القدس أسلوبه الرائع فلم نحظ منه على صور غنية تمثل حياة السكان في البلد المقدس والخبر

الوحيد ذو القيمة الذي نعرفه منه عن كنيسة القبر المقدس هو أن القبر كان مزينا بالذهب الذي أهداه إمبراطور بيزنطية عمانوئيل كومنينوس (١١٤٣ - ١١٨٠م). وقيمة هذه المسألة ترجع إلى أن عملا كهذا تم في وقت كانت فيه الكنيسة اللاتينية البابوية هي صاحبة السلطان في فلسطين.

وغريب أن فوكاس يكتفي بتعداد الأماكن الهامة بالقدس لكنه لا يكاد يبتعد عنها حتى تعاوده روعة أسلوبه وتعود صوره الفنية إلى الظهور ثانية، كالذي نراه في وصفه للأديرة المنتشرة في وادي الكلت ودير مار سابا. ويختم فوكاس كتابه بقوله: «فإن وجد القارئ فيما كتبت فائدة، فإنني أحسب نفسي قد جوزيت خير الجزاء عما بذلت من جهد، وإلا فليمد ابني هذا إليّ فإن صراخه يعيد إلى نفسي ذكريات عذبة من الأماكن المقدسة تبعث النشوة في خيالي.

ومن مخلفات العصر الصليبي مجموعة من كتابات حجاج مجهولين لا نعرف عن شخصياتهم شيئا. ومن هذه المجموعة واحدة كتبت قبيل سنة ١١٨٧ م. وقد عني كاتبها بتحديد فلسطين أولا ثم تناول جبالها وحيوانها ونباتها وثمارها ومدنها وما اعتورها من تغيير في أسمائها. وتحدث عن الفرق الدينية المختلفة عند النصارى فتناول اليونانية والسريانية والأرمنية والكرجية واليعاقبة والنساطرة. وقد فصل أنظمة بعضها الاكليريكية، وقارن الشرقية منها بالكنيسة الغربية. والحق أن هذا الكتاب الذي لا يتجاوز الثلاثة آلاف كلمة يختلف عما سبقه بأنه أوسع أفقا وأكثر عناية بالناحية الإنسانية.

ومـع أننـا سـنقتصر في كتابنـا عـلى الرحالـين دون المؤرخـين، فإننـا نـرى لزامـا علينـا أن نشـير في هـذا الفصـل إلى مـا نفيـده مـن الملاحظـات النفيسـة التـي نعـثر عليهـا في صفحـات تاريـخ الصليبيـين لوليـم الصـوري رئيـس أسـاقفة صـور الـذي كتبـه سـنة م. ووصفـه لسـورية جـاء عفـوا بمناسـبة تأريخـه للأماكـن. فهـو يـرى أن سـورية تمتـد مـن أعـالي دجلـة إلى مـصر ومـن كيليكيـا إلى البحـر الأحمـر، ثـم يقسـمها إلى الجزيـرة الفراتيـة وسـورية الشـمالية والداخليـة ولبنـان وفنيقيـا والعربيتـين وأدوم وفلسـطين التـي هـي ثلاثـة أجـزاء، وعواصمهـا عـلى الترتيـب هـي القـدس وقيسـارية وبيسـان.

ويـرى بلـس أن الـذي يجـب أن نعنـي بـه هنـا هـو أن معلومـات وليـم ليسـت بـذات قيمـة في ذاتهـا، لأن الرجـل لم يعـرف البـلاد معرفـة صحيحـة، ولكـن المهـم فيهـا أنهـا ترينـا اتجاهـا نحـو فهـم البـلاد فهـما شـاملا جامعـا، والوصـف الطبوغـرافي للقـدس هـو دون الـذي تركـه لنـا ثيودوريتـش، لكـن وليـم هـو أول غـربي خـص دمشـق بوصـف دقيـق. وكتابـه خـال مـن بحـث عـن أديـان السـكان في سـورية، هـذا باسـتثناء مـا ذكـره عـن الحشاشـين.

وفي الفـترة الثانيـة مـن العـصر الصليبـي وهـي المـدة التـي تبـدأ بمعركـة حطـين سـنة ٥٨٣ هــ / ١١٨٧ م وتنتهـي بسـقوط عـكاء في أيـدي الملـك الأشرف قـلاوون سـنة ٦٩٠ هــ / ١٢٩١ م، جـاء إلى الـشرق العـربي عـدد كبـير مـن الرحالـين. وبعضهـم اتسـعت رقعـة أسـفاره بحيـث شـملت جـزءا كبـيرا مـن الـشرق كلـه. وقـد أشرنـا مـن قبـل إلى أن رحـالي القـرن الثالـث عـشر أوسـع أفقـا، وأبعـد مـدى، وأكـثر شـمولا، وأوسـع احاطـة بالبـلاد التـي

زاروهـا ووصفوهـا. ولعـلّ ذلـك يرجـع إلى أنهـم جنـوا ثمـار الاختـلاط بـين الـشرق والغـرب، فكانـت معرفتهـم أصـح، وملاحظاتهـم أدق.

ولعـلّ ولبرنـد أول سـائح في القـرن الثالـث عـشر وصلتنـا أخبـاره. زار سـورية وحـجّ سـنة ١٢١١ م. ووصـف المـوانـئ السـورية وصفـا مختـصرا لا نجـد فيـه في الحقيقـة شـيئا لم يذكـره الذيـن جـاءوا قبلـه.

عـلى أننـا متـى عثرنـا عـلى أخبـار تتـمار لا نأسـف عـلى تفريـط ولبرنـد. جـاء تتـمار سـورية سـنة ١٢١٧م إبـان هدنـة بـين المسـلمين والصليبيـين ومـع أنـه يمـر بالقـدس مـرّ الكـرام معتـذرا عـن الإطالـة بـأن الذيـن سـبقوه أفاضـوا في وصـف المدينـة المقدسـة وكنيسـة القـبر فقـد عـوض عـن ذلـك بوصـف دقيق لدمشـق، غنـي بالصـور والألـوان. فقـد شـبهها بالجنـة لكـثرة مـا يحيـط بهـا مـن الحدائـق ذات الأشـجار المنوعـة والأزاهـير المتعـددة الألـوان التـي تـسرح فيهـا العنـادل وتفـرد حتـى في الخريـف. وتطـرق إلى ذكـر خيراتهـا فذكـر أن الزائـر يجـد فيهـا عشريـن نوعـا مـن أنـواع الخبـز، ويسـتطيع أن يدخـل المطعـم ويـأكل دون أن يخـشى غشـا، فلـن يقـدم لـه طعـام بائـت. ويحدثنـا عـما تتمتـع بـه الأمـم - الجماعـات - المختلفـة الكثـيرة العـدد المقيمـة في دمشـق مـن الحريـة في أعمالهـا وفي دينهـا. ويلاحـظ بلـس أن هـذه النغمـة تختلـف عـما عودنـاه مـن السـياح السـابقين ونجـد تتـمار في بغـداد. لكننـا لا نعـثر عنـده عـلى ذكـر للطريـق الـذي اتبعـه، وهـو إغفـال نأسـف لـه أمـا وصفـه لسـفرته مـن القـدس إلى جبـل سـيناء عـن طريـق شرق الأردن فهـي قطعـة مـن الأدب الحـي، فـوادي الموجـب (أربنـون) ومـا أثـاره في نفسـه مـن الرعـب وقلعـة الكـرك، وضيافتـه في الشـوبك، كل هـذا

فيه طابع الشخصية الفنية، فقد لقي في الشوبك سيدة فرنسية مترملة عطفت عليه وزودته بالخبز المجفف والجبن والخمر والفواكه وأرفقته بالجمال والسائقين ويمر تتمار بالبتراء فيصفها وصفا مجملا مختصرا.

ويرى بلس أن تتمار يمثل نزعة جديدة بدأت تظهر في الغرب عندئذ وهي محاولة فهم الإسلام فهما صحيحا. فهو ينقل رأي الإسلام في المسيح ويعطي تاريخا مختصرا لحياة النبي وخلاصة للتعاليم الإسلامية.

وقد ترك لنا رحالة فرنسي وصفا لمدينة القدس يرجع إلى حول سنة ١٢٢٠م عرض فيه لشوارع المدينة وأبوابها وأسواقها وذكر أسماءها. ثم أتبع ذلك بوصف عام مقتضب لفلسطين.

وقد استطاع كوندر أن يحصل من هذا الوصف على مسافات لنحو ثلاثين من المدن الفلسطينية وقابلها بما وصل إليه هو فوجدها صحيحة.

وكما كان للقرن الثاني عشر مؤرخ، فقد كان للقرن الثالث عشر مؤرخه وهو يعقوب مطران عكا. سيم يعقوب مطرانا لعكا سنة ١٢١٧ م، بعد أن كان قد خدم عشر سنين في سورية. و«تاريخه» يحوي معلومات جغرافية أكثر مما يحتوي كتاب وليم الصوري. وأخباره عن الطوائف النصرانية دقيقة. أما فيما يتعلق بالإسلام فقد قبل سمع دون تمحيص أو تدقيق على أن هذه الظاهرة تبدو فيما كتبه عن أمور أخرى كثيرة. فبينما هو يتحدث عن أهل البلاد تراه ينقل قصصا خرافية عن أقزام أو رجال ذوي قرون أو أذناب، وبينما يذكر عن سلوان (بالقدس ينتقل بنا إلى الحديث عن العيون والينابيع ويروي ما يعتقده الناس بشأن

أنـواع المـاء وعلاقتهـا بالعقـم والحمـل. ومـع كل ذلـك نجـد ملاحظـات نفيسـة منثـورة في تضاعيـف الكتـاب تتعلـق بمنـاخ فلسـطين وزروعهـا ونباتهـا وتقسـيم سـورية، وغـير ذلـك. لكـن يعقـوب يبلـغ غايـة الدقـة في وصـف تنظيـم الإمـارات اللاتينيـة ومملكـة القـدس التـي كان مركزهـا آنئـذ عـكاء والمـدن الكبـيرة مثـل ادسـا وأنطاكيـة وطرابلـس وغيرهـا ونعـثر عـلى وصـف مفصـل لثلاثـين مدينـة تقـع عـلى السـاحل السـوري بـين اللاذقيـة ومـصر. أمـا مـن مـدن الداخـل فدمشـق هـي المدينـة الوحيـدة التـي نعـثر لهـا عـلى وصـف صحيـح.

رغبـت أوروبـة في القـرن الثالـث عـشر للميـلاد في الاتصـال بالتتـار الذيـن كانـوا قـد أصبحـوا قـوة رهيبـة في غـرب آسـية وشرق أوروبـة. وقـد حسـب رؤسـاء أوروبـة آنئـذ أنـه مـن الممكـن نـشر النصرانيـة بـين المغـول «فيصبحـون عونـا للأوروبيـين عـلى المماليـك الأتـراك في مـصر وسـورية». وعـلى ذلـك أرسـلت بعثتـان إلى المغـول. أمـا الأولى فقـد كان فيهـا يوحنـا كاربينـي وقـد أرسـلها البابـا أنوسـنت الرابـع سـنة ١٢٤٥م. وأمـا الثانيـة فكانـت بعثـة ملـك فرنسـة لويـس التاسـع سـنة ١٢٥٢م، إذا نـدب وليـم روبـروك. ليحمـل رسـالة إلى الخـان. ومـع أن يوحنـا بـدأ رحلتـه مـن أوروبـة ووليـم بدأهـا مـن عـكا فقـد اتخـذ الاثنـان القسـطنطينية نقطـة لابتـداء الرحلـة عـبر آسـية إلى قـره قـورم. والأخبـار التـي خلّفهـا لنـا الراهبـان ذات قيمـة كبـيرة للبحـث الجغـرافي والتاريخـي. لكنهـا تخـرج عـن نطـاق هـذه الفصـول.

وليس من شك في أن أكبر رحالي القرن الثالث عشر من الأوروبيين هو ماركو بولو.

ولو كنا نؤرخ للرحلة أو للكشف الجغرافي لكان لزاما علينا أن نخصه بأكبر قسط من هذا الكتاب. أما ونحن نكتب عن رواد الشرق العربي، فإننا مضطرون إلى الاكتفاء بالقليل عن هذا الرحالة على أننا نأمل أن يرجع القراء إلى مظان البحث عنه ليعرفوا أخباره المفصلة وليستمتعوا بقراءة ما كتبه بنفسه عن رحلاته التي شملت جزءا كبيرا من آسية.

كان نيقولو بولو وأخوه مفيو البندقيان يشرفان على تجارتهما في القسطنطينية فخطر لهما أن يبحرا إلى شبه جزيرة القرم فيزورا مصرفيهما في صلدايا (صدك الحديثة) ثم يقصدان سراي، مقر بركا خان، الفولغا، وقد تم لهما ذلك وأقاما عنده سنة، ثم تعذرت عليهما العودة بنفس الطريق بسبب حرب نشبت بين أمراء المغول فاتجها نحو بخارى ومنها رافقا وفدا كان في طريقه إلى قوبلاي خان (في الصين. وقد سر قويلاي بهما وأحسن وفادتهما، وعهد إليهما في حمل رسالة إلى البابا يطلب فيها الخان منه أن يبعث إليه بمائة من حكماء بلاده ليعلموا المغول، وطلب من الأخوين أن يأتياه ببعض الزيت من قبر المسيح بالقدس. فعاد الأخوان أدراجهما بطريق آسية الصغرى فوصلا عكاء سنة ١٢٦٩م، بعد غياب يزيد على عشر سنوات.

تلكأ الأخوان سنتين في انتظار انتخاب البابا الجديد زارا خلالهما البندقية وعادا وقد صحبهما ماركو بن نيقولو. وبدأ الثلاثة رحلتهم

مـن عـكاء سـنة ١٢٧١ م فأبحـروا إلى ايـاس (لجـازو) في خليـج اسـكندرونة (٥٩) ومنهـا اجتـازوا أرمينيـة إلى تبريـز فهرمـز عـلى الخليـج العـربي. وقـد كان الـرأي القديـم هـو أن الجماعـة مـرت بالموصـل وبغـداد وشـط العـرب والبـصرة في طريقهـا إلى هرمـز. ولكـن الـسر بـرسي سـيكس يـرى أن ماركـو لم يمـر ببغـداد ولم يجـار دجلـة إلى الخليـج العـربي، وهـو يعتقـد أن وصفـه للموصـل وبغـداد منقـول عمـن اجتمـع بهـم في تبريـز وغيرهـا، كذلـك القصـة التـي يرويهـا.

ومـن هرمـز اخـترق ماركـو آسـية متبعـا طريـق القوافـل إلى الصـين، وقـد غـاب في الصـين سـبع عـشرة سـنة (١٢٧٥ - ١٢٩٢م) وعـاد إلى هرمـز بطريـق المحيـط الهنـدي ومنهـا إلى تبريـز فطرابـزون فالقسـطنطينية فالبندقيـة التـي وصلهـا في شـتاء سـنة ١٢٩٥م.

فماركـو بولـو تهمنـا رحلاتـه مـن حيـث إنـه نقـل إلينـا وصفـا لبغـداد بعيـد حملـة هولاكـو عليهـا سـنة ١٢٥٨م بقليـل. وقـد كان ماركـو دقيـق الملاحظـة كثـير العنايـة بالمتاجـر ومـوارد الـثروة، ومـن هنـا كانـت أخبـاره وصـوره ذات قيمـة خاصـة. ونجـد عنـده ملاحظـات قليلـة متفرقـة عـن موانـئ الـشرق العـربي مثـل عـدن والاسـكندرية والبـصرة.

وآخـر رحـالي الفـترة الصليبيـة هـو بـركارد الراهـب الدومنيـكاني الألمـاني، الـذي كتـب عـن الأرض المقدسـة سـنة ١٢٨٣م وكان قـد أقـام في القـدس وسـكن عـكا وتجـول في البـلاد كثـيرا، لذلـك جـاءت أخبـاره نتيجـة اختبـار شـخصي، أتمـه حيـث احتـاج، بمـا حصـل عليـه مـن أهـل البـلاد مـن المسـلمين والنصـارى وقـد حـاول بـركارد أن يتبـع تنظيـما خاصـا في وصـف فلسـطين،

فقسـمها إلى أربعـة أجـزاء وجعـل عـكاء نقطـة الابتـداء في كل قسـم فنتـج عـن ذلـك أن القـارئ يجـد نفسـه في عـكاء بعـد انتهائـه مـن كل قسـم. وحـال التقسـيم دون معالجـة بعـض الوحـدات الطبيعيـة دفعـة واحـدة. فنحـن نجـد مثلا أن المـدن المحيطـة ببحـيرة طبريـة مـن الغـرب تعالـج عـلى ثـلاث دفعـات منفـردة - فكفـر ناحـوم (تلحـوم وخورازيـن (كـرازة) تقعـان في جـزء، وطبريـة تقـع في جـزء ثـان، وبيـت صيـدا والمجـدل في جـزء ثالـث. وقـد رسـم بـركارد خارطـة لفلسـطين لكنهـا لم تصـل إلينـا مـع كتابـه. ولعلهـا كانـت تسـاعد القـارئ في تتبـع طريقـة المؤلـف في الوصـف والتقسـيم.

ويمتـاز بـركارد عمـن سـبقه بعنايتـه بالآثـار، ومحاولتـه التعـرف إلى الأماكـن الـوارد ذكرهـا في الكتـاب المقـدس محاولـة منظمـة، ودقـة وصفـه لطبوغرافيـة القـدس وفي آخـر كتابـه أورد فصلـين عامـين عـن فلسـطين الواحـد عنوانـه «ثمـار الأرض المقدسـة وحيوانهـا، والآخـر اسـمه الديانـات المختلفـة في الأرض المقدسـة». وقـد حمـل فيـه عـلى اللاتـين الأوروبيـين، وأجمـل القـول في المسـلمين فـكان دقيقـا ومعتـدلا.

ويقـول لورنـت، ويوافقـه بلـس عـلى ذلـك، إن بـركارد أبـرز حجـاج القـرون المتوسـطة وأكبرهـم شـأنا.

ونحـن إذ نقـرأ وصفـه عـكا وصيـدا والحولـة ومنتجـات فلسـطين وغيرهـا لا يسـعنا إلا أن نعـترف لـه بأثـر كبـير في تنظيـم الدراسـة الجغرافيـة للبـلاد المقدسـة.

أدب الدِّعاية

•••

احتل المماليك عكاء سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١م وبذلك قضي على دولة الصليبيين في سورية. وكان المنتظر أن يثير ذلك أوروبة إلى القيام بحملة جديدة لاسترجاع سورية أو فلسطين على الأقل ولكن شيئاً من ذلك لم يكن كان عهد الحملات الصليبية الواسعة النطاق قد انقضى، على أننا نجد في النصف الأول من القرن الرابع عشر بعض الدعاة الذين لم يفت في عضدهم تقاعس أوروبة، فاندفعوا يكتبون محرضين الأمراء والملوك والبابوات مبينين لهم ولغيرهم الواجب الملقى على عواتقهم، مطالبين إياهم بتجريد حملة أو أكثر للقضاء على سلطان المماليك ووقف تقدم الأتراك في آسية الصغرى واسترداد الملك المفقود. والغالب على هذا الأدب المحرض أربعة أمور: أولها، البحث في أسباب فشل الصليبيين في آخر عهدهم وانكسارهم ونقد تصرف المسؤولين عن المملكة الصليبية وثانيها البحث في الطرق المؤدية من أوروبة إلى الشرق البحري منها والبري وثالثها درس موارد المماليك الاقتصادية وقواهم العسكرية في سورية ومصر والتعرف إلى طريقة إضعافهم اقتصادياً تمهيداً لاحتلال البلاد؛ ورابعها التحالف مع المغول. والذي نستطيع أن نستنتجه من استعراضنا لهذه المادة من الأدب المحرض التي وصلت إلينا هو أن الأمر كان يشغل بال عدد كبير من الناس، وأن الكتاب كانوا يرمون إلى التأثير في الرأي العام لذلك حاولوا أن ينشروا كتبهم بين أكبر عدد ممكن من شعوب أوروبة.

لعلّ أقدم ما وصل إلينا من أدب الدعاية بعد سقوط عكاء هو ما كتبه تاديو النابلي الذي وصف سقوط المدينة من الناحية الواحدة، وبين الدور الذي لعبته كل جماعة كانت داخل المدينة في الدفاع أو التخلي عن المدينة أو الهرب. على أن الكتاب مقصود به مبدئياً أن يكون دعاية لحملة صليبية جديدة فهو رسالة موجهة إلى أمم النصرانية، يحاول تاديو فيها أن يثير حماستها للقيام بهذا العمل.

وفي مقدمة الدعاة الكبار اثنان كانا في طليعة رجال القانون في أيام فيليب الجميل (١٢٨٥ -١٣١٤م) وهما بيير دوبوا وغليوم دي نوغاره. فقد تقدم الأول سنة ١٣٠٧م إلى إدوارد الأول ملك إنجلترا برسالة تناول فيها جميع المسائل المتعلقة بحملة صليبية إلى الشرق. وقد اعترف الكاتب بأن ما بين الدول الأوروبية النصرانية من خلاف هو السبب الرئيسي في انصراف أمرائها عن إعداد الحملة، فهو يقترح:

(١) عقد مؤتمر عام يقر السلم بين الدول ويفرض رأيه على المتردد بالقوة، (٢) منع الاتجار مع الشرق منعاً باتا (٣) ارسال جماعات من رعايا الدول لسكنى فلسطين، (٤) انشاء محكمة مؤلفة من ثلاثة أساقفة وثلاثة من الرجال العلمانيين تفصل في الخصومات جعل الدولة في الشرق ملكاً موروثاً على أن يكون أول ملوكها أميراً فرنسيا ثم يتولى بيير تفصيل النظام الحكومي الذي يقترحه لهذه الدولة وجيشها ويخلص من ذلك إلى التنبيه على الذين سيتولون إدارة البلاد أنه يتحتم عليهم أن يعيدوا الكنائس الشرقية إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية، وأن ينشروا النصرانية بين المسلمين. وفي سبيل تحقيق هذا الأمر يجب

أن يتعلـم المسـتعمرون رجـالاً ونسـاء لغـات الـشرق المختلفـة، في مـدارس خاصـة يتـولى الإشراف عليهـا فرسـان الهيـكل والمستشـفى. وفي السـنة التاليـة ١٣٠٧م أرسـل بيـير مذكـرة في الموضـوع نفسـه إلى فيليـب الجميـل عـرض عليـه فيهـا أن يجعـل ابنـه الثـاني (فيليـب) ملـكاً عـلى مـصر وبابليـون وأن يسـعى إلى توحيـد جمعيـات الفرسـان المختلفـة تحـت سـلطان ملـك قـبرص.

أمـا دي نوغـاره فقـد أثـار عـلى فرسـان المستشـفى حملـة شـعواء وحملهـم مسـؤولية الفشـل الـذي أصـاب الحمـلات الصليبيـة في القـرن الثالـث عـشر، ثـم اقـترح أن يضـع فيليـب يـده عـلى أمـلاك الكنيسـة وينفقهـا في سـبيل إعـداد الحملـة، لأنـه رأى أن المـال أمـر ضروري لنجـاح مثـل هـذه الحملـة.

عـلى أن البحـث في الحملـة الصليبيـة والدعـوة إليهـا وتبيـين سـبل نجاحهـا لم يقتـصر عـلى جماعـة واحـدة مـن المفكريـن، ولكنـه شـمل الأمـراء والمبشريـن والتجـار وغيرهـم مـن النـاس. والطريـف فيـما كتبـوه أنهـم يتفقـون في الخطـط العامـة بحيـث لا يختلفـون إلا في التفاصيـل واختيـار الطـرق. فقـد اقـترح دي بـادو غـداة سـقوط عـكاء، مقاطعـة التجـارة الشرقيـة وحـصر مـصر تجاريًـا لتضعـف ويسـهل احتلالهـا، وهـذا يتـم بحسـب رأيـه بواسـطة أسـطول كبـير يحتـل مصـب النيـل وجيـش قوامـه ثلاثـون ألفـاً مـن الجنـود ينزلـون قـرب الاسـكندرونة في شـمال سـورية ويزحفـون إلى مـصر بعـد أن يلتقـوا بالمغـول القادمـين مـن الـشرق. وفكـرة إنشـاء أسـطول كبـير يحـرس البحـر المتوسـط ويحـصر تجـارة مـصر نجدهـا في مشـاريع شـارل الثـاني ملـك نابـلي (١٢٩١ - ١٢٩٢م) وجـاك مـولي رئيـس الهيكليـين سـنة ١٣٠٧م ووليـم آدم سـنة ١٣١٠م. وفي مذكـرة للبابـا كلمنـت الخامـس أرسـلها سـنة

١٣١١م إلى هنري الثاني ملك قبرص (١٢٨٥ - ١٣٢٤م) وفيما كتبه مارينو سنودو. وقد اقترح هذا انشاء أسطول يكون تحت إمرة مندوب يختاره البابا ويرجع إليه في تلقي أوامره والغرض من ذلك أن يكون الأسطول مستقلاً على المدينتين التجاريتين الكبيرتين البندقية وجنوى لأن مصالحهما التجارية قد تحملهما على تضحية المصلحة الأوروبية العامة في سبيل ما تريدان.

والاختلاف على الطريق التي يمكن اتباعها للوصول إلى الشرق أمر طبيعي، لأن المجال أمام الرحالين والكتاب واسع. فثمة الطريق البري من أواسط أوروبة إلى القسطنطينية ومنها بطريق آسية الصغرى وسورية. وهناك من اقترح طريق البر أولاً ثم طريق البحر من بزنطية إلى سورية. والحملات البحرية نفسها بصرف النظر عن مكان ابتدائها، قد تتخذ عكاء أو غيرها من موانىء سورية هدفاً لها، وقد تتجه غيرها نحو الاسكندرية أو غيرها من المدن المصرية رأساً، بحيث يمكن الزحف على القاهرة والقضاء على مركز السلطان أولا. وقد بحث في احتمال إرسال حملة إلى مصر بطريق تونس.

أما التحالف مع المغول فقد دافع عنه دي بادو وغرانسوت وآدم وسنودول. وقد يكون من حق هيتون أن يشار إليه بهذه المناسبة. كان هيتون أميراً أرمنياً وفي سنة ١٣٠٧م كتب تاريخ الأمم الشرقية، وعرض فيه لتاريخ الشرق منذ زمن المسيح إلى أيامه وختمه بدعوة أوروبة لحمل السلاح لاسترجاع فلسطين ووقف الخطر التركي. وهذا الجزء من كتاب هيتون ثلاثة أقسام: الأول، يبحث فيه المؤلف نواحي القوة

والضعف عند المماليك، والثاني يعرض فيه للحملة الصليبية المنتظرة والثالث يتناول فيه الطرق.

ففي القسم الأول يعزو المؤلف تقدم مصر إلى (١) قوة السلطان الشخصية التي تمكنه من التغلب على الفتن والثورات (٢) الهدنة الطويلة مع التتار (٣) وفرة الغلات في مصر وسورية، (٤) اطمئنان الدولة إلى أن الطرق التجارية البرية والبحرية في أمان (٥) السلم القائم بين مصر والنوبة والعرب في الصحراء الشرقية. ولذلك فهو ينصح أولي الأمر في أوروبة بأن يتحينوا فرصة اضطراب أحد هذه الأمور عند المماليك فيهجموا على الشرق. وهذا الاضطراب قد يحدث إذا تكاثر الثائرون على السلطان أو عادت الحروب مع التتار أو الأحباش أو هجم العرب على أملاك السلطان أو امتنع النيل عن الفيضان فقل الإنتاج الزراعي.

ويقترح هيتون أن تأتي أول الأمر حملة صغيرة من نحو أربعين ألفاً من الرجال يصحبها أسطول قوي فتنزل في أرمينية الصغرى (كيليكيا) ومن هناك يمكن الاستيلاء على طرابلس وغيرها من الموانئ السورية ويكون الرسل قد نجحوا في إقناع التتار بالهجوم من الشرق، وعندها تبدأ الحملة الكبيرة وهنا يتناول هيتون الطرق المختلفة التي يمكن للحملة أن تتبعها واحدة واحدة ويفضل الطريق البحري، بحيث تصل الحملة انطاكية في سورية في الخريف. وتبدأ الزحف من الشمال إلى الجنوب.

اعترى أدب الدعاية للحملات الصليبية بعض الفتور في أواسط القرن الرابع عشر بسبب اهتمام أولي الأمر في أوروبة بإعداد الحملات فعلاً

وبقيادتها. فلما لم تـوت هـذه البعثات ثمـراً عـاد الكتـاب إلى الدعايـة مـن جديـد. وفي هــذه المـرة كانـوا مـن رجـال السياسـة. ولا شـك أن الاتجـاه الجديـد يتضـح مـن دراسـة حيـاة بيـير دي تومـاس وفيليـب ميزيـير

ولسـنا نريـد أن نتنـاول حيـاة هذيـن الرجلـين بالتفصيـل، بـل نكتفـي بالإشـارة إليهـما إشـارة موجـزة محيلـين القـارئ إلى الفصـل النفيـس الـذي كتبـه عنهـما الدكتـور عطيـة، ومنـه أخذنـا هـذه الخلاصـة.

ولـد بيـير دي تومـاس في أواخـر القـرن الثالـث عـشر وانـصرف في شـبابه إلى طلـب العلـم فظهـرت مواهبـه للبابـا أنوسـنت السـادس (١٣٥٢) - ١٣٦٢م) فاختـاره سـفيراً لـه لـدى ملـك أبوليـا ثـم لـدى سربيـاً ثـم عنـد امبراطـور الامبراطوريـة الرومانيـة المقدسـة وسـامه مطرانـاً في صقليـة ثـم بطريـركاً لاتينيـا في القسـطنطينية، وأخـيراً عـين بيـير قاصـداً رسـونيا في الـشرق. وفي سـنة ١٣٥٧ م زار فلسـطين.

صرف بيـير همـه إلى ثلاثـة أمـور اعتبرهـا رسـالته في الحيـاة: الأول رد نصـارى الـشرق إلى حظـيرة الكثلكـة. والثـاني التبشـير بالنصرانيـة بـين المسـلمين. والثالـث الدعـوة إلى حملـة صليبيـة لاسـترداد الأرض المقدسـة. ولم يـأل جهـداً في أي مـن هـذه المحـاولات، وممـا لا شـك فيـه أنـه كانـت لـه يـد كـبرى في تهيئـة الحملـة ضـد الاسـكندرية سـنة ١٣٦٥ م، ومـن المصادفـات أن يمـوت بيـير عقيـب ارتـداد المحاربـين عـن المدينـة بعـد أن نهبوهـا (تـوفي سـنة ١٣٦٦ م).

لكـن بيـير خلـف فيليـب، تلميـذه وخليفتـه الروحـي. ولـد فيليـب سـنة ١٣٢٧ م ودعـا إلى حملـة صليبيـة في فرنسـة واسـبانية وتقلـد منصـب

المستشار الملكي لبيير لوزنيان ملك قبرص. فلما اغتيل هذا رحل إلى فرنسة وعمل مربياً لولي عهد المملكة، فلما توفي الملك شارل الخامس (ملك فرنسة) سنة ١٣٨٠م قرر فيليب اعتزال العالم، واعتكف في دير بالقرب من باريس. وهناك شغل نفسه بأملاء رسائله وكتبه ومذكراته التي كانت كثيرة العدد متنوعة المباحث على أن أهم ما جاء فيها، من حيث علاقته بموضوعنا، يمكن تلخيصه فيما يلي: -

١ - رأى فيليب أن فرق الفرسان التي نشأت قبلاً قد اختصمت فيما بينها حتى أدت خصومتها إلى ضياع الأراضي المقدسة، لذلك اقترح إنشاء فرقة جديدة من الفرسان بحيث تُجتنب فيها الأخطاء السابقة.

٢ - إعداد الحملة الصليبية والبحث في الطريق التي تسلكها الجيوش للوصول إلى غايتها.

٣ - ضرورة قيام السلم بين انكلترا وفرنسة لتتمكن الأمتان من الاشتراك في الحملة الصليبية.

٤ - وهناك اقتراح جديد وهو إرسال سفراء إلى البلاط السلطاني الشرقي يحملون الهدايا والرسائل الودية إلى السلطان ورجاله.

وها نحن أولاء نكتفي بهذا القدر اليسير عن أدب الدعاية للحملات الصليبية في القرن الرابع عشر، ضاربين صفحاً عن جماعات كثيرة غير الذين ذكرنا، وفي مقدمتهم المبشرون على أننا نرى من الخير للقارئ أن نحيله إلى ما كتبه الدكتور عطية عنهم.

رحَّالو القرن الرَّابع عشر

•••

هؤلاء الرحالون كثيرو العدد متباينو الغايات والأغراض، لكنهم يتفقون في أنهم أرادوا أن يفهموا الشرق فهما صحيحا وأرادوا أن يتعرفوا إلى أسباب فشل الحملات الصليبية لتداركها في المستقبل.

أول الرحالين الذين تطالعنا أسماؤهم بعيد سقوط عكاء هو ريكولدو دي مونت كروشي الذي قضي وقتا طويلا من حياته في الشرق. ولد ريكوندو بالقرب من فلورنسة سنة ١٢٤٢م وتوفي سنة ١٣٢٠م. وكان يرى أن من الخير للبشر أن يعتنقوا الكثلكة - سواء في ذلك النصارى الشرقيون والمسلمون واليهود، ورأى أن يقرع الحجة بالحجة مع أهل الأديان المختلفة، فأقام في الشرق ليدرس العقائد المختلفة فتعلم العربية واستقر في بغداد زمنا لدرس القرآن الكريم وأمهات الكتب الإسلامية. وكان همه في سورية وغيرها أن يجمع ما تصل إليه يده من الآثار المقدسة ويحملها إلى أوروبة. فالبعض منها ابتاعه والبعض الآخر أخذه من الأديرة. وقد خلف ريكولدو ثلاث مجموعات من الآثار المكتوبة، أولها «أسفار» وهي التي أرادها دليلا للحجاج والصليبيين؛ وثانيها «الرسائل التي وصف فيها ما مرَّ به من حوادث، وصور ما عن له من الخواطر وما دار بخلده من الآمال أثناء إقامته في الشرق؛ وثالث هذه المجموعات كتاباته الدينية البحتة وفيها رسائل ثلاث موجهة إلى اتباع الإسلام والنصرانية الشرقية واليهودية.

ويطالعنا في مفتتح القرن الرابع عشر سائح آخر من رجال السياسة والتبشير هو وليم آدم المولود سنة ١٢٧٥م في جنوب فرنسة، والذي التحق بالأخوة الدومنيكان في شبابه. وفي سنة ١٣٠٥م انتدبه البابا كلمنت الخامس للقيام بأعمال تبشيرية في الشرق، فزار لهذا السبب آسية الصغرى وسورية وانتدب ثانية لزيارة فارس والتبشير الهند. وقد طاف فيها ومرّ بعدن وعرج على شرق أفريقية. وبعد تردد على الشرق غير مرة عين رئيسا لأساقفة السلطانية (عاصمة مملكة الفرس) ثم نقل إلى انتواري وقد تغيب عن مركز عمله كثيرا وتوفي في انتواري سنة ١٣٤١م.

العمل الذي وقف وليم حياته عليه هو إثارة أوروبة لإعداد حملة لاسترداد سورية والقضاء على سلطان مصر. ويظهر هذا جليا من اسم كتابه ومحتوياته (٦) فإن الكتاب يتناول فيه مسألتين كبيرتين: الأولى هي التي تهمنا في هذا المقام. فمصر تعتمد في ثروتها على الاتجار مع الأمم البعيدة عنها بالإضافة إلى جاراتها. فبيزنطة تبعث إليها بالقمح، والرقيق يحمل إليها من أرمينية وما وراءها والهند تمدها بمصنوعاتها وطرائفها، وعدن تجمع ما تحتاج إليه مصر من جنوب بلاد العرب وأفريقية الشرقية وكل هذه المتاجر ينقلها الجنويون والبنادقة والبيزيون وتجار قطالونية إلى أوروية. ومصر تسيطر على الطرق السورية بحكم أن سورية جزء من السلطنة المصرية. ولا سبيل إلى احتلال سورية والقضاء على مصر، كما يرى المؤلف، إلا بمنع الإتجار مع مصر. ويرى أن ذلك يتطلب القيام بأمور أربعة: (١) ضرب الحصار التجاري على مصر ووضع الحرم على نصارى أوروبة الذين يخالفون ذلك ويتاجرون

معهـا. (٢) احتـلال الإمبراطوريـة البيزنطيـة وإرغـام أهلهـا عـلى اعتنـاق الكثلكـة. (٣) وعندهـا يمكـن تحويـل التجـارة مـن الطريـق المـصري إلى طريـق فـارس - آسـية الصغـرى فالقسـطنطينية. (٤) إنشـاء أسـطول قـوي في المحيـط الهنـدي يكـون عملـه الحيلولـة دون وصـول متاجـر الهنـد إلى عـدن فيضطـر التجـار إلى المـرور بطريـق الخليـج العـربي. فمتـى تـم ذلـك ضعفـت مـصر عـن المقاومـة، وسـهل ابتلاعهـا وخصوصـا لأن الشرقيـين جبنـاء لا يجـرأون عـلى القتـال ولا ينـسى وليـم أن يوجـه نظـر الأوروبيـين إلى وجـوب عقـد محالفـة مـع المغـول، لزيـادة مصاعـب المصريـين، وإمـكان مهاجمتهـم مـن ناحيتـين في وقـت واحـد. بـروكارد في مقدمـة الأوروبيـين الذيـن قضـوا فـترة طويلـة في الـشرق حـول سـنة ١٣٠٨م. ونجـده في سـنة ١٣٢٣م في البـلاط الأرمنـي يعمـل عـلى نـشر الكثلكـة. وقـد قـال هـو عـن نفسـه إنـه أقـام أربعـا وعشريـن سـنة في ربـوع الـشرق.

ويمكـن إجـمال القـول فيـه إنـه كان داعيـة للكثلكـة متعصبـا حتـى إنـه جعـل فرضهـا عـلى نصـارى الـشرق البيزنطيـين غرضـا رئيسـا مـن إرسـال حملـة صليبيـة. ولذلـك نـراه يحمـل عـلى الجماعـات النصرانيـة في الـشرق حمـلات شـعواء، فيتهمهـم بالجـبن والخـداع والغـش وغـير ذلـك مـن الرذائـل.

قـدم بـروكارد كتابـه لفيليـب السـادس سـنة ١٣٣٢م عندمـا كان الملـك يعـد حملـة صليبيـة عسـكرية يوجههـا إلى الـشرق. وقـد جعلـه في مقدمـة وجزأيـن، فأشـار في المقدمـة إلى السرور الـذي مـلأ قلـوب القـوم إذ سـمعوا بنبـأ الحملـة. ثـم تنـاول في الجـزء الأول الجيـش ومـا يحتـاج إليـه والطـرق

الصالحـة، وعـرض في الثـاني للخطـة التـي يجـب اتباعهـا بالتفصيـل.

ولسـنا هنـا في معـرض البحـث عـن تاريـخ الحمـلات الصليبيـة فتفصـل في درس كتـاب بـروكارد، ولكننـا نحـاول أن ترسـم صـورا لما رآه الرحالـون في الـشرق العـربي في هـذه الفـترة. والأثـر الـذي يتركـه بـروكارد في نفوسـنا هـو أنـه لم يفهـم الـشرق ولم يقـدر سـكانه. فهـو يرمـي نصـارى الـشرق مـن غـير الكاثوليـك بالتهـم يكيلهـا لهـم جزافـا، كـما ذكرنـا، ويقـول عـن الأتـراك انهـم يسـهل قهرهـم لأسـباب متعـددة منهـا أنهـم أشرار فاللـه يعاقبهـم، ومنهـا أنهـم فاسـدون منقسـمون وجيوشـهم ضعيفـة هزيلـة، وجندهـم مـن عتيـق اليونـان وقادتهـم لا يعرفـون مـن فنـون الحـرب شـيئا، وسـلاحهم لا يعتـد بـه لنزرتـه وخيولهـم هزيلـة. ويختـم بـروكارد وصفـه لهـم بقولـه: والخلاصـة أنهـم بعـد اليونـان والمصريـين أحـط مـن حمـل السـلاح مـن أمـم «الـشرق». ولكـن أوروبـة لم تنتظـر طويـلا حتـى ثبـت لهـا خطـأ مـا رواه بـروكارد عـن الأتـراك.

ونحـن وإن كنـا نـترك هـذا الرحالـة آسـفين لأننـا لا نجـد عنـده صـورا للحيـاة الشرقيـة فإننـا ننتقـل إلى رحالـة آخـر يُعتـبر مـا خلفـه مـن خـير مـا وصـل إلينـا لـدرس الحيـاة الاقتصاديـة للـشرق في القـرون المتوسـطة. هـذا هـو مارينـو سـنودو.

ولـد مارينـو سـنودو في البندقيـة حـول سـنة ١٢٧٠٠ م، وقـد كان أبـوه قاضيـا وعضـوا في المجلـس الكبـير في المدينـة ودوقـا لجزيـرة نكسـوس التـي احتلهـا إثـر سـقوط القسـطنطينية بأيـدي اللاتـين. ومـن المعـروف أن أبـاه

تـزوج أمـيرة بزنطيـة، لكننـا لا نـدري هـل كان مارينـو ابنهـا أو ابـن زوج أخـرى.

سـاح مارينـو كثـيرا، وزار ايطاليـة واليونـان وأرمينيـة وسـورية ومـصر غـير مـرة. والـذي نعرفـه أنـه أقـام في عـكاء في الحـي البندقـي سـنة ١٢٨٦م (١٤). وفي رودس مـن سـنة ١٣٠٩ إلى ١١٣١م.

وفي سـنة ١٣٢١م (١٥) تقـدم مارينـو إلى البابـا يوحنـا الثـاني والعشريـن (١٣١٦- ١٣٣٤م) بكتابـه المسـمى أسرار حملـة صليبيـة وهـو الـذي تنـاول فيـه الخطـة الواجـب اتباعهـا في إعـداد حملـة عسـكرية لاسـتعادة الـشرق بتفصيـل دقيـق. والكتـاب يشـمل ثلاثـة أمـور رئيسـة. الأول سـبيل القضـاء الاقتصـادي عـلى مـصر، والثـاني احتـلال مـصر العسـكري، والثالـث الاحتفـاظ بمـصر والبـلاد المقدسـة وكيفيـة تأمـين ذلـك. والناحيـة العسـكرية البريـة والبحريـة في الكتـاب ليسـت مـا يعنينـا هنـا، لكننـا نريـد أن ننـوه بالفائـدة التـي يجنيهـا مؤرخـو الـشرق في القـرون الوسـطى مـن مراجعـة الحيـاة الاقتصاديـة في القـرن الرابـع عـشر الميـلادي. وقـد وصـف مارينـو جغرافيـة الأرض المقدسـة وطبوغرافيتهـا وصفـا دقيقـا، كـما تنـاول الملاحـة في الـشرق الأدنى وطرقهـا والسـفن وأنواعهـا وأوقـات إقلاعهـا وقدومهـا.

وممـا يزيـد في قيمـة كتابـه الخرائـط التـي رسـمها خصيصـا لـه. وقـد وصلنـا منهـا ثـلاث خرائـط للعـالم وللـشرق ولـلأرض المقدسـة، ورسـمان واحـد للقـدس والثـاني لعـكا. أمـا خارطـة البحـر المتوسـط فقـد فقـدت.

استقى مارينو معلوماته من أسفاره العديدة ومؤلفات وليم الصوري ويعقوب دي فتري المؤرخين. وممن عاشرهم من أهل الحل والعقد، ومتى عرفنا انه صرف نحو خمسة عشر عاما في تحضير كتابه أدركنا السبب في هذا الدقة التي نلمسها في المؤلف النفيس واستغربنا نواحي الضعف التي نقلها عن سابقيه دون أن يصححها.

وفي الوقت نفسه الذي كان مارينو يعد فيه رسالته كان يقيم في بيسان يهودي منفي هو الحاخام استوري بن موسى ها بارخي، جاء بيسان سنة ١٣١٤م وأقام فيها سبع سنين صرفها في درس فلسطين وشرق الأردن من حيث علاقة جغرافية البلاد بالتوراة. وقد أتم كتابه سنة ١٣٢٢م. ويرى المحدثون من الكتاب أن أبحاث استوري وتعرفه إلى الأماكن القديمة ومقارناته وتقصيه في كل هذا، تجعله في مصاف كبار الجغرافيين الذين كتبوا.

وفي سنة ١٣٣٣م نزل راهب ألماني اسمه وليم فون بلدنزل مدينة رومة حيث حصل على إذن في زيارة الأراضي المقدسة وعند عودته إلى المانية سنة ١٣٣٦ م نشر كتابا وصف فيه بلاد اليونان وجزيرتي رودس وقبرص ومصر وسورية وسيناء، مع عناية خاصة بالمدن الرئيسية مثل يافا وغزة والقدس ودمشق والقاهرة. ومن المحتمل أن يكون وليم قد وصل بغداد. لكن كتابه في الحقيقة دليل للأراضي المقدسة قبل كل شيء.

ومما لا يرتاب فيه أن أظرف رحالي القرن الرابع عشر هو يوحنا مندفيل يعرفنا يوحنا بنفسه قائلا: «أنا يوحنا مندفيل الفارس... المولود

في انكلـترا ركبـت البحـر في سـنة ١٣٢٢م في يـوم القديـس ميخائيـل ... وزرت بـلادا مختلفـة.... وجـزرا كثـيرة واجتـزت بـلاد التتـار وفـارس وأرمينيـة الصغـرى والكـبرى، وليبيـا والعـراق وجـزءا كبـيرا مـن اثيوبيـا وأمازونيـا والهنـد الكـبرى والصغـرى وجـزرا كثـيرة حـول الهنـد ... حيـث تقطـن شعوب متباينـة القوانـين والعـادات والأشـكال البشريـة ويقـدم إلينـا كتابـه بهـذه العبـارة: «... وقـد نقلـت هـذا الكتـاب مـن اللاتينيـة إلى الفرنسـية ثـم مـن هـذه إلى الانكليزيـة ليفهمـه كل فـرد مـن بنـي قومـي ... وليتمكـن كل سـيد وفـارس وغيرهـم مـن النبـلاء الذيـن لا يعرفـون إلا القليـل مـن اللاتينيـة مـن فهمـه، وإذا أوقعنـي ضعـف الذاكـرة خطـأ اسـتطاع الذيـن زاروا البـلاد الواقعـة وراء البحـار أن يصححـوا ذلـك».

ولكـن المؤرخـين ارتابـوا في الأمريـن اللذيـن تحـدث عنهـما يوحنـا بوضـوح. فهـم ينكـرون أنـه انكليـزي، ويـرى بعضهـم أنـه بلجيـكي مـن أهـل ليـاج اسـمه يوحنـا أو ترميـزا وانـه انتحـل الاسـم الآخـر ليكسـب ثقـة معاصريـه. أمـا أسـفار يوحنـا ومداهـا فقـد شـغلت الكتـاب أكـثر مـن اسـمه وأصلـه. ذلـك أن الأسـاطير التـي يحويهـا الكتـاب وأجيـال النـاس التـي يزعـم أنـه رآهـا ليـس لهـا وجـود. ولعـلَّ مـن الحـق أن نقـرر هنـا مسـألتين هامتـين. الأولى: أن يوحنـا وصـل الـشرق العـربي في سـياحاته، ووصـف سـورية ومـصر وجـزءا مـن العـراق وصـف مـن رأى وسـمع والثـاني: انـه نقـل عـن مصـادر مختلفـة أخبـارا وقصصـا متنوعـة حشـاها في كتابـه. فقـد أخـذ عـن وليـم بلدنـزل والأمـير هيتـون الأرمنـي ووليـم آدم والراهـب أو دوريـك بوردينـون ويوحنـا كاربينـي ويلينـي وسـولينوس. وقـد لاحـظ رايـط أن المؤلـف كان في مـصر سـنة ١٣٤١م بدليـل ذكـره السـلطان.

الأشرف الصغير. وهذا هو التاريخ الوحيد الذي يدلنا على شيء صحيح عن يوحنا (مندفيل).

وإذن فنحن نستطيع أن نعتمد الصور التي أعطاها إياها عن الشرق العربي إلى درجة كبيرة. ونستطيع أن نضم المؤلف إلى الدعاة الذين حاولوا إيقاظ أوروبة لإعداد حملة صليبية لاسترجاع الأرض المقدسة. ومن ثمَّ نالت فلسطين من عنايته الحظ الأوفى.

يبدأ يوحنا كتابه بذكر الطريق من المغرب إلى القسطنطينية مارا بالمانية وهنغارية وبلغارية ثم ينقلنا إلى القدس بطريقين: البري مخترقا آسية الصغرى مارا بنيقيا، والبحرى ومراكزه رودس وقبرص إلى صور. ويتناول الطرق الموصلة من سورية إلى مصر، ويحدثنا عن المدن المصرية وعادات السكان وأخلاقهم وقوة المماليك الحربية.

وممن عاصر يوحنا مندفيل راهب اسمه جاكومو دي فيرونا. خرج جاكومو من فيرونا في السابع من شهر أيار (مايو) سنة ١٣٣٥م ليؤدي فريضة الحج في القدس فوصل يافا في ٣٠ تموز (يوليو) بعد أن مرَّ بكريت وقبرص. وفي ٥ آب (أغسطس) وصل القدس. وهنا يبدأ بوصف الأرض المقدسة ويشير إلى القرى والمدن المأهولة والمحصنة. ومن القدس ذهب إلى جبل سيناء بطريق غزة، ثم استمر في ترحاله إلى القاهرة فوصلها في ٣٠ أيلول (سبتمبر). وقد وجدها مدينة حصينة منيعة يقيم فيها نحو عشرين ألفا من الجند النظامي لكنهم ينقصهم السلاح الجيد والعدة الكاملة والخيول القوية ويهتم بالنيل ويظهر قيمته كطريق طبيعي للمواصلات بين القاهرة والاسكندرية. ويزور دمياط ثم

يعـود منهـا بـرا إلى غـزة. ويذكّرنـا بمناسـبة حديثـه عـن مينـاء دميـاط بأنهـا قـد تراكمـت الأحجـار والصخـور في مدخلهـا فحالـت دون دخـول السـفن إليهـا عـلى نحـو مـا أصـاب مـوانيء صـور وعـكاء ويافـا وغـزة. ويخصـص جاكومـو فصـلا للبحـث عـن الإسـلام والنبـي، ويصـف اضطرابـات شـهدها بـين غـزة والقـدس وأخـرى حدثـت في طريقـه إلى النـاصرة. ومـن النـاصرة توجـه إلى دمشـق فيعليـك فصيـدا فصـور فعـكاء فبـيروت حيـث عـاد إلى بـلاده فوصـل فيرونـا في تشريـن الأول (أكتوبـر) سـنة ١٣٣٥م.

وكتــاب جاكومــو في جملتــه دليــل للحجــاج ودعــوة لحملــة صليبيــة، وهـو شـديد العنايـة بأوقـات الأسـفار والأزمنـة اللازمـة لقطـع المسـافات. والرحـال الآخـر الـذي عـاصر مندقيـل هـو لودلـف فـون سـوخم (سـودهيم) الـذي قـضى خمـس سـنوات في الـشرق ١٣٣٦ - ١٣٤١م وكتـب وصـف الأرض المقدسـة والطـرق المؤديـة إليهـا سـنة ١٣٥٠ م، وأهـداه إلى مطـران بادربورن رفيقــه في الســفر كتــب فــون ســوخم أخبــار رحلتــه بعــد اتمامهــا بعــشر سـنوات، فاعتـذر عـما قـد يقـع فيـه مـن الأخطـاء لأنـه يعتمـد عـلى فهمـه المتواضـع وذاكرتـه الضعيفـة، وهـو بالإضافـة إلى ذلـك، يحـذّر قـراءه مـن أن يحسـبوا أنـه رأى كل مـكان وصفـه أو زاره بنفسـه، إنمـا لخـص بعـض أنبائـه وأوصافـه ممـن سـبقه، ونقـل الروايـات التـي سـمعها مـن ثقـات النقلـة. ويتنـاول فـون سـوخم في الجـزء الأول مـن كتابـه «الطـرق المؤديـة إلى الأرض المقدســة»، فيصفهــا باختصــار ودقــة دون أن يغفــل أحدهــا - فالطريــق الـبري الهنغـاري الأناضـولي، والبحـري مـن البندقيـة أو مرسـيلية، والطريـق الأفريقــي الــبري - كلهـا مذكـورة.

وأما الجزء الثاني، فيمكن اعتباره قسمين: أولهما يشمل ذكر الأماكن المقدسة واحدا واحدا بالتفصيل وثانيهما يتناول فيه فون سوخم البلاد المقدسة وما جاورها من بلاد المشرق من الناحية الجغرافية والتاريخية والاجتماعية. فيتحدث عن الطوائف النصرانية المختلفة كاللاتينية والسريانية واليونانية والأرمنية والمارونية وغيرها، ويخصص جزءا من كتابه للتحدث عن الإسلام. لكنه يخلط بين التاريخ الحق والقصص والشائعات خلطا كبيرا، كأنه يدوّن كل ما يصل إلى سمعه. كما أنه يخطئ في فهم العلاقة بين الكنائس المختلفة والبابوية.

أما إسحق بن يوسف بن شلو فقد ولد في أراغون بإسبانيا. وفي سنة ١٣٣٣ م هاجر إلى القدس مع أسرته وأقام هناك. وفي سنة ١٣٣٤م بعث إلى أبيه وأصدقائه بكتاب فيه وصف مختصر للقدس وأتبعه بوصف مفصل للطرق التي تصل القدس بأمهات المدن الفلسطينية حتى أطراف البلاد في الشمال والجنوب. وقد اهتم اهتماما خاصا بأمرين أولهما اليهود في فلسطين، فأشار إلى الأماكن الموجودين فيها وأعمالهم. وثانيهما: علاقة المدن والقرى بالحوادث الوارد ذكرها في التوراة وأخبار أئمة اليهود ومشهوري رجالهم. يتحدث إسحق أولا عن أبواب القدس ثم يعدد الأبنية العجيبة في المدينة المقدسة، وهي في نظره: برج داود وقصر سليمان وقبر النبيّة هلدا وقبور الملوك وقصر الملكة هيلانة وباب حطة والباب الغربي.

ويعض هذه لم يكن قائما في زمن الكاتب، ولكنه أثر ذكره إحياء لتاريخ جماعته، مثل قصر سليمان، فإنه يقول عنه «إن مكانه اليوم تقام فيه

سـوق كبـيرة». والملكـة هيلانـة يقـول عنهـا إنهـا جـاءت القـدس واعتنقـت اليهوديـة (؟) وإن قصرهـا يقطنـه اليـوم القـاضي ومستشـاروه. ومـما يجـدر ذكـره بهـذه المناسـبة أننـا لا نجـد ذكـرا لقبـة الصخـرة أو المسـجد الأقـصى أو كنيسـة القيامـة فيـما كتبـه إسـحق عـن القـدس.

والجماعـة اليهوديـة في القـدس كانـت موضـع عنايـة إسـحق فقـال عنهـا: «والطائفـة اليهوديـة في القـدس مكونـة مـن آبـاء عائـلات جـاءت مـن كل أجـزاء العـالم خصوصـا مـن فرنسـة وزعـماء الطائفـة وكبـار حاخاميهـا جـاءوا مـن المملكـة الأخـيرة ... ويعيـش اليهـود هنـا بسـعادة وطمأنينـة، كل بحسـب وضعـه ومـوارده، وذلـك لأن الحكومـة عادلـة ... وكثـيرون مـن أفـراد الطائفـة يعملـون في الصناعـات كالدباغـة والخياطـة وصنـع الأحذيـة وغـير ذلـك، وغيرهـم يعملـون في التجـارة ولهـم حوانيـت أنيقـة، وبعضهـم منـصرف إلى الاشـتغال بالعلـوم كالطـب والفلـك والرياضيـات. لكـن الفريـق الأكـبر مـن علمائهـم يصلـون آنـاء الليـل بأطـراف النهـار في دراسـة الـشرع المقـدس والحكمـة القباليـة. وهـؤلاء تنفـق عليهـم الطائفـة».

والطـرق التـي يعالجهـا إسـحق سـبع هـي: (١) مـن القـدس إلى جنـوب فلسـطين، (٢) مـن القـدس إلى يافـا، (٣) مـن القـدس إلى نابلـس (٤) مـن القـدس إلى عـكاء، (٥) مـن القـدس إلى طبريـا وهـي تتمـة للطريـق الثالـث)، (٦) مـن طبريـا إلى صفـد (٧) مـن القـدس إلى بانيـاس (دان).

وكان بـين السـياح الإيطاليـين الذيـن هبطـوا الـشرق الأدنى في القـرن الرابـع عـشر ليونـاردو فرسـكو بالـدي الفلورنـسي الـذي قـام بالحـج إلى بيـت المقـدس سـنة ١٣٨٤ بـدأ رحلتـه مـع جماعـة مـن الفرنسـيين والبنادقـة

مـن البندقيـة فاتجهـوا رأسـا إلى الاسـكندرية حيـث حـلَّ ضيفـا في فنـدق كونتاديـنـي البندقـي. وهنـاك لقـي تجـارا مـن ايطاليـة وفرنسـة وقطالونيـة وغيرهـا، وانتقـل ليونـاردو مـع صحبـه إلى القاهـرة عـلى سـفينة نهريـة متبعـين في طريقهـم ترعـة الاسـكندرية (المحموديـة اليـوم؟)، ثـم ريـاح رشـيد مـن النيـل، ثـم النيـل نفسـه. وقـد رأى ليونـاردو أمـورا كثـيرة في مـصر أثـرت فيـه منهـا ثـروة الاسـكندرية والملاحـة النهريـة واتسـاع القاهـرة واسـتتباب الأمـن، حتـى إن النـاس يتنقلـون بـدون سـلاح عـلى خـلاف مـا اعتـاده القـوم في بـلاده.

ومـن القاهـرة سـافر ليونـاردو مـع قافلـة إلى سـيناء وعـرّج عـلى ديـر القديسـة كاترينـا ثـم إلى فلسـطين، وأخـيرا إلى بـيروت عائـدا إلى البندقيـة بطريـق قـبرص وكريـت. وبعـد ليونـاردو ببضـع سـنوات جـاء إلى الـشرق تومـاس سـوينبورن سـنة ١٣٩٢ الـذي دوّن رفيقـه تومـاس برغـز أخبـار رحلتـه والطريـق الـذي اتبعتـه هـذه الجماعـة طريـق ليونـاردو وجماعتـه، وليـس في أخبـار برغـز مـن جديـد. لكـن الكاتـب يُعنـى بذكـر مواعيـد السـفر وتاريخـه كـما أنـه يـدون نفقـات السـفرة فيعطينـا أسـعار الحاجيـات وأجـور الجـمارك التراجمـة ورسـوم

ونختـم بحثنـا عـن سـياح القـرن الرابـع عـشر بسـائح فرنـسي هـو أوجييـه (الثامـن) دانغلـور، جـاء أوجييـه إلى الـشرق سـنة ١٣٩٦م، وكان شـديد العنايـة بأسـفاره حتـى إنـه لا يكتفـي بذكـر اليـوم وتاريخـه، ولكنـه يعـين حتـى السـاعة التـي يصـل فيهـا بعـض الأماكـن أو يغادرهـا.

كانـت أول مدينـة سـورية هبطهـا أوجييـه هـي بـيروت، إذ وصلهـا في ٢٨ أيلـول (سـبتمبر) وقـضى في سـورية ثلاثـة أسـابيع أتـم في خلالهـا حجـه، ونـزل في وادي الأردن في نـزل بنـاه السـلطان لإيـواء الحجـاج والغربـاء. وبعـد زيارتـه للقـدس ذهـب إلى غـزة حيـث اسـتعد مـع جماعتـه لزيـارة جبـل سـيناء وديـر القديسـة كاترينـا. وفي الطريـق لقيتهـم قوافـل الحجـاج العائديـن مـن الحجـاز وكان عددهـم عـشرة آلاف.

وبعـد زيـارة الديـر اسـتأنف أوجييـه سـيره إلى مـصر فوصـل المطريـة في ٢٠ تشريـن الثـاني (نوفمـبر). وبعـد يومـين دخـل القاهـرة. وإذ يـترك صاحبنـا الأرض المقدسـة تفقـد أخبـار رحلتـه مـا فيهـا مـن الجفـاف وتظهـر فيهـا الحيـاة. فالقاهـرة المدينـة الكبـيرة الواسـعة فيهـا ١٢٠٠٠ مسـجد و٤٠٠٠٠ دكان البعـض منهـا لبيـع اللحـم المطهـو، وهـي كثـيرة النافـورات الجميلـة والميادين الفسـيحة ولهـا قلعـة شـماء. وحـاول أوجييـه أن يصـف الكنائـس القبطيـة القديمـة، لكنـه أخطـأ في هـذه الناحيـة فخلـط بينهـا. وسـار بعـد ذلـك مصعـدا في النيـل، وزار الأديـرة القبطيـة في الصحـراء الغربيـة، ثـم عـاد بنفـس الطريـق إلى القاهـرة ورحـل إلى الاسـكندرية. ويذكرنـا أوجييـه بملاحظـة ليونـاردو عـن كـثرة التجـار الأوروبيـين في الاسـكندرية. وقـد أعجـب أوجييـه بالمدينـة إعجابـا كبـيرا، ومـن الإسـكندرية رحـل مـع جماعتـه إلى قـبرص.

الرَّحّالـون في القرن الخامش عشر

•••

في سـنة ١٣٩٦م انكـسرت جيـوش أوروبـة النصرانيـة في نيكوبوليـس، وهـي الحملـة التـي أعدتهـا أوروبـة لدفـع خطـر العثمانيـين عنهـا، ولاسـترداد الـشرق العـربي وكان أثـر هـذا الانكسـار العسـكري كبـيرا. فقـام عقيـب ذلـك عـدد مـن الكتـاب يدعـون مـن جديـد إلى حملـة كبـيرة واسـعة النطـاق. ومـن هـؤلاء ثلاثـة نشـملهم في بحثنـا عـن الرحالـين لأنهـم سـاحوا في الـشرق العـربي وتركـوا لنـا صـورا عـن نواحـي الحيـاة السياسـية والحربيـة والاقتصاديـة والاجتماعيـة، فضـلا عـن دراسـة الخطـط التـي وضعوهـا للحملـة عـلى البـلاد. وهـؤلاء هـم غلـبرت لانـوي وبرترانـدون دي لا بروكييـه وعمانوئيـل بيلـوتي.

ولـد لانـوي في سـنة ١٣٨٦ م في أسرة نبيلـة. وفي سـنة ١٠٤١ م قـام سـيده بالحـج إلى الأراضي المقدسـة واصطحبـه معـه. أبحـرت الجماعـة مـن جنـوة إلى فلسـطين وزارت ديـر القديسـة كاترينـا في سـيناء والقاهـرة ورودس وقـبرص وتركيـة وبزنطيـة وعـاد الحجـاج إلى أوروبـة بعـد غيـاب سـنتين.

لكـن هـذه الزيـارة الأولى لم تكـف لانـوي وظـل يتحـين الفـرص للسـفر إلى الـشرق. وقـد أتيحـت لـه الفرصـة سـنة ١٤٢٠م لما عهـد إليـه ملـكا انكلـترا وفرنسـة بالسـفر إلى الـشرق لدراسـة أحوالـه وتقديـم تقريـر سـياسي مفصـل عنـه. فسـار في السـنة التاليـة إلى كافـا في شـبه جزيـرة القـرم ومنهـا أبحـر إلى القسـطنطينية فـرودس فكنديـا (في كريـت) فالإسـكندرية. ثـم سـار إلى رشـيد ومنهـا ركـب النيـل إلى القاهـرة واتخـذ هـذه مقـرا لـه زار منهـا سـيناء أولا

ثم ديري القديسين انطونيوس وبولس في الصحراء الغربية ثم أبحر في النيل إلى دمياط ومنها بحرا إلى فلسطين. وبعد زيارة الأراضي المقدسة عاد إلى البندقية بطريق رودس.

وقد روي أنباء سفرته في الجزء الأول من كتابه المسمى «أسفار وسفارات». وأما الجزء الثاني فقد خصصه لتعداد الأماكن المقدسة وآثار القديسين وما يدور حولها من قصص وأساطير. لكن الجزء الثالث من كتابه هو أهم أجزائه، إذ أفرده للحديث عن مصر وسورية. وعرض فيه لقوة المماليك السياسية والعسكرية ووصف المدن وأسوارها والقلاع والحصون والطرق. فالإسكندرية، وهي أول مدينة ذكرها، يعطينا عنها صورة مفصلة للأسوار والبيوت والميناءين والأبراج والحصون والشوارع والسكان والفنادق والتجار الأوروبيين ومثلها القاهرة وقلعتها. هذا مع العناية بالطريق النيلي من رشيد إلى القاهرة ثم يتناول لانوي الدولة المصرية المملوكية فيحدثنا عن قوة السلطان وتركيز السلطة في يده وكيفية وصوله إلى العرش وما يصاحب قتل السلطان أو اغتياله من اضطراب، وعن الجند وسبيل تجنيدهم وأصلهم ومواكبهم في الحرب والسلم وعلاقتهم بسكان مصر الذين لا يدخلون الجيش، ولكنهم يعملون في الأرض. ويهتم لانوي بأسلحة الجيش وعدته وخيوله ولا يغفل النيل وفيضانه وأثره في زراعة مصر ومصادر ثروة المماليك التجارية.

ثم ينقلنا لانوي إلى سورية ويطلعنا على مدنها الساحلية: يافا وعكا وصور وبيروت، ويعطينا وصفا مفصلا للقدس، ولكنه يقتصد في وصفه

دمشـق. وفي كل هـذا ينتبـه لانـوي لمواطـن القـوة والضعـف في هـذه المـدن، لأنـه ينظـر إليهـا مـن الناحيـة الحربيـة، لـيرى إمـكان فتحهـا.

ودي لابروكييـه جـاء الـشرق لأن فيليـب الطيـب دوق برغنـدي أوفـده في مهمـة سياسـية. وقـد أظهـر لنـا بروكييـه نفسـه الغرض مـن كتابـه في المقدمة بقولـه: «أنـه كتبـه ليجـذب قلـوب النـاس الراغبـين في رؤيـة العـالم ولـيرضي سـيده دوق برغنـدي وليقـدم المعلومـات اللازمـة عـن البـلاد الواقعـة وراء البحـار لمـن تحدثـه نفسـه مـن ملـوك النصرانيـة وأمرائهـا بفتـح القـدس.

أبحـر بروكييـه في ٨ أيـار (مايـو) ١٤٣٣م مـن البندقيـة إلى يافـا ومنهـا اتجـه إلى القـدس بطريـق الرملـة. وبعـد زيارتهـا ومـا حولهـا ذهـب إلى سـيناء وعـاد دون أن يـزور مـصر ولكنـه تنقـل في سـورية مفتـح الأذن والعـين فوصـف مدنهـا وصفـا مسـهبا: يافـا وعـكا وصـور وبـيروت ودمشـق وحلـب ونالـت الطـرق التـي تصـل المـدن السـورية بعضهـا ببعـض مـن عنايتـه مـا نالتـه المـدن نفسـها. ولفتـت نظـره ثـروة دمشـق وتجارتهـا وتجارهـا الأجانـب مـن الفرنسـيين والجنويـين.

ويغـادر بروكييـه سـورية إلى أرمينيـة ويجتـاز آسـية الصغـرى إلى بروصـة حيـث يقـضي عـشرة أيـام في ضيافـة تاجـر جنـوي أنزلـه في فنـدق فلورنـسي. وهـذا يتيـح لـه فرصـة لزيـارة المدينـة زيـارة وافيـة فيطلـع عـلى الكثـير مـن شـؤونها التجاريـة التـي منهـا بيـع الحريـر والجواهـر واللؤلـؤ والرقيـق. ثـم يجتـاز البوسـفور عائـدا إلى بـلاده بعـد أن يقـضي ردحـا مـن الزمـن في القسـطنطينية وفي أقطـار جنـوب شرقـي أوروبـة فيصـل فرنسـة سـنة ١٤٣٩

ويختتـم بروكييـه كتابـه بالحديـث عـن قـوة الأتـراك العسـكرية وخططهـم الحربيـة.

وسـلاحهم وعدتهـم ويعـرض لحملـة نيكوبوليـس ويحلـل أسـباب فشـلها. والنتيجـة التـي نصـل إليهـا هـي أن بروكييـه لم يشـجع عـلى حملـة ضـد الأتـراك، هـذا إذا لم نقـل إنـه نهـي عنهـا. لكـن ذلـك لم يعجـب فيليـب الـذي ثابـر عـلى تأليـب البلاطـين الفرنـسي والانكليـزي ضـد الأتـراك. ويعنـى بروكييـه بذكـر مـا يعـرض لـه مفصـلا، ولذلـك نحصـل منـه عـلى وصـف للمجتمـع الشرقـي في أوائـل القـرن الخامـس عـشر فهـو يحدثنـا عـن نزولـه في مينـاء يافـا ومرضـه في طريقـه إلى سـيناء وسـجنه في دمشـق وعـودة قافلـة الحـج مـن الحجـاز إلى دمشـق وشرائـه للثيـاب العربيـة اسـتعدادا لمرافقتـه لهـذه القافلـة إلى شـمال سـورية ويذكـر الممطـر مـن اللبـاد الـذي ابتاعـه في حـماة.

أمـا ثالـث الدعـاة بيلـوتي فقـد كان كريتـي الأصـل لكنـه قضى في الـشرق نحوا مـن خمـس وثلاثـين سـنة كان في أولهـا قنصـلا تجاريـا لجنـوة في الاسـكندرية ثـم التحـق بخدمـة البنادقـة. ولمـا انتـصر الأتـراك في معركـة نيكوبوليـس أرسـل الملـك العثـماني مئتـين مـن أسرى الأوروبيـين هديـة إلى السـلطان المـصري (سـيف الديـن برقـوق) وقـد رآهـم بيلـوتي وتحـدث إليهـم فأحزنـه ذلـك وأحفظـه عـلى الأتـراك. لذلـك لمـا رأى الفرصـة المناسـبة تقـدم بكتابـه ليرشـد رؤوس أوروبـة إلى الطريقـة العمليـة التـي يتمكنـون بهـا مـن الثـأر لنيكوبوليـس واسـترداد الأرض المقدسـة وبقيـة الـشرق.

يعالـج بيلـوتي الـشروط والصفـات الواجـب اجتماعهـا في قائـد الحملـة الصليبيـة، ثـم يشـير بوجـوب توجيـه الحملـة ضـد مـصر لا ضـد فلسـطين أولا، ليتسـنى للمحاربـين احتـلال الاسـكندرية ثـم القاهـرة، ومـن ثـم القضـاء عـلى الـرأس. لذلـك يصـف بيلـوتي الطريـق مـن الاسـكندرية إلى القاهـرة بإسـهاب. ولعلـه أراد أن يبعـث الطمأنينـة إلى نفـوس الأوروبيـين فأشـار إلى أمريـن يجعـلان احتـلال مـصر ميسـورا. الأول: حكومـة السـلطان السيئة. والثـاني: مـا قـد يقـوم بـين الأمـراء مـن الخصومـات والمذابـح. وذكـر بيلـوتي جنـد مـصر وقـدره بأنـه سـبعة أو ثمانيـة آلاف فـارس مـن المماليـك يملكـون نحـو عـشرة آلاف إلى خمسـة عـشر ألفـا مـن الإبـل والبغـال للحمـل ونحـو ألفـين مـن الخيـل، وأضـاف إلى ذلـك حـرس السـلطان لكنـه لم يذكـر عددهـم.

وبيلـوتي يـرى أنـه مـن الـضروري أن يلاطـف الأوروبيـون أهـل الـشرق متـى احتلـوا بلادهـم لأنـه اعتقـد أن ذلـك يحملهـم عـلى اعتنـاق النصرانيـة

ومـع أن الكتـاب الـذي بـين أيدينـا كتـاب دعايـة عسـكرية، فـإن فيـه مـن المعلومـات الاقتصاديـة مـا يجعلـه جليـل النفـع للباحـث في التاريـخ الاقتصـادي في تلـك العصـور. فهـو مـن هـذه الناحيـة تتمـة لمـا كتبـه مارينـو سـنودو.

ونحـن واجـدون بالإضافـة إلى هـؤلاء السـياح السياسـيين والدعـاة جماعـة مـن الرحالـين والحجـاج الذيـن قامـوا بزيـارة الـشرق عامـة وفلسـطين خاصـة بقصـد الحـج، ومـن هـؤلاء يوحنـا بولونـر، وبـيرو تفـور، ووليـم واي، وفيلكـس فابـري، وفـون بريتنبـاخ. كان يوحنـا بولونـر المانيـا عـلى مـا

يـرى طوبلـر وبولونيـا عـلى رأي الكونـت ريـان زار سـورية ١٤٢١ - ١٤٢٢م، ويلاحـظ سـتيوارت أن الأماكـن التـي رآهـا بولونـر تتفـق مـع الأماكـن التـي زارهـا فابـري بعـده بأكـثر مـن نصـف قـرن. ولعـل بولونـر أول سـائح رسـم خارطـة لـلأراضي المقدسـة قسـم فيهـا البـلاد إلى مربعـات كثـيرة العـدد.

لم يصـف بولونـر كنيسـة القيامـة بالقـدس مـع أنـه عنـي بالكنائـس، ولذلـك يعتقـد بعـض الباحثـين أن جـزءا مـما كتبـه قـد فقـد. وعـلى كل فليـس في الكتـاب معلومـات جغرافيـة أو اجتماعيـة تزيـد معرفتنـا بالبـلاد في ذلـك الوقـت. أمـا الكنائـس وأماكـن الزيـارة فمشروحـة مرتبـة، ولذلـك فـإن المـؤرخ الـذي يعنـى بهـذه الناحيـة يجـد عنـد بولونـر بعـض حاجتـه.

وبـيرو تفـور أسـباني، ولـد في قرطبـة حـول سـنة ١٤١٠م. والراجـح أنـه زار الـشرق بـين ١٤٣٥ و١٤٣٩م. وكان إبحـاره إلى فلسـطين مـن البندقيـة ونـزل في يافـا. ويحدثنـا تفـور أنـه زار الأماكـن المقدسـة عنـد النصـارى في القـدس ويصفهـا، لكنـه بالإضافـة إلى ذلـك تمكـن مـن الدخـول إلى المسـجد الأقـصى متخفيـا. ويعـود إلى يافـا ويبحـر إلى بـيروت ثـم إلى قـبرص فدميـاط ومنهـا إلى القاهـرة في النيـل. ويقيـم شـهرا في العاصمـة المصريـة فـيرى مـا فيهـا، ويـترك لنـا وصفـا للحيـاة اليوميـة في مـصر. ويمنحـه السـلطان اذنـا في زيـارة سـيناء ويصحبـه أحـد أعوانـه مـع ثلاثـة مـن الإبـل تحمـل حاجياتـه. ويـروي تفـور أنـه أثنـاء إقامتـه في ديـر القديسـة كاترينـا وصـل إلى الديـر نيكولـو دي كونتـي البندقـي عائـدا مـن الـشرق الأقـصى ومعـه متاجـر مـن جميـع الأصنـاف مـن التوابـل واللآلـئ والأحجـار الكريمـة والذهـب والعطـور والأقمشـة والببغـاوات والقطـط مـن الهنـد ... وقـد كانـت

الأحـمال كثـيرة حتـى إن تفـور أبى أن يذكـر عـدد الإبـل حتـى لا يتهـم بالمبالغـة. وتـدور بـين الاثنـين أحاديـث يظهـر منهـا تفـور رغبتـه في زيـارة الـشرق الأقـصى لكـن نيكولـو يقنعـه بالعـدول عـن ذلـك. ويرجـع الاثنـان معـا إلى القاهـرة ثـم يبـدأ تفـور سـفرة طويلـة عائـدا إلى إيطاليـة، فيمـر بالإسـكندرية ودميـاط وقـبرص ورودس والقسـطنطينية وادرنـة وطرابـزون وكافـا والبندقيـة. وقـد زار تفـور في أدرنـة بـلاط السـلطان العثـماني مـراد الثـاني ١٤٢١ - ١٤٥١م ووصـف جيـش السـلطان وعـرض للأتـراك فوفاهـم حقهـم إذ وصفهـم بالشـجاعة والأمانـة والإحسـان أمـا وليـم واي فإنكليـزي تخـرّج في اللاهـوت وعمـل في أكسـفورد. وفي سـنة لـه ملـك انكلـترا بالحـج، فقـام بزيـارة القـدس لأول مـرة في السـنة التاليـة ١٤٥٧م سـمع وفي سـنة ١٤٦٢م زارهـا للمـرة الثانيـة.

وليـس فيـما تركـه وأي مـن جديـد إذا نحـن نظرنـا في الناحيـة الجغرافيـة والسياسـية لكننـا عندمـا نتقـصى جهـات الحيـاة العامـة نـرى أن واي جاءنـا بالجيـد عـن أمـور ثلاثـة: أولهـا أنـه ذكـر أنـواع النقـد المسـتعمل في البـلاد التـي زارهـا وعلاقتهـا بعضهـا ببعـض وثانيهـا، أنـه أعطانـا أسـعار المـأكل. وثالثهـا، أنـه ذكـر المسـافات بـين مـدن أورويـة الرئيسـة. وقـد اضطـر واي إلى الاكتفـاء بزيـارة القـدس فلـم يـزر وادي الأردن وامتنـع عـن الذهـاب إلى مـصر أو بقيـة سـورية بسـبب مـا كان عليـه المماليـك مـن خصومـة وحـروب فيـما بينهـم وبسـبب هجـوم الأعـراب مـن الـشرق تـرك واي أخبـار رحلتــه إلى الأرض المقدســة كتــاب اســمه Itineraries of William Wey ذكـر فيـه الأماكـن المقدسـة بشـعر انكليـزي ثـم ذكرهـا منظومـة شـعرا لاتينيـا. وغـادر واي البندقيـة في المـرة الأولى في ١٨ أيـار (مايـو) فوصـل يافـا

في ١٨ حزيران (يونيو) وقضى في القدس المدة الواقعة بين ٢٤ حزيران و٢ تموز (يوليو). وكانت سفرته الثانية أطول مدة بين البندقية ويافا، ولكنها كانت في الصيف أيضا. وفي هذا الجزء من كتابه يذكر وأي الأماكن التي يمر عليها ذكرا عاديا لا معلومات فيه ولا صور للحياة.

ويتبع هذا الفصل بمجموعة من الكلمات اليونانية يذكرها لمصلحة المسافرين.

ويعرض واي لمسائل شغلته كثيرا في رحلته الثانية منها انقطاع النور المقدس وغير ذلك، لكنه لا يترك القدس إلا وقد حلها حلا يرضي نزعاته الروحية فيغادر المدينة قرير العين ويذكر الكاتب أسماء عدد من المدن والقرى في فلسطين والمسافات بينها.

ورسم واي خارطة لفلسطين تمتد من دمشق إلى بئر السبع ومن صيدا إلى غزة وضع فيها أسماء مدن ثم صوّر فيها المباني الكبيرة بالألوان وأضاف صورا لبعض الشخصيات التي لها بها علاقة تاريخية، ولبعض الحوادث المرتبطة بحوادث العهد الجديد. ففي كفركنا مثلا رسم الأجران.

لكن الرحالة الذي ترك لنا أخبارا عن الشرق العربي في القرن الخامس عشر من درجة تستحق العناية والتقدير، هو فيلكس فابري، راهب بألم بألمانية. زار فابري الشرق مرتين سنة ١٤٨٠ و١٤٨٣م، وبعد عودته من الزيارة الثانية استقر في ديره في ألم وكتب أخبار أسفاره ورحلاته بأمانة الراهب العالم، وتفصيل الرحالة القوي الملاحظة، ودقة الحريص على كل شاردة وواردة. ونقل أخبار ما لم ير من البلاد من مصادر وثق

بها ورحالين سابقين، مثل فون سوخم وبركارد. ومن ثم فإن الصورة التي يعطينا إياها عن الأرض المقدسة في آخر القرن الخامس عشر تكاد تكون كاملة. بدأ فابري وصحبه الرحلة من البندقية ونزلوا في يافا. وكانت سفرتهم مليئة بالأنباء المروعة عن تقدم أسطول محمد الثاني الفاتح في شرق البحر الأبيض المتوسط إلى رودس وما جاورها من الجزر مما أرعب المسافرين لكنه لم يحملهم على العودة. وفي هذه المرة اكتفى فابري برؤية الأرض المقدسة سنة ١٤٨٠ أما في سفرته الثانية سنة ١٤٨٣ - ١٤٨٤م فتنقل فابري في مصر وسورية. يبدأ أخباره بذكر ما يجب أن يكون عليه الحاج من المظهر اللائق به من حيث الثياب واللحية. وينقل لنا الاتفاقية التي عقدها الحجاج مع ربان السفينة البندقي، ثم يكتب مذكرات يومية عن كل ما يرى ويفعل من أول الرحلة إلى آخرها، فهو يصوّر أخطار البحر والحياة في السفينة وعلاقة الركاب بعضهم ببعض وأسباب التسلية وغير ذلك. فإذا وصل يافا صوّر لنا نزول القوم إلى البر. وفي فلسطين يحتل كل من الأماكن المقدسة مكانه في مذكرات فابري خصوصا ما كان في القدس أو حولها. وبعد أن يورد فابري خلاصة لتاريخ القدس يذكر الشعوب التي تقطن الأراضي ومذاهبها. وأقواله عن الإسلام أقرب إلى الصواب من أقوال كثيرين ممن سبقه، ولفابري ملاحظات نفيسة عن المماليك وحكمهم وعلاقتهم بالشعب. وبعد الفراغ من التنقل في الأرض المقدسة انتقل فابري وصحبه إلى دير سيناء ثم إلى القاهرة أكبر مدينة في الدنيا، ومنها إلى الاسكندرية بالنيل. وكانت هذه آخر مدينة شرقية زارها فابري، فقد عاد منها إلى أوروبة.

ونـرى أنـه مـن الواجـب علينـا أن نشـير إلى أن فابـري كان لا يؤمـن بإعـداد حملـة لاسـترداد الأرض المقـدس. لا يعنـي النصـارى (في الغـرب) اليـوم بحكـم المسـلمين في القـدس إلا قليـلا. وكل مـا يهمنـا هـو أن يسـمح لنـا بحريـة الوصـول إلى كنيسـة القـبر المقـدس، دون أن نخـشى شـيئا أو نزعـج أو نحمـل عـلى دفـع المـال الكثـير». ويلاحـظ الدكتـور عطيـة أن هـذه الفكـرة كانـت سـائدة يومهـا في أوروبـة، وأنهـا تبـين اتجاهـا جديـدا في الخصومـة الطويلـة بـين الـشرق والغـرب.

وثمـة رحـالان آخـران زارا الـشرق العـربي في أواخـر القـرن الخامـس عـشر هـما ميشـولم بـن مناحـم وعوبديـا جاريـه.

زار ميشـولم الـشرق العـربي في سـنة ١٤٨١م. وصـل الاسـكندرية مـن رودس يـوم الأربعـاء في ٦ حزيـران (يونيـو) وغـادر بـيروت إلى إيطاليـة في ٩ أيلـول (سـبتمبر)، فيكـون قـد قـضى فصـل الصيـف بكاملـه متنقـلا بـين الإسـكندرية والقاهـرة وغـزة والخليـل والقـدس ويافـا وبـيروت ودمشـق وميشـولم دقيـق الملاحظـة شـديد العنايـة بالتعـرف إلى الأشـخاص والأماكـن، يصـف ثيـاب النـاس وأكلهـم وعاداتهـم وعقائدهـم ومدنهـم وأسـوارها وأسـواقها وشـوارعها. وتمتـاز أخبـاره بالصبغـة الشـخصية التـي تكسـو حركاتـه وتنقلاتـه، فهـو يصـف حفـلات القاهـرة وكيـف تجنـب الـشرب فيهـا. ويوضـح كيـف وصلـت إليـه المعلومـات عـن عـدد سـكان مـصر القديمـة. ويلفـت نظـر بنـي قومـه إلى الفائـدة التـي تعـود عليهـم مـن التزيـي بـزي تجـار المسـلمين مـع القوافـل الكبـيرة. ويقـص علينـا أخبـار المؤامـرة التـي دبـرت ضـده وضـد رفيقـه بـين الخليـل والقـدس. ويحدثنـا عـن الآلام التـي

كانت تنتابه والأوجاع التي أحس بها. ويروي كيف تخفى بزي تجار الافرنج حتى يسمح له بالسفر في السفينة بين يافا وبيروت وكيف صانع الأشراف الألمان والفرنسيين فيها.

وقد أشار عوبديا إلى ميشولم بقوله عنه أنه تاجر. ولعل هذه الإشارة ترجع إلى رحلة ثانية لميشولم.

جاء عوبديا إلى القدس سنة ١٤٨٧م واستقر بها إلى وفاته سنة ١٥٠٠ م. كتب الرسالة الأولى إلى أبيه ووصف فيها سفره من ايطالية (أبحر من نابولي) إلى الاسكندرية بطريق جزر الأرخبيل اليوناني، كما وصف الاسكندرية والقاهرة والحياة اليومية فيهما. ثم انتقل إلى القدس بطريق الصالحية والعريش وغزة والخليل وبيت لحم وتحدث عن اليهود في الأماكن المختلفة وبيت المقدس بشكل خاص وعن الضرائب وغير ذلك. وكان تاريخ الرسالة الأولى ٨ أيلول (سبتمبر) ١٤٨٨م. ثم كتب رسالتين أخريين واحدة إلى أخيه وأخرى إلى تاجر عظيم اسمه عمانوئيل شاي، كان عوبديا قد أودع عنده أمواله ليتاجر له بها ويبعث إليه بأرباحها. ورسالة عويديا إلى أخيه طريفة من حيث إنه يخبره فيها أنه تلقى مئة دوكة من عمانوئيل، دفع منها عشرا للسفينة التي استقلها من إيطاليا إلى القدس وعاش هو بالتسعين الباقية مقتنعا. ومعنى هذا أن عوبديا كان يعيش على حوالي سبعة عشر جنيها في السنة.

القسم الثَّاني

صور للحياة في الشَّرق العربيّ مقتبسة من رحَّالي العصور الوسطى

الـشَّرق العربي عند المقدسي وناصري خسرو

•••

المقدسي

الشـــام: والتجـارات بـه مفيـدة يرتفـع مـن فلسـطين الزيـت والقطـين والزبيـب والخرنـوب والملاحـم والصابـون والفـوط - ومـن بيـت المقـدس الجـين والقطـن وزبيـب العينـوني والـدوري والتفـاح وقضـم قريـش الـذي لا نظـير لـه والمرايـا وقـدور القناديـل والأبـر - ومـن أريحـا نيـل غايـة - ومـن صغـر [زغـر] وبيسـان النيـل والتمـور - ومـن عـمان الحبـوب والخرفـان والعسـل - ومـن طبريـة شـقاق المطـارح والكاغـد وبـز - ومـن قـدس ثيـاب المنـيرة والبلعيسـية والحبـال - ومـن صـور السـكر والخـرز والزجـاج المخـروط والمعمـولات - ومـن مـوآب قلـوب اللـوز - ومـن بيسـان الـرز - ومـن دمشـق المعصـور والبلعيـسي وديبـاج ودهـن بنفسـج دون الصفريـات والكاغـد والجـوز والقطـين والزبيـب - ومـن حلـب القطـن والثيـاب والاشـنان والمغـرة - ومـن يعليـك الملابـن. ولا نظـير لقطـين وزيـت الانفـاق، وحـواري وميـازر الرملـة، ولا لمعنقـة وقضـم قريـش وعينـوني ودوري وتريـاق وتـرذوغ وسـبح بيـت المقـدس (المقـدسي ١٨٠ - ١٨١).

اليمـن: عـدن بلـد جليـل عامـر أهـل حصـين خفيـف، دهليـز الصـين وفرضـة اليمـن وخزانـة المغـرب ومعـدن، التجـارات، كثـير القصـور مبـارك عـلى مـن دخلـه مـتر لمـن سـكنه مسـاجد حسـان ومعايـش واسـعة (المقـدسي ٨٥)

ولمـا ركبـت بحـر اليمـن اتفـق اجتماعـي مـع أبي عـلي الحافـظ المـروزي في الجلبـة فلـما تأكـدت المعرفـة بيننـا قـال لي قـد شـغلت واللـه قلبـي قلـت

بماذا قال أراك رجلا على طريق حسنة تحب الخير وأهله وترغب في جمع العلوم وقد قصدت بلادا قد غرت كثيرا من الناس وصدتهم عن طريق الورع والقناعة وأخشى إن أنت دخلت عدن فسمعت أن رجلا ذهب بألف درهم فرجع بألف دينار وآخر دخل بمائة فرجع بخمسمائة ... طلبت نفسك التكاثر ، قلت أرجو أن يعصم الله ... فلما دخلتها وسمعت أكثر مما قال غرني والله ما غرّ القوم وعملت على الذهاب إلى ناحية الزنج وآتيت ما ينبغي أن يشترى وتقدمت فيه إلى الوكلاء فيرد الله عزّ اسمه ذلك على قلبي بموت شريك كنت عاقدته وكسرت نفسي بذكر الموت وما بعده (المقدسي ٩٧).

وأكثر ما يوقدون مصابيحهم بالصيفة وهو دهن السمك يحمل من مهرة ونورتهم سوداء مثل الماخالقة. وباليمن يلزقون الدروج ويبطنون الدفاتر بالنشا (المقدسي ١٠٠).

المكوس: والضرائب والمكوس يؤخذ بجدة من كل حمل حنطة نصف دينار وكيل من فرد الزاملة وعلى سقط ثياب الشطوي ثلاث (كذا) دنانير ومن سفط الدبيقي ديناران وحمل الصوف ديناران (المقدسي ١٠٤)

أهل بغداد: من رسومهم التجمل والتطليس يكثرون التنعل وتسطيل العمائم ولبس الشروب. أقل ما يقورون الطيالسة. وإذا كان بوقت حمل التمر الحديث إلى واسط نظر أول سفينة تصل فيزين لها ذلك البيع الشط إلى دكانه بالأنماط والستور. وللهراسين مواضع فوق دكاكينهم فيها الحصر والموائد والمري وخدام وطشوت وأباريق واشنان

فـإذا انحـدر الرجـل دفـع دائقـا. وإذا كان أول البنفسـج داروا بـه في الأسـواق وتجملـوا عليـه، وعـلى أبـواب الجامـع ميـاضيء بالكـرى (المقـدسي ١٢٩)

مـصر كما رآها ناصري خسرو

القاهـرة مدينـة كبـيرة ... وأقـدر أن بهـا مـا لا يقـل عـن عشريـن ألـف حانـوت كلهـا ملـك للخليفـة ومنهـا عـدد كبـير يؤجـر واحدهـا بمقـدار عـشرة دنانـير مغربيـة بالشـهر وليـس فيهـا مـا يؤجـر بأقـل مـن دينارـين وفنادقها وحماماتها وسـائر أبنيتهـا العامـة كثيرة بحيـث لا يمكـن تعدادهـا وكلهـا ملـك للسـلطان... وقـد روي لي أن بالقاهـرة ومـصر (أي الفسـطاط عشريـن ألـف منـزل يملكهـا الخليفـة ويؤجرهـا مشـاهرة ... وقـصره يتوسـط القاهـرة .. (نـاصري خـسرو ١٢٧). وقـد قـدر المهندسـون سعته بقـدر مدينـة ميافارقـين كلهـا ... وفيـه مـن الحـراس ألـف رجـل ... ومـن الخـدم ١٢٠٠٠ ... ويؤكـد البعـض أن سـكانه يبلغـون ٢٠ نسـمة (نـاصري خـسرو ١٢٨)

ومـاء الـشرب يؤخـذ مـن النيـل ويحملـه السـقاؤون عـلى جـمال يبلـغ عددهـا اثنـين وخمسـين ألفـا ... ويحمـل الرجـال القـرب حيـث يتعـذر عـلى الجـمال الدخـول... وتفصـل المنـازل بعضهـا عـن بعـض داخـل المدينـة بسـاتين وحدائـق غنـاء. وكان أيـام إقامتـي بالقاهـرة أن أجـر المنـزل العـادي ذي الأربـع طبقـات بأحـد عـشر دينـارا بالشـهر والمنـزل الـذي أقمـت فيـه ثـلاث طبقـات منـه مأهولـة، فطلـب مني صاحبـه خمسـة دنانـير مغربيـة في الشـهر أجـرة الطابـق الرابـع (نـاصري خـسرو ١٣٢)

وتبعـد مـصر أقـل مـن ميـل عـن القاهـرة، في اتجـاه الجنـوب والأرض بينهـما مغطـاة بالحدائـق التـي يغمرهـا مـاء النيـل في الصيـف فصـل الفيضـان،

عدا حديقة الخليفة فإنها تقع على مكان مرتفع (ناصري خسرو ١٣٦).

الفسطاط: في مصر (الفسطاط) بيوت من أربعة عشر دورا وبعضها من سبع طبقات. وقد سمعت عمن يوثق به أن ثمة رجلا أنشأ حديقة على سطح بيت ذي سبعة أدوار ... وغرس فيها البرتقال الحلو والموز وغيرهما من الأشجار المثمرة والرياحين والزهور ... وفي مصر دور كبيرة للتأجير تتسع الواحدة منها لثلثمائة وخمسين شخصا. وبعض أسواق مصر وشوارعها تضاء فيها المصابيح باستمرار وذلك لأنها مسقوفة فلا يصل إليها نور الشمس (ناصري خسرو ١٤٦).

ينتقل التجار والسماسرة في مصر بين البيت والسوق على حمر ذات سروج جميلة، يرى المرء عددا كبيرا منها عند مداخل الشوارع والأسواق. وأجرة الحمار قليلة، وفي مصر نحو من خمسين ألف حمار للتأجير. وركوب الخيل مقصور على الجند والأشخاص المنتمين إلى الجيش (ناصري خسرو ١٥٤)

ثروة مصر: وتصنع في مصر كل أنواع القيشاني فتصنع المزهريات والكؤوس والصحون وغيرها من الأوعية وتزخرف هذه بألوان تشبه تلك التي تلون بها أقمشة الابوقلمون، بحيث تتغير انعكاساتها بتغير المكان الموضوعة فيه المزهرية. وتصنع فيها كؤوس شفافة صافية كأنها الزمرد وتباع بالدرهم (وزنا) بحيث يبلغ ثمن الدرهم الواحد منها على ما روى لي، الثقة ثلاثة دنانير مغربية (ناصري خسرو ١٥١)

والبيع في مصر بالسعر المحدد، فإذا غش بائع شهر به على جمل.

والبائع، سواء في ذلك البقال أو العطار أو بائع الخردوات، يعنى بوضوح ما يبيعه في الوعاء المناسب له سواء أكان ذلك كأسا أو آنية أو ورقة فلا يضطر المشتري إلى تحضير الوعاء.

ويستخرج من بذر الفجل واللفت زيت يسمى الزيت الحار والسمسم ليس كثيرا في مصر وزيته غال والتجارة بزيت الزيتون مرابحها كبيرة (ناصري خسرو ١٥٣) رأيت في مصر خانا اسمه دار الوزير تقوم فيه تجارة القصب. ففي الطبقة السفلي منه الخياطون وفي الطبقة العليا العمال، فسألت الأمين عليه عن أجرته فقال إنها كانت عشرين ألف دينار في السنة لكنها الآن اثنا عشر ألفا لأن جزءا منه متهدم. وقد أكد لي العارفون أن بمصر عشرة خانات بعضها مثل هذا وبعضها أكبر منه (ناصري خسرو ١٥٦).

كان ابن سعيد وأخوه من كبار الأغنياء، بحيث إن ثروتهم لا يعلمها إلا الله، وقد أن ابن سعيد عمل على سطح داره حديقة فيها ثلاثمئة أصيص من الفضة غرس روي في كل منها شجرة مثمرة (ناصري خسرو ١٦٠).

لست أعرف بلدا آخر يستمتع بالطمأنينة على نحو ما تستمتع به بلاد مصر. رأيت نصرانيا من كبار المثرين في مصر، لا يعرف أحد ما له من السفن ولا يحصي أرزاقه أو أملاكه. دعاه الوزير مرة إليه وسأله عن كمية القمح التي يمكنه بيعها أو هبتها للسكان، لأن المحصول كان رديئا، وقد أهم الخليفة ما يعانيه شعبه من الفاقة. فأجاب الرجل بأنه عنده من القمح ما يكفي مدينة مصر ست سنوات. وعدد سكان

مـصر كان عندهـا خمسـة أضعـاف سـكان نيسـابور). ومـع ذلـك فلـم يخـش الرجـل عـلى ثروتـه ولم يخـف مصادرتهـا لأنـه مطمـئن إلى عـدل الخليفـة ووزيـره (نـاصري خـسرو ١٥٥)

الجوامـع: تقـام صـلاة الجمعـة في القاهـرة في أربعـة جوامـع الأول: الجامـع الأزهـر، والثـاني: جامـع النـور، والثالـث: جامـع الحاكـم، والرابـع: جامـع المعـز (نـاصري خـسرو ١٣٤). وتنفتـح أبـواب الجامـع (جامـع عمـر) عـلى الأسـواق... وفي سـاحة الجامـع يجلـس الأسـاتذة والمقرئـون باسـتمرار. هنـا مجتمـع أهـل المدينـة الكبـيرة، وقلـما يـرى فيهـا أقـل مـن خمسـة آلاف رجـل بـين طالـب علـم وغريـب وكاتـب عـام يقـوم بكتابـة رسـائل الصرافـين والعقـود وغيرهـا ... (نـاصري خـسرو ١٤٨)

ويعقـد قـاضي القضـاة مجلـس القضـاء في هـذا الجامـع ... وإلى جهـة الشـمال مـن المسـجد يوجـد سـوق القناديـل التـي ليـس لهـا مثيـل معـروف في قطـر آخـر. فيهـا يجـد المـرء التحـف النـادرة والثمينـة التـي تحمـل إليهـا مـن أصقـاع العـالم كلـه. رأيـت فيهـا صناديـق وأمشـاطا وأيـدي للسـكاكين مصنوعـة مـن الصـدف ولاحظـت أشـياء فنيـة مصنوعـة مـن الصخـر البلـوري، ويـؤتى بمادتـه الآن مـن بحـر القلـزم وكانـت قبـل مـن واردات المغـرب. ومـا يـأتي منـه مـن القلـزم أنقـى وأصفـى. وثمـة العـاج الآتي مـن زنجبـار ويبلـغ وزن النـاب الواحـد مـا يزيـد عـن مئتـي مـن. ويحمـل مـن الحبشـة جلـد حيـوان يشـبه جلـد الفهـد تصنـع منـه زخـارف للأرديـة، كـما تحمـل الطيـور الأليفـة الجميلـة التـي يتزيـن بريشـها (نـاصري خـسرو ١٤٨).
(وصـف مدينـة القاهـرة في سـفرنامة، الترجمـة العربيـة، ص ٨٦ - ١٠٦).

موكب جبر الخليج: وفي هذا اليوم (يوم جبر الخليج) تسير كل أجناد الخليفة كل فرقة على حدة.

فأولها كتامة التي جاءت من القيروان مع المعز لدين الله وعددها عشرون ألفا من الفرسان والثانية باتله وهم مغربيون استقروا في مصر قبل أيام المعز لدين الله. ويبلغ عددهم خمسة عشر ألف فارس ويأتي بعد ذلك المصامدة وهم سود وعددهم على ما أكد لي الثقة، عشرون ألفا، والمشارقة من الترك أو الفرس ... عددهم عشرة آلاف ولهم هيئة فخمة ... ثم يأتي عبيد الشراء، وهم الرقيق المشري في السوق ويقدر عددهم بثلاثين ألفا ... وثمة فرقة أخرى من بدو الحجاز مؤلفة من خمسين ألفا من حملة الرماح، وجماعة الاستاذين يؤلفون فرقة عددها ثلاثون ألف رجل وهم من الرقيق الأسود والأبيض ويقومون بخدمات منوعة وهناك عشرة آلاف هم خدمة القصر وثلاثون ألفا من الزنج (ناصري خسرو.١٣٨)

ناصري خسرو في بلاد العرب

الحياة في فلج: تقع فلج في وسط الصحراء... ثمرها لذيذ وكثير ... يتعامل أهلها بالدينار النيسابوري .. الذهب أقمنا بها أربعة شهور أهلها جياع... عراة تغمرهم جهالة فاضحة. يذهبون إلى الجامع للصلاة مسلحين بالسيف والترس. لا يبتاعون كتبا البتة نزلنا بالجامع ... وقد زينت لهم المحراب لقاء مئة من من التمر (ناصري خسرو ٢٢١).

الحسا: لأمير الحسا ثلاثون ألف عبد حبشي يعملون في الزراعة والبستنة والسكان لا يدفعون ضريبة ولا عشرا. وإذا أعسر أحدهم أقرض ما

يحتاجه ليتمكن من تدبير شأنه. ويعيد المدين المبلغ الأصلي، أي رأس المال فقط... والغريب عند وصوله يعطى مبلغا من المال يستعين به على قضاء حاجته، ومتى ابتاع مواده وعدة صناعته، يعيد المبلغ الأصلي فقط على الطريقة التي يرغب فيها ... وإذا تهدمت دار أو مطحنة ولم يكن لدى صاحبها ما يصلحها به خصص الحكام بعض عبيدهم لإصلاح ذلك، دون تكليف المالك دفع شيء أبدا. والمطاحن الخاصة بالحكومة في الحسا يطحن الناس فيها قمحهم مجانا.

وتصنع في الحسا الفوط الجميلة وتحمل إلى البصرة وغيرها. ولا يشرب أهلها الخمر أبدا (ناصري خسرو (٢٢٧ - ٢٢٨). (سفرنامة، الترجمة العربية، ص ١٢٠ - ١٢٤ و ١٣٧ - ١٤٥).

الـشَّرق العربي في القرن الثَّاني عشر

•••

مصر

الاســكندرية: أولـه يـوم الأحـد ثـاني يـوم نزولنـا بالإسـكندرية، فمـن أول مـا شـاهدنا فيهـا يـوم نزولنـا بـأن طلـع أمنـاء إلى المركـب مـن قبـل السـلطان بهـا لتقييـد جميـع مـا جلـب فيـه، فاسـتحضر جميـع مـن كان فيـه مـن المسـلمين واحـداً واحـداً وكتبـت أسـماؤهم وصفاتهـم وأسـماء بلادهـم وسـئل كل واحـد عـما لديـه مـن سـلع أو نـاض ليـؤدي زكاة ذلـك كلـه، دون أن يبحـث عـما حـال عليـه الحـول مـن ذلـك أو مـا لم يحـل. وكان أكثرهـم متشـخصين لأداء الفريضـة لم يسـتصحبوا سـوى زاد طريقهـم فلزمـوا أداء زكاة ذلـك دون أن يسـأل هـل حـال عليـه حـول أم لا. واسـتنزل أحمـد بـن حسـان منـا ليسـأل عـن أنبـاء المغـرب وسـلع المركـب فطيـف بـه مرقبـاً عـلى السـلطان أولاً ثـم عـلى القـاضي ثـم عـلى أهـل الديـوان ثـم عـلى جماعـة مـن حاشـية السـلطان، وفي كل يسـتفهم ثـم يقيـد قولـه فخـلي سـبيله وأمـر المسـلمون بتنزيـل أسـبابهم ومـا فضـل مـن أزودتهـم. وعـلى سـاحل البحـر أعـوان يتوكلـون بهـم وحمـل جميـع مـا أنزلـوه إلى الديـوان فاسـتدعوا واحـداً واحـداً وأحـضر مـا لـكل واحـد مـن الأسـباب والديـوان قـد غـص بالزحـام، فوقـع التفتيـش لجميـع الأسـباب مـا دق منهـا ومـا جـل. واختلـط بعضهـم ببعـض وأدخلـت الأيـدي إلى أوسـاطهم بحثـاً عـما عـسى أن يكـون فيهـا ثـم اسـتحلفوا بعـد ذلـك هـل عندهـم مـا وجـدوا لهـم أم لا. وفي أثنـاء ذلـك ذهـب كثـير مـن أسـباب النـاس لاختـلاط الأيـدي وهـذه

لا محال من الأمور الملبس فيها على السلطان الكبير المعروف بصلاح الدين ولو علم بذلك على ما يؤثر عنه من العدل وإيثار الرفق لأزال ذلك (ابن جبير ٣٩ - ٤٠).

والمدينة تجارية، وأسواقها تتسع لجميع الأمم فيأتيها التجار من بلنسية وتسكانيا ولومبارديا وابوليا وامالفي وصقلية وقطالونيا واسبانيا والمانيا وسكسونيا والدنيمرك وانكلترا وفلندرة وفرنسة ونورمانديا وبرغنديا وجنوة وبيزا وغسقونيا ونافار. كذلك يأتيها تجار المسلمين من الأندلس وأفريقية وبلاد العرب كما يصل إليها قوم من الهند والحبش والنوبة واليمن والعراق. وتستورد من الهند جميع أنواع التوابل التي يبتاعها التجار الأوروبيون. ولكل أمة في المدينة فندقها الخاص بها (بنيامين ١٢٢-٣).

ومن الغريب أيضاً في أحوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار في جميع أحوالهم، وهو أكثر بلاد الله مساجد حتى أن تقدير الناس لها يطفف فمنهم المكثر والمقلل، فالمكثر ينتهي في تقديره إلى اثني عشر ألف مسجد والمقلل ما دون ذلك لا ينضبط. فمنهم من يقول ثمانية آلاف ومنهم من يقول غير ذلك. وبالجملة فهي كثيرة جداً تكون منها الأربعة والخمسة في موضع وربما كانت مركبة وكلها بأئمة مرتبين من قبل السلطان فمنهم من له الخمسة دنانير مصرية في الشهر وهي عشرة مؤمنية (ابن جبير ٤٣).

ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد، يفدون من

الأقطـار النائيـة، فيلقـى كل واحـد منهـم مسـكناً يـأوي إليـه ومدرسـاً يعلمـه الفـن الـذي يريـد تعليمـه وإجـراء يقـوم بـه في أحوالـه. واتسـع اعتنـاء السـلطان بهـؤلاء الغربـاء الطارئـين حتـى أمـر بتعيـين حمامـات جميـع يسـتحمون فيهـا متـى احتاجـوا إلى ذلـك، ونصـب لهـم مارسـتاناً لعـلاج مـن مـرض منهـم، ووكل بهـم أطبـاء يتفقـدون أحوالهـم، وتحـت أيديهـم خـدام يأمرونهـم بالنظـر في مصالحهـم التـي يشـيرون بهـا مـن عـلاج وغـذاء. وقـد رتـب أيضـاً فيـه أقـوام برسـم الزيـارة للمـرضي الذيـن يتنزهـون عـن الوصـول للمارسـتان المذكـور مـن الغربـاء خاصـة وينهـون إلى الأطبـاء أحوالهـم ليتكفلـوا بمعالجتهـم. ومـن أشرف هـذه المقاصـد أيضـاً أن السـلطان عـين لأبنـاء السـبيل مـن المغاربـة خبزتـين لـكل إنسـان في كل مـا بلغـوا ونصـب لتفريـق ذلـك كل يـوم انسـاناً أمينـاً مـن قبلـه فقـد ينتهـي إلى ألفـي خبـزة أو أزيـد، بحسـب القلـة والكـثرة (ابـن جبـير ٤١).

دلتـا مـصر: وضفـاف فـروع النيـل الأربعـة تقـوم عليهـا المـدن والقـرى والمـزارع ويكـثر تنقـل المسـافرين فيهـا في الـبر والنهـر. والحـق أنـه لا يوجـد عـلى سـطح البسـيطة مـكان آخـر يزدحـم فيـه السـكان وتسـتغل فيـه الأرض اسـتغلالاً تامـاً مثـل مـصر، هـذا عـلى اتسـاع أرضهـا وكـثرة مـوارد الـثروة فيهـا (بنيامـين ١٢١).

القاهـرة: المارسـتان الـذي بمدينـة القاهـرة وهـو قـصر مـن القصـور الرائقـة حسـناً واتسـاعاً أبـرزه السـلطان لهـذه الفضيلـة تأجـراً أو احتسـاباً، وعـين قيـماً لـه مـن أهـل المعرفـة، ووضـع لديـه خزائـن العقاقـير ومكنـه مـن اسـتعمال الأشربـة وإقامتهـا عـلى اختـلاف أنواعهـا ووضعـت في مقاصر

ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسي. وبين يدي ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية فيقابلون من الأغذية والأشربة ما يليق بهم وبإزاء هذا الموضع، موضع مقتطع للنساء المرضى ولهنَّ من يكفلهنَّ. ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت محابس للمجانين، ولهم أيضاً من يتفقد في كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها والسلطان يتطلع لهذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد (ابن جبير ٥١)

محو المكس: ومن آثاره (أي صلاح الدين) التي أبقاها ذكراً جميلاً للدين والدنيا إزالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيديين فكان الحجاج يلاقون من الضغط في استئذانها عنتاً مجحفاً ويسلبون فيها خطة خسف باهظة، وربما ورد منهم من لا فضل لديه على نفقته أو لا نفقة عنده فيلزم أداء الضريبة المعلومة. وكان سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية، التي هي خمسة عشر ديناراً مؤمنية، على كل رأس ويعجز عن ذلك فيتناول بأليم العذاب بعيذاب فكانت كاسمها مفتوحة العين. وربما اخترع له من أنواع العذاب التعليق من الاثنين أو غير ذلك من الأمور الشنيعة نعوذ بالله من سوء قدره. وكان بجدة أمثال هذا التنكيل وأضعافه لمن لم يؤد مكسه، بعيذاب ووصل اسمه غير معلم عليه علامة الأداء. فمحي هذا السلطان هذا الرسم اللعين ودفع عوضاً عنه ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها وعين مجبى موضع معين بأسره لذلك، وتكفل بتوصيل جميع ذلك إلى الحجاز (ابن جبير ٥٥).

التجارة في مصر: ورمنا في هذا الطريق إحصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن لنا، ولا سيما القوافل العيذابية المتحملة سلع الهند الواصلة إلى اليمن ثم من اليمن إلى عيذاب. وأكثر ما شاهدنا من ذلك أحمال الفلفل. فلقد خيل إلينا لكثرته أنه يوازي التراب قيمة. ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء أنك تلتقي بقارعة الطريق احمال الفلفل والقرفة وغيرها من السلع مطروحة لا حارس لها تترك بهذه السبيل إما لإعياء الإبل الحاملة لها أو غير ذلك من الاعذار. وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات على كثرة المار عليها من أطوار الناس ابن جبير ٦٧)

تجارة البحر الأحمر: عيذاب وهي مدينة على ساحل بحر جدة غير مسورة أكثر بيوتها اخصاص وفيها الآن بناء مستحدث بالجص وهي من أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائداً إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة. وهي في صحراء لا نبات فيها ولا يؤكل فيها شيء إلا مجلوب. لكن أهلها، بسبب الحجاج، تحت مرفق كثير ولا سيما مع الحاج لأن لهم على كل حمل طعام يجلبونه ضريبة معلومة خفيفة المؤونة، بالإضافة إلى الوظائف المكوسية والتي كانت قبل اليوم التي ذكرنا رفع صلاح الدين لها ولهم أيضاً من المرافق من الحاج اكراء الجلاب منهم وهي المراكب فيجتمع لهم في ذلك مال كثير في حملهم إلى جدة وردهم وقت انفضاضهم من أداء الفريضة وما من أهلها ذوي اليسار إلا من له الجلبة والجلبتان فهي تعود عليهم برزق واسع (ابن جبير ٦٩).

والجلاب التي يصرفونها في هذا البحر الفرعوني ملفقة الإنشاء لا يستعمل فيها مسمار البتة، إنما هي مخيطة بأمراس من القنبار، وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه إلى أن يتخيط، ويقتلون منه أمراساً يخيطون بها المراكب. ويخللونها بدسر من عيدان النخل فإذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصنعة سقوها بالسمن أو بدهن الخروج أو بدهن القرش وهو أحسنها ومقصدهم في دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر. ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسماري وعود هذه الجلاب مجلوب من الهند واليمن كذلك القنبار المذكور، ومن أعجب أمر هذه الجلاب أن شرعها منسوجة من خوص شجر المقل فمجموعه يتناسب في اختلال البنية ووهنها (ابن جبير ٧٠).

بلاد الشام

القدس: يغلب على شوارعها انها مبلطة بألواح كبيرة من الحجارة وأنها مسقوفة بعقود حجرية فيها نوافذ يدخل منها النور وبيوتها مبنية من الحجر الجميل النقش، وأسطحتها مستوية، ليست كأسطحة بيوتنا المنتهية بمخروط ويجمع السكان ماء المطر في آبار لأنه لا يوجد أي ماء آخر في بلدهم والخشب غالي الثمن في بلادهم لبعد مورده - لبنان - عنهم (ثيودوريتش ٥)

بالقرب من كنيسة يوحنا المعمدان يقوم مستشفى يقيم فيه عدد كبير من الرجال والنساء المرضى، وينالون العناية التي تكلف نفقات باهظة. وقد بلغني، لما كنت هناك. أن عدد المرضى أولئك بلغ الألفين،

وقد يبلغ عدد الموتى منهم الخمسين في اليوم الواحد ... وقد يعالج في العيادة الخارجية مثل عدد المرضى المقيمين في المستشفى هذا فضلاً عن أعمال الاحسان التي لا تقدر إذ يتصدق يوميًا على السائلين وأبناء السبيل بالخبز... (ورتزبورغ ٤٤).

دمشق: جنة المشرق ومطلع حسنه المؤنق المشرق وهي خاتمة بلاد الشام التي استقريناها وعروس المدن التي اجتليناها قد شملت بأزاهير الرياحين وتجلت في حلل سندسية من البساتين، وحلت في موضوع الحسن بالمكان المكين وتزينت في منعتها أجمل تزيين، وتشرفت بأن أوى الله تعالى المسيح وأمه صلى الله عليهما منها إلى ربوة ذات قرار ومعين. ظل ظليل وماء سلسبيل تنساب مذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل ورياض يحيي نسيمها العليل. تتبرج لناظريها بمجتلي صقيل وتناديهم هلموا إلى معرش للحسن ومقيل. قد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظمأ فتكاد تناديك بها الصم الصلاب اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب قد أحدقت بها البساتين احداق الهالة بالقمر واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر. فكل موضع لحظتها بجهاتها الأربع نضرته اليانعة قيد النظر ولله صدق القائلين عنها: إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحاذيها (ابن جبير ٢٦٠ - ٢٦١).

دمشق مدينة كبيرة تقع على حدود مملكة نور الدين ... وهي مدينة جميلة يدور بها سور، وتحيط بها بلاد فائقة الحسن، تمتد نحو ١٥

ميلا. وحدائقها وبساتينها تبلغ من الجمال حدا قلما يوجد مثله في الدنيا ... يخترقها نهر أمانا (أبانا) الذي تحمل مياهه إلى دور كبار الناس فيها في أنابيب كما تنقلها القساطل إلى الشوارع والأسواق... تجارتها واسعة، يقيم بها تجار من جميع الأقطار ... وجامعها قلما يساويه بناء آخر في فخامته ... (بنيامين ٩٠).

وفي داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم تعرف بكنيسة مريم ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها. وهي حفيلة البناء تتضمن من التصاوير أمراً عجيباً تبهت الأفكار وتستوقف الأبصار، ومرآها عجيب وهي بأيدي الروم ولا اعتراض عليهم. وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة وبها مارستانان قديم وحديث والحديث أحفلهما وأكبرهما وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً وله قومة بأيديهم الأزمة المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك. والأطباء يبكرون إليه في كل يوم ويتفقدون المرضى ويأمرون بإعداد ما يصلح من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل إنسان منهم. والمارستان الآخر على هذا الرسم لكن الاحتفال في الجديد أكثر. وهذا القديم هو غربي الجامع المكرم. وللمجانين المعتقلين أيضاً ضرب من العلاج وهم في سلاسل موثقون (ابن جبير ٢٨٣).

حلب: وأما البلد فموضوعه ضخم جدا حفيل التركيب بديع الحسن واسع الأسواق كبيرها متصلة الانتظام مستطيلة، تخرج من سماط صنعة إلى أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية وكلها مسقف بالخشب فكأنها في ظلال وارفة فكل سوق منها تقيد الأبصار حسناً

وتســتوقف المســتوفز تعجبــاً، وأمــا قيســاريتها فحديقــة بســتان نظافــة وجــمالاً مطيفــة بالجامــع المكــرم لا يتشــوّق الجالــس فيهــا مــرأى ســواها، ولــو كان مــن المــرائي الرياضيــة. وأكــثر حوانيتهــا خزائــن مــن الخشــب فيهــا مــرأى ســواها، ولــو كان مــن المــرائي الرياضيــة. وأكــثر حوانيتهــا خزائــن مــن الخشــب البديــع الصنعــة، قــد اتصــل الســماط خزانــة واحــدة وتخللتهــا شرفٌ خشــبية بديعــة النقــش وتفتحــت كلهــا حوانيــت فجــاء منظرهــا أجمــل منظــر وكل ســماط منهــا يتصــل ببــاب مــن أبــواب الجامــع المكــرم (ابــن جبــير ٢٥٢).

وقراهــا عامــرة منتظمــة لأنهــا عــلى محــرث عظيــم مــد البــصر عرضــاً وطــولاً (ابــن جبــير ٢٥٤). وخانــات هــذه الطريــق كأنّهــا القــلاع امتناعــاً وحصانــة وأبوابهــا حديــد. وهــي . مــن الوثاقــة في غايــة (ابــن جبــير ٢٥٤).

المعــرة: وبــلاد المعــرة ســواد كلهــا بشــجر الزيتــون والتــين والفســتق وأنــواع الفواكــه ويتصــل التفــاف بســاتينها وانتظــام قراهــا مســيرة يومــين (ابــن جبــير ٢٥٤).

حــماة: وكلتــا المدينتــين صغيرتــان، وســور المدينــة العليــا يمتــد عــلى رأس جانبهــا العــالي الجبــلي ويطيــف بهــا، وللمدينــة الســفلى ســور يحــدق بهــا مــن ثلاثــة جوانــب لأن جانبهــا المتصــل بالنهــر لا يحتــاج إلى ســور. وعــلى النهــر جــسر كبــير معقــود بصــم الحجــارة يتصــل مــن المدينــة الســفلي إلى ريضهــا. وريضهــا كبــير فيــه الخانــات والديــار ولــه حوانيــت يســتعجل فيهــا المســافر حاجتــه إلى أن يفــرغ لدخــول المدينــة وأســواق المدينــة العليــا أحفــل وأجمــل مــن أســواق المدينــة الســفلى. فهــي الجامعــة لجميــع الصناعــات

والتجارات وموضوعها حسن التنظيم بديع الترتيب والتقسيم. ولها جامع أكبر من الجامع الأسفل ولها ثلاث مدارس ومارستان على شط النهر (ابن جبير ٢٥٦ - ٧).

حمص: وأما داخلها فما شئت بادية شعثاء الأرجاء ملفقة البناء، لا إشراق لآفاقها ولا رونق لأسواقها، كاسدة لا عهد لها بنفاقها. وما ظنك ببلد حصن الأكراد منه على أميال يسيرة، وهو معقل العدو. فهو منه تتراءى ناره ويحرق إذ يطير شراره ويتعهد إذا شاء كل يوم مناره وسألنا أحد الأشياخ بهذه البلدة هل فيها مارستان على رسم مدن هذه الجهات فقال، وقد أنكر ذلك، «حمص كلها مارستان» وكفاك شهادة أهلها فيها. وبها مدرسة واحدة وتجد في هذه البلدة عند إطلالك عليها من بعد في بسيطها ومنظرها وهيئة موضوعها بعض شبه بمدينة (إشبيلية) من بلاد الأندلس يقع للحين في نفسك خياله وبهذا الاسم سميت في القديم وهي العلة التي أوجبت نزول الأعراب أهل حمص فيها حسبما يذكر. (ابن جبير ٢٥٨)

بيروت: بيروت مدينة غنية وحصينة وكبيرة ومزدحمة بالسكان (فوكاس ٩) ميناؤها جميل أتقنته يد الصانع الماهر يحيط بالمدينة كالهلال، يقوم في كل من طرفيه برج تسحب بينهما سلسلة تحمي السفن الموجودة في الميناء في الليل (ثيودوريتش ٧١).

صور: هي أنظف من عكة سككاً وشوارع وأهلها ألين في الكفر طبائع وأجرى إلى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع. فخلائقهم أشجع ومنازلهم أوسع وأفسح وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن. وعكة

أكبر وأطغى. وأما حصانتها ومنعتها فأعجب ما يحدث به وذلك أنها راجعة إلى بابين أحدهما في البر والآخر في البحر وهو يحيط بها إلا من جهة واحدة. فالذي في البر يفضي إليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب. وأما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ليس في البلاد البحرية أعجب وضعاً منها يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص. فالسفن تدخل تحت السور وترسي فيها. وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج فلا مجال للمراكب إلا عند إزالتها. وعلى ذلك الباب حراس وأمناء لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج إلا على أعينهم، فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوضع ولعكة مثلها في الوضع والصفة، لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك وإنما ترسي خارجها، والمراكب الصغار تدخل إليها. فالصورية أكمل وأجمل وأحفل (ابن جبير ٣٠٤).

عكا: تزيد عن غيرها من مدن بلاد الشام الساحلية في عدد السكان. تأوي إليها جميع السفن التجارية ويجتمع فيها الحجاج الآتون في البحر والمسافرون براً ... وتكثر فيها الأوبئة بسبب كثرة الواردين عليها (فوكاس ١١)

مدينة كبيرة كثيرة السكان... حيثما ينزل الحجاج، فإنهم مضطرون بعد انتهاء الحج إلى الاجتماع في عكاء ليحملوا منها إلى بلادهم...

وقد عددنا في يوم الأربعاء من أسبوع الفصح ثمانين سفينة في الميناء (ثيودوريتش ٥٩ - ٦٠).

وهي قاعدة مدن الافرنج، ومحط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام مرفأً كل سفينة والمشبهة في عظمتها بالقسطنطينية مجتمع السفن والرفاق وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق سككها وشوارعها تغص بالزحام وتضيق فيها مواطئ الأقدام (ابن جبير ٣٠٣)

وصلنا إلى الديوان وهو خان معد لنزول القافلة وأمام بابه مصاطب مفروشة فيها كتاب الديوان من النصارى بمحابر الأبنوس المذهبة الحلي وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها ورئيسهم صاحب الديوان والضامن له يعرف بالصاحب لقب وقع عليه فمكانه من الخطة وهم يعرفون به كل محتشم متعين عندهم من غير الجند وكل ما يجبى عندهم راجع إلى الضامن. وضمان هذا الديوان بمال عظيم. فأنزل التجار رحالهم به ونزلوا في أعلاه وطلب رحل من لا سلعة له لئلا يحتوي على سلعة مخبوءة فيه وأطلعه سبيله فنزل حيث شاء وكل ذلك برفق وتؤدة دون تعنيف ولا حمل، فنزلنا بها في بيت اكتريناه من نصرانية بإزاء البحر (ابن جبير ٣٠٢ - ٣).

بلاد العرب

جـدة: هـذه قريـة عـلى سـاحل البحـر الأحمـر، أكـثر بيوتهـا اخصـاص وفيهـا فنـادق بالحجـارة والطـين. وفي أعلاهـا بيـوت مـن الاخصـاص كالغـرف ولهـا سـطوح يسـتراح فيهـا بالليـل مـن أذى الحـر. وبهـذه القريـة آثـار قديمـة تـدل عـلى أنهـا كانـت مدينـة قديمـة وأثـر سـورها المحـدث بهـا بـاق إلى اليـوم (ابـن جبـير ٧٥)

الرطـب وهـو عندهـم بمثابـة التـين الأخـضر في شـجره يجنـى ويـؤكل وهـو في نهايـة مـن الطيـب واللـذاذة لا يسـأم التفكـه .بـه وبأنـه عندهـم عظيـم يخـرج النـاس إليـه كخروجهـم إلى الضيعـة أو كخـروج أهـل المغـرب لقراهـم أيـام نضـج التـين والعنـب، ثـم بعـد ذلـك عنـد تناهـي نضجـه يبسـط عـلى الأرض قـدر مـا يجـف قليـلاً ثـم يركـم بعضـه عـلى بعـض في السـلال والظـروف ويرفـع (ابـن جبـير ١٢٢)

مكـة: وكانـوا أيضـاً يتحدثـون بكـثرة نعمهـا في هـذا العـام ولـين سـعرها وأنهـا خارقـة للعوائـد السـالفة عندهـم. كان سـوم الحنطـة أربعـة أصـواع بدينـار مؤمنـي. وهـذا السـعر في بلـد لا ضيعـة فيـه ولا قـوام معيشـة لأهلـه إلا بالمـيرة المجلوبـة إليـه سـعر لا خفـاء بيمنـه وبركتـه عـلى كـثرة المجاوريـن فيهـا في هـذا العـام وتجـلاب النـاس إليهـا وترادفهـم عليهـا . فحدثنـا غـير واحـد مـن المجاوريـن الذيـن لهـم بهـا سـنون طائلـة أنهـم لم يـروا هـذا الجمـع بهـا قـط ولا سـمع بمثلـه فيهـا . واللـه يجعلـه جمعـاً مرحومـاً معصومـاً بمنـه.

ولأهـل هـذه الجهـات المشرقيـة كلهـا سـيرة حسـنة عنـد مسـتهل كل شـهر مـن شـهور العـام يتصافحـون ويهنـي بعضهـم بعضـاً ويتنافـرون ويدعـو بعضهـم لبعـض كفعلهـم في الأعيـاد هكـذا دائمـاً (ابـن جبـير ١٢٤).

فأبصرنـا مـن ذلـك مـا نصـف بعضـه عـلى جهـة الاختصـار وذلـك لأنـا عاينـا شـوارع مكـة وأزقتهـا مـن عـصر يـوم الأربعـاء وهـي العشـية التـي ارتقـب فيهـا الهـلال، قـد امتـلأت هـوادج مشـدودة عـلى الإبـل مكسـوة بأنـواع كسـاء الحريـر وغيرهـا مـن ثيـاب الكتـان الرفيعـة بحسـب سـعة أحـوال أربابهـا ووفرهـم كل يتأنـق ويحتفـل بقـدر اسـتطاعته فأخـذوا في الخـروج إلى التنعيـم ميقـات المعتمريـن فسـالت تلـك الهـوادج في أباطـح مكـة وشـعابها والإبـل قـد زينـت تحتهـا بأنـواع التزيـين وأشـعرت بغـير هـدى بقلائـد برّاقـة المنظـر مـن الحريـر وغـيره وربمـا فاضـت الأسـتار التـي عـلى الهـوادج حتـى تسـحب أذيالهـا عـلى الأرض (ابـن جبـير ١٢٩)

التجـارة والحـج: وهـم قبائـل شـتى كبجيلـة وسـواها يسـتعدون للوصـول إلى هـذه البلـدة المباركـة قبـل حلولهـا بعـشرة أيـام. فيجمعـون بـين النسـبة في العمـرة ومـيرة البلـد بـضروب مـن الأطعمـة كالحنطـة وسـائر الحبـوب إلى اللوبيـاء إلى مـا دونهـا. ويجلبـون السـمن والعسـل والزبيـب واللـوز فتجتمـع ميرتهـم بـين الطعـام والأدام والفاكهـة. ويصلـون في آلاف مـن العـدد رجـالاً وجـمالاً موقـرة بجميـع مـا ذكـر فيرغـدون معايـش أهـل البلـد والمجاوريـن فيـه. يتقوتـون ويدخـرون وترخـص الأسـعار وتعـم المرافـق فيعـد منهـا النـاس مـا يكفيهـم لعامهـم إلى مـيرة أخـرى ولـولا هـذه المـيرة لـكان أهـل مكـة في شـظف مـن العيـش (ابـن جبـير ١٣٢).

مـن الحجـاز إلى العـراق: (وصلنـا) القـارورة وهـي مصانـع مملـوءة بمـاء المطـر. وهـذا الموضـع هـو أرض نجـد. ومـا أرى أن في المعمـورة أرضـاً أفسـح بسـطاً ولا أوسـع أنفـاً ولا أطيـب نسـيماً ولا أصـح هـواء ولا أمـد اسـتواء ولا أصفـى جـوا ولا أنقـى تربـة ولا أنعـش للنفـوس والأبـدان ولا أحسـن اعتـدالاً في كل الأزمـان مـن أرض نجـد . وصـف محاسـنها يطـول والقـول فيهـا يتسـع . وفي يـوم الخميـس المذكـور مـع صحـوة النهـار نزلنـا بالهاجـر. والمـاء فيـه مصانـع. وربمـا حـضروا عليـه حفـراً قريبـة العمـق يسـمونها أحفـاراً واحدهـا ..حفـر وكنـا نتخـوف في هـذا الطريـق قلـة المـاء ولا سـيما مـع عظـم هـذا الجمـع الأنامـي والأنعامـي الذيـن وردوا البحـر لأنزفـوه واسـتقوه (ابـن جبـير ٢٠٤).

أجزنـا بالحاجـز واديـين سيالين، وأمـا الـبرك والقـرارات فـلا تحـصى. وفي يـوم الجمعـة بعـده نزلنـا ضحـوة النهـار .سـميرة. وهـي موضـع معمـور وفي بسـيطها شـبه حصـن يطيـف بـه خلـق كبـير مسـكون والمـاء فيـه في آبـار كثـيرة إلا أنهـا زعـاق ومسـتنقعات وبـرك وتبايـع العـرب فيهـا مـع الحـاج فيـما أخرجـوه مـن لحـم وسـمن ولـبن . ووقـع النـاس عـلى قـرم وعيمـة. فبـادروا الابتيـاع لذلـك بشـقق الخـام التـي يسـتصحبونها لمشـاراة الأعـراب لأنهـم لا يبايعونهـم إلا بهـا (ابـن جبـير ٢٠٥).

ووصـل إلى هـذا الموضـع جمـع كثـير مـن العـرب رجـالاً ونسـاء واتخـذوا بـه سـوقاً عظيمـة حفيلـة للجـمال والكبـاش والسـمن واللـبن وعلـف الإبـل فـكان يـوم سـوق نافعـة وبقـي مـن هـذا الموضـع إلى الكوفـة مـن المناهـل التـي تعـم جميـع المحلـة ثلاثـة أحدهـا زبالـة والثـاني وامضـة والثالـث

منهـل مـن مـاء الفـرات عـلى مقربـة مـن الكوفـة. وبـين هـذه المناهيـل مياه موجـودة لكنهـا لا تعـم. وهـذه الثلاثـة المذكـورة هـي التـي تعـم النـاس والابـل وهـي التـي تردهـا (ابـن جبـير ٢٠٧)

العراق

الكوفـة: هـي مدينـة كبـيرة عتيقـة البنـاء قـد اسـتولى الخـراب عـلى أكثرهـا فالغامـر منهـا أكـثر مـن العامـر ومـن أسـباب خرابهـا قبيلـة خفاجـة المجـاورة لهـا فهـي لا تـزال تضربهـا. وكفـاك بتعاقـب الأيـام والليـالي محييـاً ومفنيـاً وبنـاء هـذه المدينـة بالآجـر خاصـة، ولا سـور لهـا والجامـع العتيـق أخرهـا مـما يـلي شرقـي البلـد ولا عـمار تتصـل بهـا مـن جهـة الـشرق (ابـن جبـير ٢١١).

الحلـة: هـي مدينـة كبـيرة عتيقـة الوضـع مسـتطيلة، لم يبـق مـن سـورها إلا حلـق مـن جـدار تـرابي مسـتدير بـه وهـي عـلى شـط الفـرات يتصـل بهـا مـن جانبهـا الشرقـي ويمتـد بطولهـا. ولهـذه المدينـة أسـواق حفيلـة جامعـة للمرافـق المدنيـة والصناعـات الضروريـة وهـي قويـة العـمارة كثـيرة الخلـق، متصلـة حدائـق النخيـل داخـلاً وخارجـاً فديارهـا بـين حدائـق النخيـل وألفينـا بهـا جـسراً عظيـماً معقـوداً عـلى مراكـب كبـار متصلـة مـن الشـط إلى الشـط تحـفّ بهـا مـن جانبهـا سلاسـل مـن حديـد كالأذرع المفتولـة عظـماً وضخامـة ترتبـط إلى خشـب مثبتـة في كل الشـطين تـدل عـلى عظـم الاسـتطاعة والقـدرة (ابـن جبـير ٢١٣).

في الطريـق: وتمتـاز الجهـة بكـثر القناطـر المعترضـة في طريقهـم إلى بغـداد فـلا تـكاد تمـشي ميـلاً إلا وتجـد قنطـرة عـلى نهـر متفـرع مـن الفـرات، فتلـك الطريـق أكـثر الطـرق سـواقي وقناطـر وعـلى أكثرهـا خيـام فيهـا رجـال محترسـون للطريـق اعتنـاء الخليفـة بسـبيل الحـاج دون اعـتراض منهـم لاسـتنفاع بكديـة أو سـواها (ابـن جبـير ٢١٤). وألفينـا حصـاد الشـعير بهـذه الجهـات في هـذا الوقـت هـو نصـف مايـو (أيـار).

وقـرى هـذه الطريـق مـن الحلـة إلى بغـداد عـلى هـذه الصفـة مـن الحسـن والاتسـاع وفي هـذه القريـة المذكـورة خـان كبـير يحـدق بـه جـدار عـال لـه شرفـات صغـار (ابـن جبـير ٢١٥).

إلى بغـداد: وكنـا سـمعنا أن هـواء بغـداد يثبـت الـسرور في القلـب ويبعـث النفـس دائمـاً عـلى الانبسـاط والانـس، فـلا تـكاد تجـد فيـه إلا جـذلان طربـاً ، وإن كان نـازح الـدار مغتربـاً، حتـى حللنـا بهـذا الموضـع المذكـور وهـو عـلى مرحلـة منهـا . فلـما نفحتنـا نوافـح هوائهـا ونقعنـا الغلـة بـبرد مائهـا أحسسـنا مـن نفوسـنا، عـلى حـال وحشـة الاغـتراب داوعـي مـن الإطـراب، واستشـعرنا بواعـث فـرح كأنـه فرحـة الغيـاب بالإيـاب، وهبـت بنـا محركات مـن الأطـراب، أذكرتنـا معاهـد الأحبـاب في ريعـان الشـباب. هـذا للغريـب النـازح الوطـن فكيـف للوافـد عليهـا عـلى أهـل وسـكن

سـقى الله باب الطاق صوب غمامة

ورد إلى الأوطـان كل غريب

ابن جبير (٢١٦)

وبغـداد هــي كـما ذكرنــاه جانبــان شرقــي و غــربي ودجلــة بينهــما فأمــا الجانــب الغــربي هــي فقــد عمَّــه الخــراب واســتولى عليــه وكان المعمــور أولاً . وعـمارة الجانـب الشرقـي محدثـة، لكنـه مـع اسـتيلاء الخـراب عليـه يحتــوي عــلى ســبع عــشرة محلــة كل محلــة منهــا مدينــة مســتقلة، وفي كل واحــدة منهــا الحمامــان والثلاثــة والثــماني منهــا بجوامــع يصــلى فيهــا الجمعــة. فأكبرهــا القريــة وهــي التــي نــزل فيهــا بربــض يعــرف بالمربعــة عــلى شــط دجلــة بمقربــة مــن الجــسر، فحملتــه دجلــة بمدهــا الســيلي فعــاد النــاس يعــبرون بالــزوارق فيهــا لا تحــصي كــثرة فالنــاس ليــلاً ونهــاراً مــن تمــادي العبــور فيهــا في نزهــة متصلــة رجــالاً ونســاء. والعــادة أن يكــون لهــا جـسران أحدهـما مـما يقـرب مـن دور الخليفـة، والآخـر فوقـه لكـثرة النـاس، والعبــور في الــزوارق لا ينقطــع منهــا . ثــم الكــرخ وهــي مدينــة مســورة. ثــم محلــة بــاب البــصرة وهــي أيضــاً مدينــة وبهــا جامــع المنصــور رحمــه اللــه وهــو جامــع كبــير عتيــق البنيــان حفيلــه، ثــم الشــارع وهــي أيضــاً مدينــة. فهــذه الأربــع أكــبر المحــلات وبــين الشــارع ومحلــة بــاب البــصرة ســوق المارســتان وهــي مدينــة صغــيرة فيهــا المارســتان الشــهير ببغــداد وهــو عــلى دجلــة ويفقــده الأطبــاء كل يــوم اثنــين وخميــس ويطالعــون أحــوال المــرضى ويرتبــون لهــم أخــذ مــا يحتاجــون إليــه، وبــين أيديهــم قومــة يتناولــون طبــخ الأدويــة والأغذيــة وهــو قــصر كبــير فيــه المقاصــير والبيــوت وجميــع مرافــق المســاكن الملوكيــة. والمــاء يدخــل إليــه مــن دجلــة (ابــن جبــير ٢٢٥).

وأمــا الشرقيــة فهــي اليــوم دار الخلافــة وكفاهــا بذلــك شرفــاً واحتفــالاً ودور الخليفــة مــع آخرهــا وهــي تقــع منهــا في نحــو الربــع أو أزيــد لأن جميــع العباســيين في تلــك الديــار معتقلــون اعتقــالاً جميــلاً لا يخرجــون ولا يظهــرون

ولهـم المرتبـات القائمـة بهـم. وللخليفـة مـن تلـك الديـار جـزء كبـير قـد اتخـذ فيهـا المناظـر المشرفـة والقصـور الرائقـة والبسـاتين الأنيقـة . وليـس لـه اليـوم وزيـر إنمـا بـه خديـم يعـرف بنائـب الـوزارة يحـضر الديـوان المحتـوي عـلى أمـوال الخلافـة وبـين يديـه الكتـب فينفـذ الأمـور. ولـه قيـم عـلى جميـع الديـار العباسـية وأمـين عـلى كافـة الحـرم الباقيـات مـن عهـد جـده وأبيـه وعـلى جميـع مـن تضمـه الحرمـة الخلافيـة يعـرف بالصاحـب مجـد الديـن أسـتاذ الـدار، هـذا لقبـه. ويدعـى لـه إثـر الدعـاء للخليفـة وهـو قـل مـا يظهـر للعامـة اشـتغالاً بمـا هـو بسـبيله مـن أمـور تلـك الديـار وحراسـتها والتكفـل بمغالقهـا وتفقدهـا ليـلاً ونهـاراً (ابـن جبـير ٢١٦).

والشرقيـة حفيلـة الأسـواق عظيمـة الترتيـب تشـتمل مـن الخلـق عـلى بـشر لا يحصيهـم إلا اللـه تعـالى الـذي أحـصى كل شيء عـدداً وبهـا مـن الجوامـع ثلاثـة كل يجمـع فيهـا: جامـع الخليفـة متصـل بـداره وهـو جامـع كبـير وفيـه شـعابات عظيمـة ومرافـق كثـيرة كاملـة مرافـق الوضـوء والطهـور، وجامـع السـلطان وهـو خـارج البلـد ويتصـل بـه قصـور تنسـب للسـلطان أيضـاً المعـروف بشـاه شـاه وكان مديـر أمـر أجـداد هـذه الخليفـة وكان يسـكن هنـاك فابتنـي الجامـع أمـام مسـكنه ، وجامـع الرصافـة وهـو عـلى الجانـب الشرقـي المذكـور وبينـه وبـين جامـع هـذا السـلطان المذكـور مسـافة نحـو الميـل. وبالرصافـة تربـة الخلفـاء العباسـيين رحمهـم اللـه . فجميـع جوامـع البلـد ببغـداد المجمـع فيهـا أحـد عـشر. وأمـا حماماتهـا فـلا تحـصى عـدة. ذكـر لنـا أحـد أشـياخ البلـد أنهـا بـين الشرقيـة والغربيـة نحـو الألفـي حـمام وأكثرهـا مطليـة بالقـار مسـطحة بـه فيخيـل للناظـر انـه رخـام أسـود صقيـل. وحمامـات هـذه الجهـات أكثرهـا عـلى هـذه الصفـة لكـثرة القـار

عندهـم لأن شـأنه عجيـب يجلـب مـن عـين بـين البـصرة والكوفـة وقـد أنيـط اللـه مـاء هـذه العـين ليتولـد منـه القـار، فهـو يصـير في جوانبهـا كالصلصـال فيجـري ويجلـب ابـن جبـير (٢٢٨ - ٩).

وأمـا المسـاجد بالشرقيـة والغربيـة فـلا يأخذهـا التقديـر فضـلاً عـن الإحصـاء والمـدارس بهـا نحـو الثلاثـين وهـي كلهـا بالشرقيـة ومـا منهـا مدرسـة إلا وهـي يقـصر القـصر البديـع عنهـا، وأعظمهـا وأشـهرها المدرسـة النظاميـة وهـي التـي ابتناهـا نظـام الملـك وجـددت سـنة أربـع وخمسـمائة . ولهـذه المـدارس أوقـاف عظيمـة وعقـارات محبسـة تصـير إلى الفقهـاء المدرسـين بهـا ويجـرون بهـا عـلى الطلبـة مـا يقـوم بهـم. ولهـذه البـلاد في أمـر المـدارس والمارسـتانات شرف عظيـم وفخـر مخلـد فرحـم اللـه واضعهـا الأول ورحـم مـن تبـع ذلـك السـنن الصالـح (ابـن جبـير ٢٢٩).

وبغـداد عاصمـة الخليفـة العبـاسي الـذي يعـترف لـه كل ملـوك المسـلمين بالسـلطان الروحـي. يمتـد قـصره ثلاثـة أميـال وفيـه حدائـق تحـوي أشـجاراً مـن جميـع الأنـواع، بينهـا النافـع والزخـرفي، وتـسرح فيهـا الحيوانـات وتفـرد فيهـا الطيـور وبركـة القـصر تـأتي مياههـا مـن دجلـة. ويقـضي الخليفـة أوقـات فراغـه في حدائـق القـصر يسـتمتع بجمالـه. والخليفـة يتقـن لغـات كثـيرة ... وينفـق عـلى نفسـه مـما يصنعـه بيـده. وتشـمل صناعتـه الأغطيـة التـي يدمغهـا ،بختمـه ويبيعهـا موظفـوه في السـوق العامـة. ويبتـاع هـذه الأشـياء نبـلاء البـلاد.

والخليفـة رجـل نبيـل وهـو محـل للثقـة، وكبـير العطـف عـلى الجميـع. لكنـه قلـما يظهـر للنـاس ... والمناسـبة الوحيـدة التـي يـرى فيهـا هـي يـوم

عيـد الفطـر، حيـث يتقاطـر القـوم إلى بغـداد ليسـتمتعوا باسـتجلاء طلعتـه البهيـة.

والخليفـة تقـي محسـن كريـم، وقـد أقـام عـلى ضفـة النهـر المقابلـة أبنيـة كبـيرة فيهـا بالإضافـة إلى دور السـكن العاديـة ملاجـيء للمـرضى الفقـراء (بيمارسـتانات، حيـث يأتـون للعـلاج، وفي المدينـة قرابـة سـتين حانـوت طبـي توجـد فيهـا العقاقـير عـلى اختـلاف أنواعـه التـي ترسـل إليهـا مـن خزائـن الخليفـة. وكل مريـض يتطلـب مسـاعدة، يقـدم لـه الغـذاء عـلى حسـاب الخليفـة إلى أن يشـفى.

وفي بغـداد عـمارة كبـيرة تسـمى دار المرابطـين يقيـم فيهـا جميـع المجانـين مقيديـن بسلاسـل، ويـشرف عليهـم موظفـون مـن قبـل الخليفـة يفحصونهـم مـرة في الشـهر بانتظـام فـإذا ظهـر أنهـم شـفوا أطلـق سراحهـم. وهـذا مـن إحسـان الخليفـة إلى كل مـن يقصـد بغـداد مريضـاً كان أم مصابـاً بالجنـون. وتحيـط ببغـداد حدائـق النخيـل والبسـاتين الواسـعة، بحيـث تجعلهـا عديمـة النظـير في العـراق.

ويتقاطـر التجـار مـن كل صقـع إلى بغـداد. وفيهـا علـماء كبـار وفلاسـفة ومهـرة مـن أهـل السـحر (بنيامـين ٩٥ - ١٠٠).

بغـداد مدينـة كبـيرة، وهـي مقـر الخليفـة أو السـلطان. وهـذا هـو الملـك الكبـير الـذي يحكـم الأمـم ... بغـداد كبـيرة جـدا ، يزيـد طولهـا عـن مسـيرة يـوم كامـل، ويحتـاج المـرء إلى أكـثر مـن ثلاثـة أيـام ليـدور حولهـا (بتاحيـا - ادلـر ٦٠).

إلى الموصل: وعن يمين الطريق إلى الموصل فيه وهدة من الأرض سوداء كأنها سحابة قد أنيط الله فيها عيوناً كباراً وصغاراً، تنبع بالقار وربما يقذف بعضها بحباب منه كأنها الغليان ويصنع له أحواض يجتمع فيها فتراه شبه الصلصال منبسطاً على الأرض أسود أملس صقيلاً رطباً عطر الرائحة شديد التعلك فيلصق بالأصابع بأول مباشرة من اللمس . وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق أسود تقذفه إلى جوانبها فيرسب ،قاراً، فشاهدنا عجباً كنا نسمع به فنستغرب سماعه. وبمقربة من هذه العيون، وعلى شط دجلة عين أخرى منه كبيرة أبصرنا على البعد منها دخاناً فقيل لنا إن النار تشعل فيه إذا أرادوا نقله فتنشف النار رطوبته المائية وتعقده فيقطعونه قطرات ويحملونه، وهو يعم جميع البلاد إلى الشام إلى عكة إلى جميع البلاد البحرية (ابن جبير ٢٣٣).

الموصل: باطن الداخل منها بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره المطيف بالبلد كله كان قد تمكن فتحها فيه لغلظ بنيته وسعة وضعه وللمقاتلة في هذه البيوت حرز وقاية وهي من المرافق الحربية. وفي أعلى البلد قلعة عظيمة قد رص بناؤها، ينتظمها سور عتيق البنية مشيد البروج وتتصل بها دور السلطان. وقد فصل بينهما وبين البلد شارع متسع، يمتد من أعلى البلد إلى أسفله ودجلة شرقي البلد وهي متصلة بالسور وأبراجه في مائها وللبلدة ريض كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والأسواق (ابن جبير ٢٣٤).

وفي سـوقه قيسـارية للتجـار كأنهـا الخـان العظيـم تتعلـق عليهـا أبـواب حديـد، وتطيـف بهـا دكاكـين وبيـوت بعضهـا عـلى بعـض قـد جـلي ذلـك كلـه في أعظـم صـورة مـن البنـاء المزخـرف الـذي لا مثيـل لـه. فـما أرى في البـلاد قيسـارية تعدلهـا (ابـن جبـير ٢٣٦).

وفي المدينـة مـدارس للعلـم نحـو السـت أو أزيـد عـلى دجلـة فتلـوح كأنهـا القصـور المشرقـة ولهـا مارسـتانات حاشـا الـذي ذكرنـاه في الريـض (ابـن جبـير ٢٣٦).

بـين الموصـل والشـام: وأهـل هـذه البـلاد مـن الموصـل لديـار بكـر وديـار ربيعـة إلى الشـام عـلى هـذه السـبيل مـن حـب الغربـاء وإكـرام الفقـراء وأهـل قراهـا كذلـك، فـما يحتـاج الفقـراء الصعاليـك معهـم زاداً لهـم في ذلـك مقاصـد في الكـرم مأثـورة. وشـأن أهـل هـذه الجهـات في هـذا السـبيل عجيـب واللـه ينفعهـم بمـا هـم عليـه. وأمـا عبادهـم وزهادهـم والسـائحون في الجبـال منهـم فأكـثر مـن أن يقيدهـم الاحصـاء، واللـه ينفـع المسـلمين ببركتهـم وصوالـح دعواتهـم بمنـه وكرمـه. ولهـذه البلـدة المذكـورة أسـواق حفيلـة الانتظـام عجيبـة الترتيـب مسـقفة كلهـا بالخشـب فـلا يـزال أهلهـا في ظـل ممـدود، فتخترقهـا كأنـك تخـترق دارا كبـيرة الشـوارع قـد بنـي عنـد كل ملتقـى أربـع سـكك أسـواق منهـا قبـة عظيمـة مرفوعـة مصنوعـة مـن الجـص هـي كالمفـرق لتلـك السـكك (ابـن جبـير ٢٤٥).

•••

المدارس

المدرسـة النظاميـة: فـأول مـن شـاهدنا مجلسـه منهـم الشـيخ الإمـام رضي الديـن القزوينـي رئيـس الشـافعية وفقيـه المدرسـة النظاميـة والمشـار إليـه بالتقديـم في العلـوم الأصوليـة. حضرنـا مجلسـه بالمدرسـة المذكـورة إثـر صلاة العـصر مـن يـوم الجمعـة الخامـس لصفـر. فصعـد المنـبر وأخـذ القـراء أمامـه في القـراءة عـلى كـراس موضوعـة فتوقفـوا وشـوّقوا وأتـوا بتلاحـين معجبـة ونغـمات محرجـة مطربـة، ثـم اندفـع الشـيخ الإمـام المذكـور فخطـب خطبـة سـكون ووقـار، وتـصرّف في أفانـين مـن العلـوم، مـن تفسـير كتـاب اللـه عـزّ وجـل، وإيـراد حديـث رسـول اللـه، والتكلـم عـلى معانيـه. ثـم رشـقته شـآبيب المسـائل مـن كل جانـب فأجـاب ومـا قـصر، وتقـدم ومـا تأخـر. ودفعـت إليـه عـدة رقـاع فجمعهـا جملـة في يـده، وجعـل يجـاوب عـلى كل واحـدة منهـا وينبـذ بهـا إلى أن فـرغ منهـا، وحـان المسـاء فنـزل وافـترق الجميـع، فـكان مجلسـه مجلـس علـم ووعـظ وقـورا هينـا لينـا ظهـرت فيـه البركـة والسـكينة (ابـن جبـير ٢١٩).

المدرسـة النوريـة في دمشـق: وهـذه المارسـتانات مفخـر عظيـم مـن مفاخـر الإسـلام والمـدارس كذلـك. ومـن أحسـن مـدارس الدنيـا منظـراً مدرسـة نـور الديـن رحمـه اللـه، وبهـا قـبره نـوره اللـه، وهـي قـصر مـن القصـور الأنيقـة ينصـب فيهـا المـاء في شـاذروان وسـط نهـر عظيـم ثـم يمتـد المـاء في سـاقية مسـتطيلة إلى أن يقـع في صهريـج كبـير وسـط الـدار فتحـار

الأبصـار في حسـن ذلـك المنظـر. فـكل مـن يبـصره يجـدد الدعـاء لنـور الديـن رحمـه اللـه. وأمـا الرباطـات التـي يسـمونها الخوانـق فكثـيرة وهـي برسـم الصوفيـة، وهـي قصـور مزخرفـة يطـرد في جميعهـا المـاء عـلى أحسـن منظـر يبـصر، وهـذه الطائفـة الصوفيـة هـم الملـوك بهـذه البـلاد لأنهـم قـد كفاهـم اللـه مـؤن الدنيـا وفضولهـا وفـرغ خواطرهـم لعبادتـه مـن الفكـرة في أسـباب المعايـش وأسـكنهم في قصـور تذكرهـم قصـور الجنـان (ابـن جبـير ٢٨٤).

المغاربـة: ومـن مناقـب نـور الديـن رحمـه اللـه تعـالى أنـه كان عـين للمغاربـة الغربـاء الملتزمـين زاويـة المالكيـة بالمسجد الجامـع المبـارك أوقافـا كثـيرة منهـا طاحونتـان وسـبعة بسـاتين وأرض بيضـاء وحـمام ودكانـان بالعطاريـن. وأخـبرني أحـد المغاربـة الذيـن كانـوا ينظـرون فيـه وهـو أبـو الحسـن عـلي بـن سروال الجيـاني المعـروف بالأسـود أن هـذا الوقـف المغـربي يغـلُّ إذا كان النظـر فيـه جيداً خمسـمائة دينـار في العـام (ابـن جبـير ٢٥٨).

عـالم سـوري: وحـضر معنـا في الصيـد الشـيخ العـالم أبـو عبـد اللـه الطليطـلي النحـوي رحمـه اللـه. وكان في النحـو سـيبويه زمانـه قـرأت عليـه النحـو نحـواً مـن عـشر سـنين وكان متـولي دار العلـم بطرابلـس. فلـما أخـذ الافرنـج طرابلـس نقـذ الوالـد والعـم، رحمهـما اللـه، اسـتخلصا الشـيخ أبـا عبـد اللـه هـذا ويانـس الناسـخ وكان قريـب الطبقـة في الخـط مـن طريقـة ابـن البـواب. أقـام عندنـا بشـيزر مـدة ونسـخ للوالـد رحمـه اللـه ختمتـين ثـم انتقـل إلى مـصر ومـات بهـا.

وشاهدت من الشيخ أبي عبد الله عجباً. دخلت عليه يوماً لأقرأ عليه فوجدت بين يديه كتب النحو كتاب سيبويه» و«كتاب الخصائص لابن جني. و«كتاب الإيضاح» لأبي علي الفارسي وكتاب «اللمع»، و«كتاب الجمل» فقلت يا شيخ أبا عبد الله، قرأت هذه الكتب كلها؟، قال «قرأتها! لاوالله إلا كتبتها في اللوح وحفظتها. تريد تدري. خذ جزءا وافتح واقرأ من أول الصفحة سطرا واحدا». فأخذت جزءا وفتحته وقرأت سطراً منه. فقرأ الصفحة بأجمعها حفظا حتى أتى على تلك الأجزاء جميعها فرأيت منه أمرا عظيما ما هو في طاقة البشر (الاعتبار ٢٠٨ - ٩).

التربية البيتية

تربية أسامة البيتية: وما رأيت الوالد رحمه الله نهاني عن قتال ولا ركب خطر مهما كان يرى في وأرى من اشفاقه وإيثاره لي. ولقد رأيته يوماً وكان عندنا بشيزر رهائن عن بغدوين ملك الإفرنج على قطيعة قطعها لحسام الدين تمرتاش بن ايلغازي رحمه الله، فرسان إفرنج وأرمن. فلما وفوا ما عليهم وأرادوا الرجوع إلى بلادهم نفذ خير خان صاحب حمص خيلاً كمنوا لهم في ظاهر شيزر. فلما توجه الرهائن خرجوا عليهم وأخذوهم. ووقع الصائح فركب عمي وأبي رحمهما الله ووقفا وكل من يصل إليهما قد سيراه من خلفهم. وجئت أنا، فقال لي أبي أتبعهم بمن معك، وارموا نفوسكم عليهم، واستخلصوا رهائنكم». فتبعتهم وأدركتهم بعد ركض أكثر النهار واستخلصت من كان معهم وأخذت بعض خيل حمص. وعجبت من قوله «ارموا نفوسكم عليهم».

ومـرة كنـت معـه رحمـه اللـه، وهـو واقـف في قاعـة داره وإذا حيـة عظيمـة قـد أخرجـت رأسـها عـلى إفريـز رواق القناطـر التـي في الـدار فوقـف يبصرهـا. فحملـت سـلماً كان في جانـب الـدار أسـندته تحـت الحيـة وصعـدت إليـه، وهـو يـراني فـلا ينهـاني، وأخرجـت سـكيناً صغـيرة مـن وسـطي، وطرحتهـا عـلى رقبـة الحيـة وهـي نائمـة وبـين وجهـي وبينهـا دون الـذراع، وجعلـت أحـز رأسـها - وخرجـت التفـت عـلى يـدي - إلى أن قطعـت رأسـها وألقيتهـا إلى الـدار وهـي ميتـة. بـل رأيتـه، رحمـه اللـه، وقـد خرجنـا يومـاً لقتـال أسـد ظهـر عـلى الجسر فلـما وصلنـاه حمـل علينـا مـن أجمـة كان فيهـا . فحمـل عـلى الخيـل، ثـم وقـف، وأنـا وأخـي بهـاء الدولـة منقـذ رحمـه اللـه بـين الأسـد وبـين موكـب فيـه أبي وعمـي، رحمهـما اللـه، ومعهـما جماعـة مـن الجنـد. والأسـد قـد ربـض عـلى حـرف النهـر يتـضرب بصـدره عـلى الأرض ويهـدر. فحملـت عليـه، فصـاح عـلي أبي رحمـه اللـه لا تسـتقبله يـا مجنـون فيأخـذك فطعنتـه. فـلا واللـه مـا تحـرك مـن مكانـه. ومـات موضعـه.

فـما رأيته نهـاني عن قتال غير ذلك اليوم (الاعتبار ١٠٣).

والـدة أسـامة في القتـال: وفي ذلـك اليـوم فرقـت والـدتي، رحمهـا اللـه، سـيوفي وكزاغنـداتي. وجـاءت إلى أخـت لي كبـيرة السـن وقالـت البـسي خفـك وإزارك فلبسـت وأخذتهـا إلى روشـن في داري يـشرف عـلى الـوادي مـن الـشرق، أجلسـتها عليـه وجلسـت إلى بـاب الروشـن ونصرنـا اللـه سـبحانه عليهـم. وجئـت إلى داري أطلـب شـيئاً مـن سـلاحي مـا وجـدت إلا جهـازات السـيوف وعيـب الكزاغنـدات. قلـت يـا أمـي، أيـن سـلاحي» قالـت يـا

بني أعطيت لمن يقاتل عنا. وما ظننتك سالماً». قلت «فأختي أي شيء تعمل ها هنا» قالت يا بني أجلستها على الروشن وجلست براً منها. إذا رأيت الباطنية قد وصلوا إلينا دفعتها رميتها إلى الوادي فأراها قد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة فشكرتها على ذلك وشكرتها الأخت وجزتها خيراً. فهذه النخوة من نخوات الرجال (الاعتبار ١٢٤)

الفارس

شرف الفارس جمعة: فمن ذلك ما شاهدته من أنفة الفرسان وحملهم نفوسهم على الأخطار، اننا كنا التقينا نحن وشهاب الدين محمود بن قراجا، صاحب حماة ذلك الوقت، وكانت الحرب بيننا وبينه ما تغب والمراكب واقفة والطراد بين التسرعة. فجاءني رجل من أجنادنا وفرساننا المعدودين يقال له جمعة من بني نمير، وهو يبكي. فقلت له «ما لك يا أبا محمود؟ هذا وقت بكاء!». قال «طعنني سرهنك بن أبي منصور». قلت «وإذا طعنك سرهنك أي شيء يكون قال ما يكون شيء إلا يطعني مثل سرهنك - والله ان الموت أسهل علي من أن يطعنني لكنه استغفلني واغتالني». فجعلت أسكنه وأهوّن الأمر عليه. فرد رأس فرسه راجعاً فقلت إلى أين يا أبا محمود؟ قال «إلى سرهنك. والله لأطعننته أو لأموتن دونه». فغاب ساعة واشتغلت أنا بمن مقابلي. ثم عاد وهو يضحك فقلت «ما عملت» فقال طعنته والله. ولو لم أطعنه لفاضت روحي». فحمل عليه في جمع أصحابه فطعنه وعاد (الاعتبار ٣٦)

منزلة الفارس عند الإفرنج: والإفرنج، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان - فهم أصحاب الرأي وهم أصحاب القضاء والحكم، وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم أخذها صاحب بانياس من الشعراء وبيننا وبينهم صلح، وأنا إذ ذاك بدمشق. فقلت للملك فلك بن فلك هذا تعدي علينا وأخذ دوابنا وهو وقت ولاد الغنم. فولدت وماتت أولادها وردّها علينا بعد أن أتلفها، فقال الملك لستة سبعة من الفرسان «قوموا اعملوا له حكماً، فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد وعادوا إلى مجلس الملك. فقالوا «قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلف من غنمهم فأمره الملك بالغرامة فتوسل إليَّ وثقل عليَّ وسألني حتى أخذت منه أربع مائة دينار. وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا أحد من مقدمي الافرنج ان يغيره ولا ينقضه، فالفارس أمر عظيم عندهم.

ولقد قال لي الملك يا فلان، وحق ديني لقد فرحت البارحة فرحاً عظيماً». قلت «والله يفرح الملك بماذا فرحت» قال «قالوا لي إنك فارس عظيم. وما كنت أعتقد أنك فارس» قلت يا مولاي أنا فارس من جنسي وقومي». وإذا كان الفارس دقيقاً طويلاً كان أعجب لهم (الاعتبار ٦٤).

العلاقات بين سكان بلاد الشام

أهل دمشق: ومخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد وبامتثال الخدمة وتعظيم الحضرة. وإذا لقي أحد منهم آخر مسلماً يقول جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمة كناية عن السلام، فيتعاطون المحال تعاطيا. والجد عندهم عنقاء مغرب وصفة سلامهم ايماء للركوع أو السجود فترى الأعناق تتلاعب ما بين رفع وخفض وبسط وقبض. وربما طالت بهم الحالة في ذلك فواحد ينحط وآخر يقوم وعمائمهم تهوي بينهم هوياً. وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء وعند استعراض رقيق الإماء، فيا عجباً لهؤلاء الرجال كيف تحلوا بسمات ربات الحجال (ابن جبير ٢٩٥)

الغرباء في الشام: وعلى كل من وفق الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد يلتزم أن أحب ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش ناعم البال وينهال الخبز عليه من الضيعة ويلتزم الامامة والتعليم أو ما شاء. ومتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى أو يصعد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجودي فيلقى بها المريدين المنقطعين إلى الله عزّ وجلَّ فيقيم معهم ما شاء وينصرف إلى حيث شاء، ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به أحد المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم ويقولون هؤلاء ممن انقطع إلى الله عزَّ وجل فيجب مشاركتهم، وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا فيه أنواع الفواكه وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة وقلما يخلو من

التبتيل والزهادة. وإذا كانت معاملة النصارى لضد ملّتهم هذه المعاملة فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض (ابن جبير ٣٨٧)

شجرة الميزان: وقرية بيت جن هي بين جبال. ثم رحلنا منها صبيحة يوم السبت إلى مدينة بانياس واعترضنا في نصف الطريق شجرة بلوط عظيمة الجرم متسعة التدويح أعلمنا انها تعرف بشجرة الميزان، فسألنا عن ذلك، فقيل لنا هي حد بين الأمن والخوف في هذه الطريق لحرامية الإفرنج، وهم الحواسة والقطاع. من أخذوه وراءها إلى جهة بلاد المسلمين ولو بباع أو شبر أسر، ومن أخذ دونها إلى جهة بلاد الافرنج بقدر ذلك أطلق سبيله. لهم في ذلك عهد يوفون به وهو من أطرف الارتباطات الافرنجية وأغربها (ابن جبير ٣٠٠)

التمكيس: واجتزنا في طريقنا بين هونين وتبنين بواد ملتف الشجر، وأكثر شجره الرند. بعيد العمق كأنه الخندق السحيق المهوي تلتقي حافتاه ويتعلق بالسماء أعلاه يعرف بالاسطبل لو ونجته العساكر لغابت فيه، ولا منجى ولا مجال لسالكه عن يد الطالب فيه. المهبط إليه والمطلع عنه عقبتان كؤودان فعجبتا من أمر ذلك المكان فأجزناه ومشينا عنه يسيراً وانتهينا إلى حصن كبير من حصون الافرنج، يعرف بتبنين وهو موضع تمكيس القبائل، وصاحبته تعرف بالملكة وهي أم صاحب عكة. فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن ومكس الناس تمكيساً غير مستقص والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس ولا اعتراض على التجار لأنهم يقصدون موضع الملك وهو محل التعشير والضريبة في قيراط من الدينار والدينار أربعة وعشرون قيراطاً.

وأكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة ولا اعتراض على غيرهم (ابن جبير ٣٠٠ - ٣٠١).

العلاقات بين العرب والصليبيين: ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى وربما يلتقي الجمعان منهم ويقع المصاف بينهم الذي هو شهر جمادى الأولى من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عساكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك، وهو من أعظم حصون النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز، والمانع لسبيل المسلمين على البر، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشق قليلا وهو سرارة أرض فلسطين، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة يذكر أنه ينتهي إلى أربعمائة قرية. فنازله هذا السلطان وضيّق عليه وطال حصاره واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك.

وتجار النصارى أيضاً لا يمنع ولا يعترض. وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وهي من الامنة على غاية، وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم والاتفاق بينهم الاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية والدنيا لمن غلب.

هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك ولا تعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً أو حرباً. وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوفى الحديث عنه (ابن جبير ٢٨٧).

المحاصة: ورحلنا من تبنين سحر يوم الاثنين وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة سكانها كلهم مسلمون وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه نعوذ بالله من الفتنة، وذلك لأنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمّها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك. ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً، ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم. وكل ما بأيدي الافرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل، رساتيقها كلها للمسلمين وهي القرى والضياع وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم، لأنهم على شد أحوالهم من الترفيه والرفق وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكي الصنف الإسلامي صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك من الإفرنج ويأنس بعدله (ابن جبير ٣٠١).

ومررنا في طريقنا بضيعة من ضياع عكة على مقدار فرسخ ورئيسها الناظر فيها من المسلمين مقدم من جهة الإفرنج من فيها من عمارها من المسلمين فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة حفيلة وأحضرهم صغيراً وكبيراً في غرفة متسعة بمنزله وأنا لهم ألواناً من الطعام قدَّمها فعمهم بتكرمته. وكنا فيمن حضر هذه الدعوة (ابن جبير ٣٠٢).

زفاف في صور: زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام عند مينائها، وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالاً ونساءً واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال كأنهما من

ذوي أرحامها وهي في أبهى زي وأفخر لباس تسحب أذيال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة منسوجة وعلى لبتها مثل ذلك ،منتظم، وهي رافلة في حليها وحللها تمشي فترى في مشي الحمامة أو سير الغمامة نعوذ بالله من فتنة المناظر. وأمامها جلة من رجالها النصارى في أفخر ملابسهم البهية تسحب أذيالها خلفهم ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين في أنفس الملابس ويرفلن في أرفل الحلى والآلات اللهوية قد تقدمتهم، والمسلمون والنصارى من النظار قد عادوا في طريقهم سماطين يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك، فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها وأقاموا يومهم ذلك في وليمة قادنا اتفاق إلى رؤية هذا المنظر الزخر في المستعاذ بالله من الفتنة فيه (ابن جبير ٣٠٥)

أخبار الطب والتطبيب

بالفصاد ينجو جريح: وأصاب رجلاً من أصحابنا الشاميين جراح كثيرة فجاءني أخوه وقال «أخي تالف. قد وقع فيه كذا وكذا جرح سيوف وغيرها، وهو مغمور ما يفيق» قلت «ارجع اقصده». قال قد خرج منه عشرون رطل دم قلت ارجع اقصده، فأنا أخبر منك بالجراح. وليس له دواء غير الفصاد». فمضى غاب عني ساعتين ثم عاد وهو مستبشر. قال أنا فصدته، وهو أفاق وجلس وأكل وشرب وذهب عنه البؤس». قلت «الحمد لله، ولولا أني جربت هذا في نفسي عدة مرار ما وصفته لك» (الاعتبار ٣٣).

يداوي بالخل: وكان لابن بطلان إصابات عجيبة في الطب. فمن ذلك أن رجلاً أتاه، وهو في دكانه بحلب، والرجل قد انقطع كلامه فلا يكاد يفهم منه إذا تكلم. فقال له «ما صنعتك»، قال «أنا مغربل» فقال «احضر لي نصف رطل خل حاذق فأحضره فقال «أشربه» فشربه وجلس لحظة فذرعه القيء. فتقيأ طيناً كثيراً في ذلك الخل. فانفتح حلقه واستوى كلامه. فقال ابن بطلان لابنه وتلامذته لا تداووا بهذا الدواء أحداً فتقتلوه. هذا كان قد علق بالمريء من غبار الغربلة تراب ما كان يخرجه إلاّ الخل (الاعتبار ١٨٤).

عجائب الطب الإفرنجي: ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه. فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت، فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له ما أسرع ما داويت المرضى» فقال احضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف. فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وأصلحت وحميت للمرأة ورطبت مزاجها، فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم هذا ما يعرف شيء يداويهم» فقال للفارس «أيما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين قال «أعيش برجل واحدة قال أحضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً». فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها فضربه، وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت ضربه ضربة ثانية فسأل مخ الساق ومات من ساعته. وأبصر المرأة فقال هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها. احلقوا شعرها. فحلقوه. وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل، فزاد بها

النشـاف، فقـال الشـيطان قـد دخـل في رأسـها فأخـذ المـوس وشـقّ رأسـها صليبـاً وسـلخ وسـطه حتـى ظهـر عظـم الـرأس وحكـه بالمـخ، فماتـت في وقتهـا، فقلـت لهـم «بقـي لكـم إلي حاجـة؟ قالـوا «لا» فجئـت وقـد تعلمـت مـن طبهـم مـا لم أكـن أعرفـه .

وقـد شـاهدت مـن طبهـم خـلاف ذلـك. كان للملـك خـازن مـن فرسـانهم يقـال لـه برنـارد فرمحـه حصـان في سـاقه فعملـت عليـه رجلـه وفتحـت في أربعـة عـشر موضعـاً والجـراح كلـما ختـم موضـع فتـح موضـع. فجـاءه طبيـب افرنجـي فـأزال عنـه تلـك المراهـم بغسـلها بالخـل الحـاذق فختمـت تلـك الجـراح وبـرأ وقـام مثـل الشـيطان.

ومـن عجيـب طبهـم أنـه كان عندنـا بشـيزر صانـع يقـال لـه أبـو الفتـح لـه ولـد قـد طلـع في رقبتـه خنازيـر. وكلـما ختـم موضـع فتـح موضـع. فدخـل انطاكيـة في شـغل لـه وابنـه معـه. فـرآه رجـل افرنجـي فسـأله عنـه فقـال «هـو ولـدي». قـال تحلـف لي بدينـك ان وصفـت لـك دواء يبرئـه لا تأخـذ مـن أحـد تداويـه بـه أجـرة حتـى أصـف لـك دواء يبرئـه». فعلـف، فقـال لـه «تأخـذ لـه أشـناناً غـير مطحـون تحـره وتربيـه بالزيـت والخـل الحـاذق وتداويـه بـه حتـى يـأكل الوضـع. ثـم خـذ الرصـاص المحـرق وربّـه بالسـمن ثـم داوه بـه فهـو يبرئـه». فـداواه بذلـك فـبراً، وختمـت تلـك الجـراح، وعـاد إلى مـا كان عليـه مـن الصحـة.

وقـد داويـت بهـذا الـدواء مـن طلـع فيـه هـذا الـداء فنفعـه وزال مـا كان يشـكوه (الاعتبـار ١٣٢ - ٤).

محاكمات إفرنجية

محاكمات إفرنجية: شهدت يوماً بنابلس وقد أحضروا اثنين للمبارزة. وكان سبب ذلك أن حرامية كيسوا ضيعة من ضياع نابلس فاتهموا بها رجلاً من الفلاحين وقالوا هو دل الحرامية على الضيعة»، فنفذ الملك فقبض أولاده. فعاد إليه وقال «أنصفني، أنا أبارز الذي قال عني أني دللت الحرامية على القرية» فقال الملك لصاحب القرية المقطع أحضر من يبارزه». فمضى إلى قريته وفيها رجل حداد فأخذه وقال له «تبارز» اشفاقاً من المقطع على فلاحيه لا يقتل منهم واحد فتخرب فلاحته. فشاهدت هذا الحداد، وهو شاب قوي إلا أنه قد انقطع، يمشي ويجلس يطلب ما يشربه، وذلك الآخر الذي طلب البراز شيخ إلا أنه قوي النفس يزجر وهو غير محتفل بالمبارزة. فجاء البسكند وهو شحنة البلد، فأعطى كل واحد منهما العصا والترس وجعل الناس حولهم حلقة.

والتقيا فكان الشيخ يلز ذلك الحداد، وهو يتأخر حتى يلجئه إلى الحلقة، ثم يعود إلى الوسط. وقد تضاريا حتى بقيا كعمود الدم. فطار الأمر بينهما والبسكند يستعجلهما وهو يقول بالعجلة. ونفع الحداد إدمانه بضرب المطرقة. وأعيى ذلك الشيخ فضربه الحداد، فوقع، ووقعت عصاه تحت ظهره فبرك عليه الحداد يداخل أصابعه في عينيه ولا يتمكن من كثرة الدم من عينيه. ثم قام عنه وضرب رأسه بالعصا حتى قتله. فطرحوا في رقبته في الوقت حبلاً وجروه وشنقوه.

وجـاء صاحـب الحـداد أعطـاه غفارتـه وأركبـه خلفـه وأخـذه وانـصرف.

وهذا مـن جملة فقههم وحكمهم.

ومضيـت مـرة مـع الأمـير معـين الديـن رحمـه اللـه إلى القـدس، فنزلنـا نابلـس. فخـرج إلى عنـده رجـل أعمـى، وهـو شـاب عليـه ملبـوس جيـد معلـم، وحمـل لـه فاكهـة وسـأله في أن يـأذن لـه في الوصـول إلى خدمتـه إلى دمشـق ففعـل، وسـألت عنـه فخـبرت أن أمـه كانـت مزوجـة لرجـل افرنجـي، فقتلتـه. وكان ابنهـا يحتـال عـلى حجاجهـم ويتعـاون هـو وأمـه عـلى قتلهـم، فاتهمـوه بذلـك وعملـوا لـه حكـم الافرنـج. جلسـوا بتّيـة عظيمـة وملأوهـا مـاءً وعرضـوا عليهـا دف خشـب وكتفـوا ذلـك المتهـم وربطـوا في كتافـه حبـلاً ورمـوه في البتيـة - فـإن كان بريـاً غـاص في المـاء، فرفعـوه بذلـك الحبـل لا يمـوت في المـاء، وإن كان لـه الذنـب مـا يغـوص في المـاء. فحـرص ذلـك لمـا رمـوه في المـاء أن يغـوص، فـما قـدر فوجـب عليـه حكمهـم (الاعتبـار ١٣٨ - ٩).

ألقـي القبـض عـلى أحـد الفرسـان في دار للدعـارة، فخـير الفـارس بـين أمريـن: إمـا أن تجـره المـرأة التـي وجـد معهـا عـبر المعسـكر وهـو يرتـدي قميصـاً فقـط. وإمـا أن يؤخـذ منـه سـيفه وحصانـه ويطـرد، فاختـار الأمـر الثـاني. وكانـت هـذه العقوبـة حسـب عـادات البـلاد (جوانفيـل ٢٦٢)

بينـما كان جماعـة مـن فرسـاننا يتصيـدون الغـزلان طلـع عليهـم فريـق مـن فرسـان المستشـفى وأجلوهـم عـن صيدهـم. فشـكوت هـذا الفريـق إلى رئيسـهم، فوعـدني أن مـا يعاقبهـم حسـب تقـضي بـه عـادات البـلاد، وذلـك

أنـه أمرهـم أن يأكلـوا وهـم جلـوس عـلى أقبائهـم أيامـاً حتـى يـأتي المعتـدى عليهـم وينهضوهـم، وعندئـذ يـزول الحقـد مـن الصـدور (جوانفيـل ٢٦٣).

الصيد

الصيـد: وكنـت قـد مضيـت مـع الأمـير معـين الديـن رحمـه اللـه، إلى عـكا إلى عنـد ملـك الإفرنـج فلـك بـن فلـك. فرأينـا رجـلاً مـن الجنويـة قـد وصـل مـن بـلاد الافرنـج ومعـه بـاز كبـير مقرنـص يصيـد الكـركي، ومعـه كلبـة صغـيرة إذا أرسـل البـاز عـلى الكـركي عـدت تحتـه. فـإذا أخـذ الكـركي وحطـه عضتـه فـلا يقـدر عـلى الخـلاص منهـا. وقـال لنـا الجنـوي «ان البـاز عندنـا إذا كان ذنبـه ثـلاث عـشرة ريشـة اصطـاد الكـركي فعددنـا ذنـب ذلـك البـاز فـكان كذلـك.

فطلبـه الأمـير معـين الديـن رحمـه اللـه مـن الملـك فأخـذه مـن ذلـك الجنـوي هـو والكلبـة وأعطـاه للأمـير معـين الديـن فجـاء معنـا. فرأيتـه في الطريـق يثـب إلى الغـزلان كـما يثـب إلى اللحـم. ووصلنـا بـه إلى دمشـق. فـما طـال عمـره بهـا ولا صـاد شـيئاً ومـات (الاعتبـار ١٩٦).

وكان الوالـد أكـثر مـا يسـتدعي البـزاة ويشـتريها مـن وادي ابـن الأحمـر بالغـلاء فأحـضر قومـاً مـن أهـل الجبـل القريـب مـن شـيزر مـن أهـل بشـيلا ويسـمالخ وحلـة عـارا وتحـدث معهـم في أن يعملـوا في مواضعهـم مصايـد للبـزاة، ووهبهـم وكسـاهم، فمضـوا وعملـوا بيـوت الصيـد. فاصطـادوا بـزاة كثـيرة فراخـاً ومقرنصـة وزرارق فحملوهـا إلى الوالـد وقالـوا يـا مولانـا، نحـن قـد بطلنـا معايشـنا وزراعتنـا في خدمتـك، ونشـتهي أن تأخـذ منـا كل مـا نصيـده وتقـرّر لنـا ثمنـاً لا نتجـاذب فيـه. فقـرر ثمـن البـاز الفـرخ

خمسة عشر ديناراً، وثمن الزرق المقرنص نصفها. وانفتح للجبليين أخذ دنانير بغير كلفة ولا تعب. إنما يعمل له بيتاً بحجارة على قد خلقته، ويغطيه بعيدان ويسترها بقش وحشيش ويجعل له نافذة ويأخذ طير حمام يجمع رجليه على قضيب ويشدها إليه ويخرجه من تلك النافذة يحرّك العود فيتحرك الطير ويفتح أجنحته، فيراه الباز ينقلب عليه يأخذه. فإذا أحس به الصياد جذب القضيب إلى النافذة ومد يده قبض رجلي الباز، وهو قابض للطير الحمام، وأنزله إليه وخيط عينيه. ويصبح من الغد يصلنا به، يأخذ ثمنه ويعود إلى بيته بعد يومين (الاعتبار ٢٠٠).

الصيد مع زنكي: وقد شاهدت صيد ملك الأمراء أتابك زنكي، رحمه الله. وكان له الجوارح الكبيرة فرأيته ونحن نسير على الأنهار فيتقدم البازدارية بالبزاة ترميها على طيور الماء وتدق الطبول كجاري العادة فتتصيد منها ما تصيده وتخطئ ما تخطىء ووراءهم الشواهين الكوهية على أيدي البازدارية. فإذا اصطادت البزاة وأخطأت أرسلوا الشواهين الكوهية على الطيور وقد أبعدت فتلحق وتصيد. وترسل على الحجل فتلحق الحجل في طلوعها في سفح الجبل فتصيد. فإنها من سرعة الطيران على صفة عجيبة (الاعتبار ١٩٢)

في جنوب سورية

سكان جنوب سورية: بينما نحن في الطريق بين نابلس والقدس قابلتنا جماعة كبيرة من المسلمين يقودون الثيران والحمير وهم في طريقهم لحرث سهل واسع جميل... وقد أثاروا في نفوسنا غير قليل

مـن الذعـر ... والحـق أنـه يقيـم في تلـك الجهـات عـدد كبـير منهـم، كـما يقيمـون في المـدن والقـلاع ويعيشـون مـن العمـل في الأرض تحـت إشراف ملـك القـدس أو رئيـس الفرسـان الهيكليـين (ثيودوريتـش ٦١)

بـدو: فجمعتهـم ورأيـت بهـم مـن الـضرّ أمـراً عظيـماً. قـد يبسـت جلودهـم عـلى عظامهـم. قلـت: «ايـش أنتـم؟». قالـوا: نحـن مـن بنـي أُبي وبنـو أُبي فرقـة مـن العـرب مـن طـيء يقولـون نحـن خـير العـرب مـا فينـا مجـذوم ولا أبـرص ولا زمـن ولا أعمـى». وإذا نـزل بهـم الضيـف ذبحـوا لـه وأطعمـوه مـن غـير طعامهـم.

قلـت: «مـا جـاء بكـم إلى هاهنـا؟». قالـوا: «لنـا بحسـمي كثـول ذرة مطمـورة جئنـا نأخذهـا. قلـت: فمـن أيـن تعيشـون؟ قالـوا: مـن الرمـة (يعنـون العظـام الباليـة الملقـاة ندقهـا ونعمـل عليهـا المـاء وورق القطـف (شـجر بتلـك الأرض) ونتقـوّت بـه». قلـت: «كلابكـم وحمركـم؟». قالـوا: الـكلاب تطعمهـم مـن عيشـنا والحمـر تـأكل الحشـيش». قلـت: «فلـم دخلتـم إلى دمشـق؟ قالـوا: خفنـا الوبـاء». ولا وبـاء أعظـم مـما كانـوا فيـه وكان ذلـك بعـد عيـد الأضحـى.

فوقفـت حتـى جـاءت الجـمال، وأعطيتهـم مـن الـزاد الـذي كان معنـا، وقطعـت فوطـة كانـت عـلى رأسي وأعطيتهـا للمرأتـين، فـكادت عقولهـم تـزول مـن فرحهـم بالـزاد. وقلـت لا تقيمـوا هاهنـا يسـبوكم الافرنـج (الاعتبـار ١٢).

موكب أميرة

موكب أمير: وفي تلك العشية التي رحلنا فيها فجأتنا خاتون المسعودية المترفة شباباً وملكاً وهي قد استقلت في هودج موضوع على خشبتين معترضتين بين مطيتين الواحدة أمام الأخرى وعليهما الجلال المذهبة وهما يسيران بها سير النسيم سرعة وليناً، وقد فتح لها أمام الهودج وخلفه بابان، وهي ظاهرة في وسطه متنقبة وعصابة ذهب على رأسها، وأمامها رعيل من فتياتها وجندها، وعن يمينها جنائب المطايا والهماليج العتاق وورائها ركب من جواريها قد ركبن المطايا والهماليج على السرج المذهبة وعصين رؤوسهنَّ بالعصائب الذهبيات والنسيم يتلاعب بعذباتهن وهن يسرن خلف سيدتهنَّ سير السحاب، ولهنَّ الرايات والطبول والبوقات تضرب عند ركوبها وعند نزولها ، وأبصرنا من نخوة الملك والنساء واحتفاله رتبة تهز الأرض هزاً، وتسحب أذايل الدنيا عزّاً (ابن جبير ٢٣٠ - ١).

•••

بلاد الشَّام

عكا: عكا مدينة حصينة بأسوارها وأبراجها وخنادقها وبقية أعمال التحصين ذات القوة الهائلة... يحيط بها من الشرق سهل متسع خصب جدا سواء في ذلك أرضه المفتلح ومروجه وكرومه وبساتينه التي تنمو فيها أنواع مختلفة من الفاكهة. وفي داخل المدينة أمكنة كثيرة محصنة وقلاع وحصون تخص الفرق المختلفة كفرقة المستشفى أو فرقة الهيكليين أو الجماعة التيوتونية. وعكاء يملكها ملك القدس، ولها ميناء كبيرة جيدة في جنوبها تستطيع السفن أن ترسو فيها (بركارد ٩)

صور: دورة سور صور بها أكبر في رأيي، من دورة سور عكا ... وقد أقمت فيها مرة عشرة أيام... والماء في جهاتها كثير، وأهل صور يوزعون المياه على كل أجزاء السهل المحيط بالمدينة فيروون البساتين التي ينمو فيها الكرم وقصب السكر، وهو كثير، وينال صاحب صور منه رسوما كثيرة (بركارد ١٠ - ١٢).

نابلس: تقع نابلس بين جبلين وهي جميلة مليئة بالخيرات، لكنها ليست محصنة، ولا يمكن أن تحصن وكل ما يستطيع أهلها أن يفعلوه إذا هاجمهم الأعداء من باب أن يهربوا من الباب الآخر (بركارد ٥٣)

ولا يمكن تحصينها لأنه من السهل رمي الحجارة من الجبل إلى داخلها، ولا فائدة من التحصين (سنودو ١٣)

القطـن: ينمـو في أنجـم يبلـغ طولهـا إلى ركبـة ..الرجـل. وينمـو قصـب السـكر ... وداخلـه مـليء بمـادة مسـامية رطبـة. يجمـع القصـب ويقطـع صغـيرا ويعـصر ويغـلى العصـير الـذي يخـرج منـه، ومتـى صـار لزجـا يوضـع في سـلال مصنوعـة مـن العسـاليج، فيجـف ويصبـح صلبـا. وهكـذا يصنـع السـكر ويتقطـر منـه قبـل أن يجـف سـائل يسـمى عسـل السـكر، وهـو لذيـذ ويسـتعمل في صنـع الكعـك.

ويزرع قصب السـكر بطريق العُقل وموعد غرسـه في فصل الربيع.

وبعـد أن يعـدد البرتقـال والليمـون والخـوخ يشـير إلى المـوز ويسـميه الجنـة. ويصفه بإسـهاب.

وخمر الأرض المقدسـة جيد ولذيذ (بركارد ٩٩ وما بعدها).

بغداد

بغـداد مدينـة كبـيرة وهـي مقـر الخليفـة ويخـترق المدينـة نهـر كبـير ينقـل عليـه التجـار بضائعهـم مـن البحـر الهنـدي وإليـه، والمـدة تقـدر بسـبعة عـشر يومـا لأن النهـر كثـير التعـرج ... ويمـر الملاحـون في طريقهـم مـن بغـداد إلى البحـر هـذا بمدينـة البـصرة التـي تحيـط بهـا حدائـق النخيـل وتمرهـا أجـود تمـر في العـالم.

ويصنـع في بغـداد الحريـر المذهـب والدمقـس والمخمـل (القطيفـة) المـوشى برسـوم الطيـور والحيـوان. وأكـثر الـلآلىء التـي تحمـل إلى ديـار الغـرب تثقـب في بغـداد.

وبغداد مدينة علم فالشريعة الإسلامية والطبيعة والفلك وفنون السحر وعلم القيافة تدرس فيها .

والحق أن بغداد أنبل وأوسع مدينة في هذا الجزء من العالم (ماركو بولو ٣٠-٣١)

مصر

دلتا مصر: وفاضت مياه الأنهر السبعة على الأرض وغمرت السهل ولما انحسرت المياه ذهب الفلاحون إلى الأرض وحرثوها، ومحاريثهم لا عجلات لها ... ثم بذروا القمح والشعير والأرز... وقد أعطت هذه كلها غلة لا نظير لها . وليس يعرف أحد لماذا تفيض المياه، ولكنها تعزى إلى إرادة الله ... وإذا لم يفض النهر فلا ينمو زرع ولا ،نبات، لأن الحر شديد والمطر لا ينزل هناك ... ومياه النهر عكرة باستمرار، لذلك يحمل القوم الماء مساء إلى بيوتهم ويضعون فيه أربع حبات من اللوز المقشور، أو من الفول، وفي الصباح تكون المياه رائقة فيشربونها (جوانفيل ١٨٢).

البلسان: ومن ذلك البلسان فإنه لا يوجد اليوم إلا بمصر بعين شمس في موضع محاط عليه محتفظ به مساحته نحو سبعة أفدنة، وارتفاع شجرته نحو ذراع وأكثر من ذلك، وعليها قشران الأعلى أحمر خفيف والأسفل أخضر ثخين، وإذا مضغ ظهر في الفم منه دهنيته ورائحة عطره وورقه شبيه بورق السنداب، ويجتنى دهنه عند طلوع الشعري بأن تشدخ السوق بعدما يحت عنها جميع ورقها، وشدخها يكون بحجر يتخذ محددا ويفتقر شدخها إلى صناعة بحيث يقطع القشر

الأعلى ويشق الأسفل شقا لا ينفذ إلى الخشب فإن نفذ إلى الخشب لم يخرج منه شيء. فإذا شدخه كما وصفنا أمهله ريثما يسهل لثاه على العود فيجمعه بإصبعه مسحا إلى قرن. فإذا امتلأ صبه في قناني زجاج ولا يزال كذلك حتى ينتهي جناه وينقطع لثاه، وكلما كثر الندى في الجو كان لثاه أكثر وأغزر ، وفي الجدب وقلة الندى يكون اللثا أنزر ومقدار ما أخرج منه في سنة ست وتسعين وخمسمائة وهي عام جدب نيف وعشرون رطلا. ثم تؤخذ القناني فتدفن إلى القيظ وحمارة الحرّ وتخرج من الدفن وتجعل في الشمس ثم تتفقد كل يوم فيوجد الدهن وقد طفا فوق رطوبة مائية وأثقال أرضية. فيقطف الدهن ثم يعاد إلى الشمس ولا يزال كذلك يشمسها ويقطف دهنها حتى لا يبقى فيها دهن فيؤخذ ذلك الدهن ويطبخه قيمه في الخفية لا يطلع على طبخه أحدا ثم يرفعه إلى خزانة الملك ومقدار الدهن الخالص من اللثا بالترويق نحو عشر الجملة وقال لي بعض أرباب الخبرة أن الذي يحصل من دهنه نحو من عشرين رطلا، ورأيت جالينوس يقول إن أجود دهن البلسان ما كان بأرض فلسطين وأضعفه ما كان بمصر. ونحن فلا نجد اليوم منه بفلسطين شيئا البتة (البغدادي ٢٢)

ومما تختص به مصر الأفيون، وهو يجتني من الخشخاش الأسود بالصعيد وكثيرا ما يغشه جناته وربما غشوه بالعذرة وعلامة الخالص منه أن يذوب في الشمس ويقد في السراج بلا ظلمة وإذا طفى تكون رائحته قوية والمغشوش يسوس سريعا (البغدادي ٢٨)

أبنيــة مــصر: وأمــا أبنيتهــم ففيهــا هندســة بارعــة وترتيــب في الغايــة، حتــى أنهــم قلــما يتركــون مكانــا غفــلا خاليــا مــن مصلحــة . ودورهــم أقبــح وغالــب ســكناهم في الأعــالي ويعلــون منافــذ منازلهــم تلقــاء الشــمال والريــاح الطيبــة، وقلــما تجــد منــزلا إلا وتجــد فيــه بــاذا هيــج. وبــاذا هيجاتهــم كبــار واســطة للريــح عليهــا تســلط ويحكمونهــا غايــة الإحــكام حتــى أنــه يقــوم عــلى عــمارة الواحــد منهــا مايــة دينــار إلى خمســمائة، وإن كانــت بــاذا هيجــات المنــازل الصغــار يغــرم عــلى الواحــد منهــا دينــار. وأســواقهم وشــوارعهم واســعة وأبنيتهــم شــاهقة. ويبنــون بالحجــر النحيــت والطــوب الأحمــر وهــو الآجــر، وشــكل طوبهــم عــلى نصــف طــوب العــراق.

ويحكمــون قنــوات المراحيــض حتــى أنــه تخــرب الــدار والقنــاة قائمــة، ويحفــرون الكنــف إلى المعــين فتغــير عليهــا برهــة مــن الدهــر طويلــة ولا يفتقــر إلى كســح . وإذا أرادوا بنــاء ربــع أو دار ملكيــة أو قيســارية اســتحضر المهنــدس وفــوّض إليــه العمــل فيعمــد إلى العرصــة وهــي تــل تــراب أو نحــوه، فيقســمها في ذهنــه ويرتبهــا بحســب مــا يقــترح عليــه ثــم يعمــد إلى جــزء آخــر ولا يــزال كذلــك حتــى تكمــل الجملــة بكــمال الأجــزاء مــن غــير خلــل ولا اســتدراك (البغــدادي ٥٢)

أطعمــة مصريــة: ومــن غريــب مــا يتخذونــه رغيــف الصينيــة، وصفتــه أن يؤخــذ مــن الدقيــق الحــواري ثلاثــون رطــلا بالبغــدادي ويعجــن مــع خمســة أرطــال ونصــف ســيرجا عجــن خبــز الخشــكنان. ثــم يقســم بقســمين ويبســط أحدهــما رغيفــا في صينيــة نحــاس قــد اتخــذت لذلــك، ســعة قطرهــا نحــو أربعــة أشــبار ولهــا عــرى وثيقــة ثــم يعبــي عــلى الرغيــف ثلاثــة أخرفــة

مشـوية محشـوة الأجـواف بلحـم مدقـوق ومقلـو بالسـيرج والفسـتق المهـروس والأفاويـه العطـرة الحـارة كالفلفـل والزنجبيـل والقرفـة والمصطـكى والكزبـرة والكمـون والهـال والجـوزة ونحـو ذلـك . ويـرش عليـه مـاء ورد قـد ديـف فيـه مسـك ثـم يجعـل عـلى الخرفـان. وبـين خلالهـا عـشرون دجاجـة وعـشرون فروجـا وعـشرون فرخـا بعضـه مشـوي محشـو بالبيـض وبعضـه محشـو باللحـم وبعضـه مطجـن بمـاء الحـصرم أو بمـاء الليمـون أو بنحـو ذلـك . ثـم يشـور بالسنبوسـك والقماقـم المحشـوة باللحـم بعضهـا، وبالسـكر والحلـوى بعضهـا . وإن شـئت أن تزيـده خروفـا آخـر تتخـذه شرائـح فـلا بـأس. وكـذا جبنـا مقلـوا فـإذا نضـد ذلـك وصـار كالفتـة نضـح عليـه مـاء ورد قـد ديـف فيـه مسـك وعـود ثـم عطـي بالقسـم الثـاني مـن العجـين بعـد أن يمـد رغيفـا ويلحـم بـين الرغيفـين كـما يلحـم الخشـكنان بحيـث لا يخـرج منـه نفـس أصـلا . ثـم يقـرب إلى رأس التنـور حتـى يتماسـك عجينـه ويبتـدئ في النضـج فحينئـذ ترسـل الصينيـة في التنـور بعراهـا رويـدا رويـدا. ويصـبر عليـه ريثـما ينضـج الخبـز ويتـورد ويحمـر ثـم يخـرج ويمسـح باسـفنجة فـيرش عليـه مـاء ورد ومسـك ويرفـع لـلأكل. وهـذا الصنيـع يصلـح أن يحمـل مـع الملـوك وأربـاب الـترف إلى منضداتهـم النائيـة ومنتزهاتهـم النازحـة فإنـه وحـده جملـة فيهـا تفضيـل سـهل المحمـل عـسر التشـعث جميـل المنظـر مشـكور المخـبر يحفـظ الحـرارة مـدة طويلـة .

وأمـا عوامهـم فقلـما يعرفـون شـيئا مـن ذلـك. وأكـثر أغذيتهـم الصـبر والصحنـاة والدلينـس والخبـز والنيـدة ونحـو ذلـك . وشرابهـم المـزر وهـو نبيـذ يتخـذ مـن القمـح. ومنهـم أصنـاف يأكلـون الفـار المتولـد في الصحـاري والغيطـان عنـد انحطـاط النيـل ويسـمونه سـماني الغيـط، وبالصعيـد قـوم

يأكلـون الثعابـين. وبأسـافل الأرض قـد يتخـذ نبيـذ مـن البطيـخ الأخـضر. وبدميـاط يكـثر أكل السـمك ويطبـخ بـكل مـا يطبـخ بـه اللحـم مـن الـرز السـماق والمدققـات وغـير ذلـك (البغـدادي ٥٦)

الترقيـد : مـن ذلـك حضانـة الفراريـج بالزيـل فإنـه قلـما تـرى بمـصر فراريـج عـن حضـان الدجاجـة وربمـا لم يفرقـوه أيضـا. وإنمـا ذلـك عندهـم صناعــة ومعيشــة يتجـر فيهـا ويكتســب منهـا . وتجـد في كل بلـد مـن بلادهــم مواضــع عــدة تعمــل ذلــك. ويســمى الموضــع معمــل الفــروج، وهـذا المعمـل سـاحة كبـيرة يتخـذ فيهـا مـن البيـوت التـي يـأتي ذكرهـا مـا بـين عـشرة أبيـات إلى عشريـن بيتـا في كل بيـت ألفـا بيضـة ويسـمى بيـت الترقيـد . وصفتـه أن يتخـذ بيـت مريـع طولـه ثمانيـة أشـبار في عـرض سـتة في ارتفـاع أربعـة ويجعـل لـه بـاب في عرضـه سـعته شـبران وعقـد في مثلـه وتجعـل فـوق البـاب طاقـة مسـتديرة قطرهـا شـبر ثـم يسـقف بأربـع خشـبات وفوقهـا سـدة قصـب يعنـي نسـيجا منـه وفوقـه سـاسي وهـو مشـاقة الكتـان وحطبـه. ومـن فـوق ذلـك الطـين ثـم يرصـص بالطـوب ويطـين سـائر البيـت ظاهـره وباطنـه وأعـلاه وأسـفله حتـى لا يخـرج منـه بخـار. وينبغـي أن تتخـذ في وسـط السـقف شـباكا سـعته شـبر في شـبر فهـذا السـقف يحـكي صـدر الدجاجـة. ثـم تتخـذ حوضـين مـن الطـين المخمـر بسـاس طـول الحـوض سـتة أشـبار وعرضـه شـبر ونصـف وسـمكه عقـدة إصبـع وحيطانـه نحـو أربعـة أصابـع، ويكـون هـذا الحـوض لوحـا واحـدا تبسـطه عـلى أرض معتدلـة وهـذا الحـوض يسـمى الطاجـن فـإذا جـف الطاجنـان ركبتهـما عـلى طـرف السـقف أحدهـما عـلى وجـه البـاب والآخـر قبالـه عـلى الطـرف الآخـر تركيبـا محكـما وأخـذت وصولهـما بالطـين أخـذا

متفقا وينبغي أن يكون قعود الطاجنين على خشب السقف بحيث يماسانه وهذان الطاجنان تحاكي بهما جناحا الدجاجة ثم يفرش البيت بقفة تبن ويمهد ويفرض فوقه ضب أوديس يعني حصيرا برديا على مقداره سواء، ثم يرصف فوقه البيض رصفا حسنا بحيث يتماس ولا يتراكب لتتواصل الحرارة فيه. ومقدار ما يسع هذا البيت المفروض ألفا .بيضة وهذا الفعل يسمى الترقيد ، صفة الحضانة تبتدئ وتسد الباب بأن ترسل عليه لبدا مهندما ثم تسد الطاقة بساسي والشباك أيضا بساسي وفوقه زبل حتى لا يبقى في البيت منفس للبخار وتلقى في الطاجنين من زبل البقر اليابس قفتين وتوقد فيه نار السراج من جميع جهاته وتهمله ريثما يرجع رمادا وأنت تتفقد البيض ساعة بعد أخرى بأن تضعه على عينك، وتعتبر حراراته. وهذا الفعل يسمى الزواق، فإن وجدته يلذع العين قلبته ثلاث تقلبات في ثلاث دفعات تجعل أسفله أعلاه وأعلاه أسفله. وهذا يحاكي تقليب الدجاجة للبيضة بمنقارها وتفقدها إياها بعينيها وهذا يسمى السماع الأول. فإذا صار الزيل رمادا أزلته وتركته بلا نار إلى نصف النهار إن كان ترقيده بكرة. وإن كان ترقيده من أول الليل حرسته إلى أن تحمي وتسمع النار كالسياقة المتقدمة. ثم تخلي الطاجنين من النار إلى بكرة ثم تجعل في الطاجن الذي على باب البيت من الزبل ثلاثة أقداح وفي الطاجن الذي على صدر البيت قدحين ونصفا. ومد الزيل بمرود غليظ واطرح في كل منهما النار في موضعين منه وكلما خرجت من البيت بعد تفقده فارخ الستر، وإياك وان تغفل عنه لئلا يخرج البخار ويدخل الهواء فيفسد العمل. وإذا كان وقت العشاء وصار الزبل رمادا ونزل الدفء

إلى البيض أسفل البيت فغير الرماد من الطاجن يزيل جديد مثل الأول وأنت كل وقت تلمس البيض وتزوقه بعينك فإن وجدت حرارته زائدة عن الاعتدال تلذع العين فاجعل مكان الثلاثة الأكيال في طاجن الباب كيلين وربعا في طاجن الصدر كيلين فقط. ولا تزال تواصل تغيير الرماد وتجديد الزيل والايقاد حتى لا ينقطع الدفء مدة عشرة أيام بمقدار ما تكمل الشخوص بمشيئة الله وقدرته، وذلك نصف عمر الحيوان، ثم تدخل البيت بالسراج وترفع البيض واحدة واحدة وتقيمها بينك وبين السراج، فالتي تراها سوداء ففيها الفرخ والتي تراها شبه شراب أصفر في زجاج لا عكر فيه لاح بلا بذر، وتسمى الأرملة فأخرجها فلا منفعة فيها . ثم تصبح بعد التلويح تنقص الزبل من العيار الأول مل كفك من كل حوض بكرة ومثله عشية حتى ينصرم اليوم الرابع عشر ولم يبق من الزيل شيء، فحينئذ يكمل الحيوان، ويشعرن ويتفتح، فاقطع إذن النار عنه فإن وجدته زائد الحرارة يحرق العين فافتح الطاقة التي على وجه الباب وأبقها كذلك يومين ثم ذقه على عينك فإن وجدته غالب الحرارة فافتح نصف الشباك وأنت مع ذلك تقلبه وتخرج البيض الذي في الصدر إلى جهة الباب والبيض الذي في جهة الباب ترده إلى الصدر حتى يحمى البارد الذي كان في جهة الباب ويستريح الحار الذي في الصدر بشم الحواء فيصير في طريقه الاعتدال ساعة يحمى وساعة يبرد فيعتدل مزاجه. وهذا الفعل يسمى الحضانة كما يفعل الطير سواء. وتستمر على هذا التدبير دفعتين في النهار ودفعة في الليل إلى إتمام تسعة عشر أيضا فإن الحيوان ينطق في البيض بقدرة الله تعالى وفي يوم العشرين يطرح بعضه، ويكسر القشر ويخرج

وهـذا يسـمى التطريـح. وعنـد تمـام اثنـين وعشريـن يومـا يخـرج جميعـه، وأحمـد الأوقـات لعملـه امشـير وبرمهـات وبرمـودة وذلـك في شـباط وآذار ونيسـان، لأن البيـض في هـذه المـدة يكـون غزيـر المـاء كثـير البـذرة صحيـح المـزاج، والزمـان معتـدل صالـح للنشـأة والتكويـن وينبغـي أن يكـون البيـض طريـا. وفي هـذه الأشـهر يكـثر البيـض أيضـا (البغـدادي ٣٠ - ٣٢).

القحـط في مـصر سـنة ٥٩٧ هــ: وأول مـن هلـك في هـذه الطريـق أهـل الحـرف عندمـا انتجعـوا إلى الشـام وانتـشروا في هـذه المسـافة مـع طولهـا كالجـراد المحسـوس. ولم تـزل تتواصـل هلكاهـم إلى الآن. وانتهـى انتجاعهـم إلى الموصـل وبغـداد وخراسـان وإلى بـلاد الـروم والمغـرب واليمـن ومزقـوا كل ممـزق (البغـدادي ٦٧)

وأمـا خـراب البـلاد والقـرى وخلـو المسـاكن والدكاكـين فهـو مـما يلـزم هـذه الجملـة التـي اقتصصناهـا. وناهيـك أن القريـة التـي كانـت تشـتمل عـلى زهـاء عـشرة آلاف نسـمة تمـر عليهـا فتراهـا دمنـة، وربمـا وجـد فيهـا أحـد وربمـا لم يوجـد . وأمـا مـصر فخـلا معظمهـا وأمـا بيـوت الخليـج وزقـاق البركـة والمقـس ومـا تاخـم ذلـك فلـم يبـق فيهـا بيـت مسـكون أصـلا، بعدمـا كان كل قطـر منهـا قـدر مدينـة زحمـة مـن النـاس حتـى أن الربـاع والسـاكن والدكاكـين التـي في سرّة القاهـرة وخيارهـا أكثرهـا خـال خـراب. وإن ربعـا في أعمـر موضـع بالقاهـرة فيـه نيـف وخمسـون بيتـا كلهـا خاليـة سـوى أربعـة أبيـت أسـكنت مـن يحـرس الموضـع.

ومـما يقـضي منـه العجـب أن جماعـة مـن الذيـن مـا زالـوا مجدوديـن سـعدوا في دنياهـم هـذه السـنة فمنهـم مـن أثـرى بسـبب متجـره في القمـح

، ومنهم من أثرى بسبب مال انتقل إليه بالإرث، ومنهم من حسنت حاله لا بسبب معروف. فتبارك من بيده القبض والبسط ولكل مخلوق من عنايته قسط (البغدادي ٦٨).

وحكي لي أنه كان بمصر تسع مائة منسج للحصر، فلم يبق إلا خمسة عشر منسجا . وقس على هذا لسائر ما جرت العادة أن يكون بالمدينة من باعة وخبازين وعطارين وأساكفة وخياطين وغير ذلك من الأصناف فإنه لم يبق من كل صنف من هؤلاء إلا نحو ما بقي من الحصريين أو أقل من ذلك (البغدادي ٦٩).

حوادث الجوع ولقد رأيت امرأة يسحبها الرعاع في السوق وقد ظهر معها صغير مشوي تأكل منه، وأهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شؤونهم وليس فيهم من يعجب لذلك أو ينكره. فعاد تعجيب أشد وما ذلك إلا لكثرة تكرره على إحساسهم حتى صار في حكم المألوف الذي لا يستحق أن يتعجب منه (البغدادي ٦٢).

وظهر من هؤلاء الخبثاء من يصيد الناس بأصناف الحبائل ويجتلبونهم إلى مكانهم بأنواع المخاتل، وقد جرى ذلك لثلاثة من الأطباء ممن ينتابني. أما أحدهم فإن أباه خرج فلم يرجع، وأما الآخر فإن امرأة أعطته درهمين على أن يصحبها إلى مريضها فلما توغلت به في مضايق الطرق استراب وامتنع عنها وشنع عليها فتركت درهميها، وأما الثالث فإن رجلا استصحبه إلى مريضه في الشارع بزعمه وجعل في أثناء الطريق يصدف بالكسر ويقول اليوم يغتنم الصواب ويتضاعف الأجر ولمثل هذا فليعمل العاملون، ثم كثر حتى ارتاب منه الطبيب. ومع ذلك

فحسن الظن يغلبه وقوة الطمع تجذبه حتى أدخله دارا خربة فزاد استشعاره وتوقف في الدرج وسبق الرجل فاستفتح فخرج إليه رفيقه يقول له هل مع إبطائك حصل صيد ينفع فخرج الطبيب لما سمع ذلك، وألقى نفسه إلى اصطيل من طاقة صادفها . فقام إليه صاحب الاصطبل يسأله عن قضيته فأخفاها عنه خوفا منه أيضا، فقال قد علمت حالك فإن أهل هذا المنزل يذبحون الناس بالحبل (البغدادي ٦٣).

وهذه البلية التي شرحناها وجدت في جميع بلاد مصر ليس بلد إلا وقد أكل فيه الناس أكلا ذريعا من أسوان وقوص والفيوم والمحلة والاسكندرية ودمياط وسائر النواحي (البغدادي ٦٥).

وأما القتل والفتك في النواحي فكثير فج ولا سيما طريق الفيوم والإسكندرية. وقد كان بطريق الفيوم ناس في مراكب يرخصون الأجرة على الركاب فإذا توسطوا بهم الطرق ذبحوهم وتساهموا أسلابهم وظفر الوالي منهم بجماعة فمثل بهم وأقرَّ بعضهم عندما أوجع ضربا أن الذي خصه دون رفقائه ستة آلاف دينار.

وأما موت الفقراء هزالا وجوعا فأمر لا يطيق علمه إلا الله سبحانه وتعالى وإنما نذكر منه كالأنموذج يستدل به اللبيب على فظاعة الأمر.

فالذي شاهدناه بمصر والقاهرة وما تاخم ذلك أن الماشي أين كان لا يزال يقع قدمه أو بصره على ميت ومن هو في السياق أو على جمع كثير بهذه الحال. يرفع عن القاهرة خاصة إلى الميضأة كل يوم ما بين مائة إلى خمسمائة، وأما مصر فليس لموتاها عدد، ويرمون

ولا يـوارون ثـم بآخـره عجـز عـن رميهـم فبقـوا في الأسـواق بـين البيـوت والدكاكـين. وفيهـا الميـت منهـم قـد تقطـع وإلى جانبـه الشـواء والخبـاز ونحـوه (البغـدادي ٦٦)

وأمـا طريـق الشـام فقـد تواتـرت الأخبـار انهـا صـارت مزرعـة لبنـي آدم بـل محـصرة وأنـه عـادت مأدبـة بلحومهـم للطـير والسـباع وان كلابهـم التـي صحبتهـم مـن منجلاهـم هـي التـي تـأكل فيهـم (البغـدادي ٦٧).

الدجـاج: وأمـا الدجـاج فعـدم رأسـا لـولا أنـه جلـب منـه شيء مـن الشـام وحـكي لي أن رجـلا مصريـا شـارف الفقـر فألهـم أن اشـتري مـن الشـام دجاجـا بسـتين دينـارا وباعهـا بالقاهـرة عـلى القماطـين بنحـو ثمـاني مائـة دينـار. ولمـا وجـد البيـض بيـع بيضـة بدرهـم ثـم بيضتـين ثـم ثلاثـا ثـم أربـع واسـتمر عـلى ذلـك، وأمـا الفراريـج فبيـع الفـروج بمائـة درهـم ولبـث برهـة يبـاع الفـروج بدينـار فصاعـدا.

الأمـلاك: وأمـا الأمـلاك ذات الأجـر المعتـبرة فـإن معظمهـا خـلا أو لم يبـق دأب أهلهـا إلا حراسـتها بسـد أبوابهـا وتحصـين مسـالكها أو إسـكانها مـن يحرسـها بأجـرة اللـه إلا مـا كان مـن الملـك في قصبـة المدينـة فـإن بعضـه مسـكون بأخـف أجـرة وأعـرف ربعـا في أعمـر موضـع بالمدينـة كانـت أجرتـه في الشـهر مائـة وخمسـين دينـارا فعـادت في هـذه السـنة إلى نحـو عشريـن دينـارا، وآخـر في مثـل موضعـه كانـت أجرتـه في الشـهر سـتة عـشر دينـارا فعـادت إلى فريـق الدينـار وجميـع مـا لم نذكـره عـلى هـذا القيـاس أفهمـه (البغـدادي ٧).

درس التشريح: ومن عجيب ما شاهدنا أن جماعة ممن ينتابني في الطب وصلوا إلى كتاب التشريح فكان يعسر أفهامهم وفهمهم لقصور القول عن العيان. فأخذنا أن بالمقس تلأ فيه رمم كثيرة فخرجنا إليه فرأيناه تلا من رمم له مسافة طويلة يكاد يكون ترابه أقل من الموتى به نحدس ما يظهر منهم للعيان بعشرين ألفا فصاعدا وهم على طبقات في قرب العهد وبعده، فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها وأوضاعها ما أفادنا علما لا نستفيده من الكتب. أما أنها سكتت عنها أو لا يفي لفظها بالدلالة عليه أو يكون ما شاهدناه مخالفا لما قيل فيها (البغدادي ٧٣).

مصر كما رآها ابن سعيد: قال ابن سعيد ولما استقررت بالقاهرة تشوقت إلى معاينة الفسطاط فسار إليها أحد أصحاب القرية فرأيت عند باب زويلة من معي الحمير المعدة لركوب من يسير إلى الفسطاط جملة عظيمة لا عهد لي بمثلها في بلد . فركب منها حمارا وأشار إلى أن أركب حمارا آخر فأنفت من ذلك على عادة من أخلفته في بلاد المغرب فأخبرني أنه غير معيب على أعيان ،مصر، وعاينت الفقهاء وأصحاب البزة والشارة الظاهرة يركبونها فركبت، وعندما استويت راكبا أشار المكاري إلى الحمار فطار بي وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عيني ودنس ثيابي وعاينت ما كرهته. ولقلة معرفتي بركوب الحمار وشدة عدوه على قانون لم أعهده وقلة رفق المكاري وقعت في تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج فقلت:

لقيت بمصر أشدَّ البوار

ركـوب الحمير وكحل الغبار

وخلفـي مكار يفوق الرياح

لا يعرف الرفق مهما اسـتطار

أناديه مهلا فلا يرعوي

إلى أن سـجدت سجود العثار

وقـد مدَّ فوقي رواق الثرى

وألحـد فيها ضياء النَّهار

فدفعـت إلى المـكاري أجرتـه وقلـت لـه إحسـانك ان تتركنـي أمـشي عـلى رجـلي ومشـيت إلى أن بلغتهـا وقـدرت الطريـق بـين الفسـطاط والقاهـرة وحققتـه بعـد ذلـك نحـو ميلـين. ولمـا أقبلـت عـلى الفسـطاط أدبـرت عنـي المـسرة وتأملـت أسـوارا مثلمـة سـوداء وآفاقـا مغـبرة ودخلـت مـن بابها وهو دون غلـق يفـضي إلى خـراب مغمـور بمبـان مشـتتة الوضـع غـير مسـتقيمة الشـوارع قـد بنيـت مـن الطـوب الأدكـن والقصـب والنخيـل طبقـة فـوق طبقـة وحـول أبوابهـا مـن الـتراب الأسـود والأزبـال مـا يقبـض نفـس النظيف ويغـض طـرف الظريـف. فـسرت وأنـا معايـن لاسـتصحاب تلـك الحـال إلى أن صرت في أسـواقها الضيقـة فقاسـيت مـن ازدحـام النـاس فيهـا لحوائج السـوق والروايـا التـي عـلى الجـمال مـا لا تفـي بـه إلا مشـاهدته ومقاسـاته، إلى أن انتهيـت إلى المسـجد الجامـع فعاينـت مـن ضيـق الأسـواق التـي حولـه مـا ذكـرت ضـده في جامـع اشـبيلية وجامـع مراكـش ثـم دخلـت إليـه فعاينـت

جامعا كبيرا قديم البناء غير مزخرف ولا محتفل في حصره التي تدور مع بعض حيطانه وتنبسط فيه . وأبصرت العامة رجالا ونساء قد جعلوه معبرا بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق والبياعون يبيعون فيه أصناف المسكرات والكعك وما سوى ذلك. والناس يأكلون في عدة أمكنة منه غير محتشمين لجري العادة عندهم بذلك. وعدة صبيان بأواني ماء يطوفون على كل من يأكل قد جعلوا ما يحصل لهم منه رزقا . وفضلات مأكلهم مطروحة في صحن الجامع، وفي زواياه العنكبوت قد عظم نسجه في السقف والأركان والحيطان والصبيان يلعبون في صحنه وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة. إلا أن مع ذلك على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ما لا تجده في جامع اشبيلية مع زخرفة (المقري ١:٤٨٦)

واستحسنت ما أبصرته من خلق المتصدرين لإقراء القرآن والفقه والنحو في عدة أماكن وسألت عن موارد أرزاقهم فأخبرت أنها من فروض الزكاة وما أشبه ذلك. ثم أخبرت أن اقتضاء ذلك يصعب إلا بالجد والتعب.

ثم انفصلنا من هناك إلى ساحل النيل فرأيت ساحلا كدر التربة غير نظيف ولا متسع الساحة ولا مستقيم الاستطالة ولا عليه سور أبيض. إلا أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التي تصل من جميع أقطار النيل. ولئن قلت إني لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإني أقول حقا.

والحـال أن أهـل الفسـطاط في نهايـة مـن اللطافـة واللـين في الـكلام ورعايـة قـدر الصحبـة وكـثرة الممازحـة والألفـة، مـما يطـول ذكـره. وأمـا مـا يـرد عـلى الفسـطاط مـن متاجـر البحـر الاسـكندراني والبحـر الحجـازي فإنـه فـوق مـا يوصـف، وبـه مجمـع ذلـك لا بالقاهـرة، ومنهـا يجهـز إلى القاهـرة وسـائر البـلاد. وبالفسـطاط مطابـخ السـكر والصابـون ومعظـم مـا يجـري هـذا المجـرى لأن القاهـرة بنيـت للاختصـاص بالجنـد كـما أن جميـع زي الجنـد بالقاهـرة أعظـم منـه بالفسـطاط. وكذلـك مـا ينسـج ويصـاغ، وسـائر مـا يعمـل مـن الأشـياء الرفيعـة السـلطانية والحـراب في الفسـطاط كثـير . والقاهـرة أجـد وأعمـر وأكـثر زحمـة باعتبـار انتقـال السـلطان إليهـا وسـكنى الأجنـاد فيهـا (المقـري ٤٨٧:١).

والمـكان المعـروف بالقاهـرة بـين القصريـن هـو مـن الترتيـب السـلطاني لأن هنالـك سـاحة متسـعة للعسـكر والمتفرجـين مـا بـين القصريـن ولـو كانـت القاهـرة كلهـا كذلـك كانـت عظيمـة القـدر كاملـة الهمـة السـلطانية . ولكـن ذلـك أمـد قليـل ثـم تسـير منـه إلى أمـد أضيـق وتمـر في مـكان كـدر حـرج بـين الدكاكـين إذا ازدحمـت فيـه الخيـل مـع الرجالـة كان مـما تضيـق بـه الصـدور وتسـخن منـه العيـون. ولقـد عاينـت يومـا وزيـر الدولـة وبـين يديـه الأمـراء وهـو في موكـب جليـل وقـد لقـي في طريقـه عجلـة بقـر تحمـل حجـارة، وقـد سـدت جميـع الطـرق بـين يـدي الدكاكـين. ووقـف الوزيـر وعظـم الازدحـام وكان في موضـع طباخـين والدخـان في وجـه الوزيـر وعـلى ثيابـه وقـد كان يهلـك المشـاة وكـدت أهلـك في جملتهـم. وأكـثر دروب القاهـرة ضيقـة مظلمـة كثـيرة الـتراب والأزبـال، والمبـاني عليهـا مـن قصـب

وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينها . ولم أر في جميع بلاد المغرب أسوأ منها حالا في ذلك. ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدري وتدركني وحشة عظيمة حتى أخرج إلى بين القصرين. ومن عيوب القاهرة أنها في أرض النيل الأعظم ويموت الإنسان فيها عطشا لبعدها عن مجرى النيل لئلا يصادرها ويأكل ديارها . وإذا احتاج الإنسان إلى فرجة في نيلها مشي في مسافة بعيدة بظاهرها بين المباني التي خارج السور إلى موضع يعرف بالمقس. وجوها لا يبرح كدرا مما تثيره الأرض من التراب الأسود.

والفسطاط أكثر أرزاقا وأرخص أسعارا من القاهرة لقرب النيل من الفسطاط. والمراكب التي تصل بالخيرات تحط هناك ويباع ما يصل فيها بالقرب منها، وليس يتفق ذلك في ساحل القاهرة لأنه يبعد عن المدينة والقاهرة هي أكثر عمارة واحتراما وحشمة من الفسطاط، لأنها أجلُّ مدارس وأضخم خانات وأعظم ديارا بسكنى الأمراء فيها لأنها المحفوفة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها . فأمور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر وبها الطراز، وسائر الأشياء التي تتزين بها الرجال والنساء... ومطابخ السكر والمواضع التي يصنع بها الورق المنصوري مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة... والمعايش فيها متعذرة نزرة لا سيما أصناف الفضلاء، وجوامك المدارس قليلة كدرة ... والفقير المجرد فيها يستريح بجهة رخص الخبز وكثرته ... المقري(١:٤٨٩)

فرسان السلطان: والقسم الأكبر من فرسان السلطان أصله رقيق حمله التجار من بلاد غريبة وباعوه بأسعار عالية ... وقد يكون بعضهم

أسرى حـرب أخذهـم الأمـير الظافـر بـدل الضريبـة التـي لم يكـن للمقهوريـن أن يدفعوهـا.

والسـلطان يحتفـظ بـالأولاد منهـم في قـصره حتـى يطـر شـاربهم، وعندهـا يعطـى لـكلّ القـوس التـي يسـتطيع أن يثنيهـا ، والضعفـاء منهـم يوضعـون في دور السـلاح ليعملـوا هنـاك... وأمـا الأقويـاء فيصبحـون فرسـانا يحملـون سـلاح السـلطان وشـاراته (أي ركنـه) وهـؤلاء هـم رجـال الحلقـة، أو حـرس السـلطان الخـاص فينامـون في حراسـته، وإذا كانـوا في المعسـكر نامـوا حولـه ليتمكنـوا مـن القيـام بذلـك (جوانفيـل ٢٠٥).

ويقيـم قـرب خيمـة السـلطان حملـة الأبـواق والطبـول، ويضربونهـا مـرة عنـد الفجـر وأخـرى عنـد الغـروب، فتـدوي في أنحـاء المعسـكر جميعهـا ... أمـا في غـير هذيـن الوقتـين فـلا تقـرع الطبـول إلا بأمـر رئيـس الحلقـة، وذلـك عندمـا يريـد السـلطان أن يبلـغ أمـراءه أمـرا هامـا.

ومـن رجـال الحلقـة يختـار السـلطان أمـراء جنـده، فيوليهـم إمـرة مئـة أو مئتـين أو ثلاثمئـة مـن الجنـد (جوانفيـل ٢٠٥).

الـشَّرق العربي في القرن الرَّابع عشر

•••

الموانئ وتجارتها

طرابلـس: وهـي الآن مدينـة ممتـدة كثـيرة الزحـام وبهـا مسـاجد ومـدارس وزوايـا وبيمارسـتان وأسـواق جليلـة وحمامـات حسـان وجميـع بنائهـا بالحجـر والكلـس مبيضـا ظاهـرا وباطنـا، وغوطتهـا محيطـة بهـا، وتحيـط بغوطتهـا مزروعاتهـا وهـي بديعـة المشـترف ولهـا نهـر يحكـم عـلى ديارهـا وطباقهـا، يتخـرق المـاء في مواضـع مـن أعـالي بيوتهـا لا يرقـى بالـدرج العليـة وحولهـا جبـال شـاهقة صحيحـة الهـواء خفيفـة المـاء وذات أشـجار وكـروم ومـروج ومـواش. ومينـاهـا مينـا جليلـة تهـوي إليهـا وفـود البحـر الرومـي وترسـو بهـا مراكبهـم وتبـاع بهـا بضائعهـم. وهـي بلـدة متجـر وزروع كثـيرة الفائـدة (صبـح الأعـشى ٤ -١٤٣)

ومدينـة طرابلـس هـي إحـدى قواعـد الشـام وبلدانهـا الضخـام تخترقهـا الأنهـار وتحفهـا البسـاتين والأشـجار ويكتفهـا البحـر بمرافقـه العميمـة والـبر بخيراتـه المقيمـة. ولهـا الأسـواق العجيبـة والمسـارع الخصيبـة والبحـر عـلى ميلـين منهـا وهـي حديثـة البنـاء - وأمـا طرابلـس القديمـة فكانـت عـلى ضفـة البحـر وتملكهـا الـروم زمانـا فلـما اسـترجعها الملـك الظاهـر خربـت واتخـذت هـذه الحديثـة. وبهـذا المدينـة نحـو أربعـين مـن أمـراء الأتـراك (ابـن بطوطـة ٣٧).

صـور: للمدينـة ميـنـاء ان مثـل عـكاء الداخـلي لسـفن المدينـة، والخارجـي للأجانـب وهـي حصينـة، ويحـرس ميناءهـا برجـان تسـحب بينهـما سلسـلة (سـوخم ٥١).

عـكا: وعـكا اليـوم تسـكنها حامـية صغـيرة مـن المسـلمين لا يتجـاوز عددهـا السـتين تتـولى حراسـة المدينـة والمينـاء. ويعيـش أفرادهـا مـن الحريـر والطيـور، لأن الحجـل في جهاتهـا كثـير (سـوخم ٥٠ ومـا بعدهـا).

الإسـكندرية: أكـبر ميـنـاء مـصري وإحـدى المـدن الكـبرى في ملـك السـلطان. والمدينـة جميلـة جـدا وحصينـة تحيـط بهـا أبـراج عاليـة وأسـوار يخيـل إليـك أنـه لا يمكـن ثغرهـا ... داخلهـا نظيـف مبيـض. وعنـد كل ناصيـة شـارع يوجـد سـبيل مـاء. يـشرف عـلى نظافتهـا حـراس عملهـم أن يزيلـوا الأقـذار التـي تطرحهـا السـابلة في الشـوارع ويحتفـظ هـذه المدينـة بجنـده مـن المرتزقـة وحرسـه الخـاص الذيـن يترتـب عليهـم السـلطان في حراسـة المدينـة والمينـاء.

وفي المدينـة كنائـس كثـيرة واحـدة منهـا كبـيرة يقـام فيهـا القـداس عـلى طريقـة البنادقـة ... وفيهـا كثـير مـن النصـارى والتجـار ... ومـع أن المدينـة تبـدو للعيـان غـير قابلـة للثغـر، فإنـه مـن السـهل فتحهـا، لكننـي لا أريـد أن أتحـدث عـن ذلـك الآن... وعـلى مقربـة مـن الإسـكندرية قريـة يتقـن أهلهـا صناعـة الحـصر، ويتفننـون في صنعهـا (سـوخم ٤٥).

البـصرة: وكنـت رأيـت عنـد قدومـي عليهـا عـلى نحـو ميلـين منهـا بنـاء عاليـا مثـل الحصـن فسـألت عنـه فقيـل لي هـو مسـجد عـلي بـن أبي طالـب رضي اللـه عنـه. وكانـت البـصرة مـن اتسـاع الخطـة وانفسـاح السـاحة

بحيث كان هذا المسجد في وسطها وبينه الآن وبينها ميلان وكذلك بينه وبين السور الأول المحيط بها نحو ذلك، فهو متوسط بينهما . ومدينة البصرة إحدى أمهات العراق الشهيرة الذكر في الآفاق الفسحة الأرجاء الموثقة الأفنان ذات البساتين الكثيرة والفواكه الأثيرة توفر قسمها من النضارة والخصب لما كانت مجمع البحرين الأجاج والعذب، وليس في الدنيا أكثر منها نخلا فيباع التمر في سوقها بحساب أربعة عشر رطلا مراقبة بدرهم، ودرهمهم ثلث النقرة ولقد بعث إلى قاضيها حجة الدين بقوصرة تمر يحملها الرجل على تكلف فأردت بيعها فبعت بتسعة دراهم أخذ الحمال منها ثلثها عن أجرة حملها من المنزل إلى السوق. ويصنع بها من التمر عسل يسمى السيلان وهو طيب كأنه الجلاب والبصرة ثلاث محلات إحداها محلة هذيل وكبيرها الشيخ الفاضل علاء الدين بن الأثير من الكرماء الفضلاء أضافني وبعث إلي بثياب ودراهم، والمحلة الثانية محلة بني حرام كبيرها السيد الشريف مجد الدين موسى الحسني ذو مكارم وفواضل أضافني وبعث إلي التمر والسيلان والدراهم، والمحلة الثالثة محلة العجم كبيرها جمال الدين بن اللونكي. وأهل البصرة لهم مكارم أخلاق وإيناس للغريب وقيام بحقه فلا يستوحش فيما بينهم غريب (ابن بطوطة ١١٥).

ثم ركبت من ساحل البصرة في صنبوق وهو القارب الصغير إلى الإبلة، وبينها وبين البصرة عشرة أميال في بساتين متصلة ونخيل مظلة على اليمين واليسار والبياعة في ظلال الأشجار يبيعون الخبز والسمك والتمر واللبن والفواكه. وفيما بين البصرة والابلة متعبد سهل بن عبد الله التستري فإذا حاذاه الناس بالسفن تراهم يشربون الماء مما يحاذيه

مـن الـوادي ويدعـون عـن ذلـك تـبركا بهـذا الـولي رضي اللـه عنـه. والنواتيـة يجدفـون في هـذه البـلاد وهـم قيـام. وكانـت الابلـة مدينـة عظيمـة يقصدهـا تجـار الهنـد وفـارس فخربـت وهـي الآن قريـة بهـا آثـار قصـور وغيرهـا دالـة عـلى عظمتهـا (ابـن بطوطـة ١١٧).

عـدن: وعـدن عـلى سـاحل البحـر ذات حـط وإقـلاع وهـي أعظـم المـراسي باليمـن وبهـا قلعـة حصينـة. وهـي خزانـة ملـوك إلا أنـه ليـس بهـا زرع ولا ضرع، وهـي فرضـة اليمـن ومحـط رحـال التجـار. ولم تـزل بلـد تجـارة مـن زمـن التبابعـة وإلى زماننـا . عليهـا تـرد المراكـب الموصلـة مـن الحجـاز والسـند والهنـد والصـين والحبشـة ويمتـاز أهـل كل اقليـم منهـا مـا يحتاجـون إليـه مـن البضائـع... ولا يخلـو أسـبوع مـن عـدة سـفن وتجـار ورديـن عليهـا وبضائـع شـتى ومتاجـر منوعـة والمقيـم بهـا في مكاسـب وافـرة وتجائـر مربحـة. ولحـطّ المراكـب عليهـا وإقلاعهـا مواسـم مشـهورة، فـإذا أراد ناخـوذة (أي وكيـل السـفينة) السـفر بمركـب إلى جهـة مـن الجهـات أقـام فيهـا علـما برنـك خـاص بـه فيعلـم التجـار بسـفره ويتسـامع النـاس فيبقـى كذلـك أيامـا ، ويقـع الاهتـمام بالرحيـل وتسـارع التجـار في نقـل أمتعتهـم، وحولهـم العبيـد بالقـماش السـري والأسـلحة النافعـة وتنصـب عـلى شـاطيء البحـر الأسـواق ويخـرج أهـل عـدن للتفـرج هنـاك... والمقيـم في عـدن يحتـاج إلى كلفـة في النفقـات لارتفـاع الأسـعار بهـا في المـاكل والمشـارب ويحتـاج المقيـم بهـا إلى مـا يتـبرد بـه في اليـوم مـرات في زمـن قـوة الحـر... ولكـن أهلهـا لا يبالـون بكـثرة الكلـف ولا بسـوء المقـام لكـثرة الأمـوال الناميـة (صبـح الأعـشى ٥: ١١)

مدينة عدن مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الأعظم والجبال تحف بها ولا مدخل إليها إلا من جانب واحد وهي مدينة كبيرة ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء بها صهاريج يجتمع فيها الماء أيام المطر ، والماء على بعد منها فربما منعته العرب وحالوا بين أهل المدينة وبينه حتى يصانعوهم بالمال والثياب. وهي شديدة الحر وهي مرسى أهل الهند تأتي إليها المراكب العظيمة من كنبليت وتانه وكولم وقالقوط وفندراينه والشاليات ومنجرور وفاكتور وهنور وسندا بو وغيرها. وتجار الهند ساكنون بها وتجار مصر أيضا. وأهل عدن ما بين تجار وحمالين وصيادين للسمك. وللتجار منهم أموال عريضة وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الأموال، ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة (ابن بطوطة ١٥٩).

عُمان: وسلطانها عربي من قبيلة الأزد بن الغوث ويعرف بأبي محمد بن نبهان، وأبو محمد عندهم سمة لكل سلطان يلي عمان كما هي أتابك عند ملوك اللور. وعادته أن يجلس خارج باب داره في مجلس هنالك ولا حاجب له ولا وزير ولا يمنع أحدا من الدخول إليه من غريب أو غيره. ويكرم الضيف على عادة العرب ويعين له الضيافة ويعطيه على قدره وله أخلاق حسنة، ويؤكل على مائدته لحم الحمار الأنسي ويباع بالسوق لأنهم قائلون بتحليله ولكنهم يخفون ذلك عن الوارد ولا يظهرونه بمحضره (ابن بطوطة ١٥٩).

المدن الكبرى

في النيـل: ومـن هـذه المدينـة (الاسـكندرية) ركبـت النيـل مصعـدا إلى مـصر مـا بـين مدائـن وقـرى منتظمـة متصـل بعضهـا ببعـض. ولا يفتقـر راكـب النيـل إلى اسـتصحاب الـزاد لأنـه مهـما أراد النـزول بالشـاطيء نـزل للوضـوء والصـلاة وشراء الـزاد وغـير ذلـك. والأسـواق متصلـة مـن مدينـة الاسـكندرية إلى مـصر، ومـن مـصر إلى مدينـة أسـوان مـن الصعيـد (ابـن بطوطـة ١٩).

القاهـرة: مـصر هـي أم البـلاد وقـرارة فرعـون ذي الأوتـاد ذات الأقاليـم العريضـة والبـلاد الأريضـة المتناهيـة في كـثرة العـمارة المتباهيـة بالحسـن والنضـارة بجميـع الـوارد والصـادر ومحـطّ رحـل الضعيـف والقـادر ، وبهـا مـا شـئت مـن عـالم وجاهـل وجـاد وهـازل وحليـم وسـفيه ووضيـع ونبيـه وشريـف ومـشروف ومنكـر ومعـروف، تمـوج مـوج البحـر بسـكانها وتـكاد تضيـق بهـم عـلى سـعة مكانهـا وإمكانهـا. شـبابها يجـد عـلى طـول العهـد وكوكـب تعديلهـا لا يـبرح عـن منـزل السـعد، فبهـرت قاهرتهـا الأمـم وتمكنت ملوكهـا نـواصي العـرب والعجـم. ولهـا خصوصيـة النيـل الـذي جـل خطرهـا وأغناهـا عـن أن يسـتمد القطـر قطرهـا ، وأرضهـا مسـيرة شـهر لمجـد السـيرة كريـة التربـة مؤنسـة لـذوي الغربـة.

ويقـال إن بمـصر مـن السـقائين عـلى الجـمال اثنـي عـشر ألـف سـقاء وإن كان بهـا ثلاثـين ألـف مـكان وأن بنيلهـا مـن المراكـب سـتة وثلاثـين ألفـا للسـلطان والرعيـة تمـرّ صاعـدة إلى الصعيـد ومنحـدرة إلى الاسـكندرية ودميـاط بأنـواع الخـيرات والمرافـق. وعـلى ضفـة النيـل بمـا يواجـه مـصر

الموضـع المعـروف بالروضـة وهـو مـكان النزهـة والتفـرج بـه والبسـاتين الكثـيرة الحسـنة وأهـل مـصر ذوو طـرب وسرور ولهـو، شـاهدت بهـا مـرة فرجـة بسـبب بـرء الملـك النـاصر مـن كـسر أصـاب يـده فزيـن كل أهـل سـوق سـوقهم وعلقـوا بحوانيتهـم الحلـل والحـلى وثيـاب الحريـر وبقـوا عـلى ذلـك أيامـا (ابـن بطوطـة ١٩).

بـين مـصر وفلسـطين وبـكل منـزل منهـا فنـدق وهـم يسـمونه الخـان ينزلـه المسـافرون بدوابهـم، وبخـارج كل خـان سـاقية للسـبيل وحانـوت يشـتري منهـا المسـافر مـا يحتاجـه لنفسـه ودابتـه.

ومـن منازلهـا قطيـا المشـهورة (وهـي بفتـح القـاف وسـكون الطـاء ويـاء آخـر الحـروف مفتوحـة وألـف والنـاس يبدلـون الفهـا هـاء تأنيـث) وبهـا تؤخـذ الـزكاة مـن التجـار وتفتـش أمتعتهـم ويبحـث عـما لديهـم أشـد البحـث. وفيهـا الدواويـن والعـمال والكتـاب والشـهود. ومجباهـا في كل يـوم ألـف دينـار مـن الذهـب. ولا يجـوز عليهـا أحـد مـن الشـام إلا بـبراءة مـن مـصر، ولا إلى مـصر إلا بـبراءة مـن الشـام، احتياطـا عـلى أمـوال النـاس وتوقيـا مـن الجواسـيس العراقيـين وطريقهـا في ضـمان العـرب قـد وكلـوا بحفظـه فـإذا كان الليـل مسـحوا عـلى الرمـل لا يبقـى بـه أثـر. ثـم يـأتي الأمـير صباحـا فينظـر إلى الرمـل فـإن وجـده بـه أثـرا طالـب العـرب بإحضـار مؤثـره، فيذهبـون في طلبـه فـلا يفوتهـم، فيأتـون بـه الأمـير فيعاقبـه بمـا شـاء. وكان بهـا في عهـد وصـولي إليهـا عـز الديـن أسـتاذ الـدار اقـماري مـن خيـار الأمـراء اضافنـي وأكرمنـي وأبـاح الجـواز لمـن كان معـي. وبـين يديـه عبـد الجليـل المغـربي الوقـاف وهـو يعـرف المغاربـة وبلادهـم فيسـأل مـن

ورد منهم من أي بلاد لئلا هو يلبس عليهم فإن المغاربة لا يعترضون جوازهم على قطيا . ثم سرنا حتى وصلنا إلى مدينة غزة وهي أول بلاد الشام مما يلي مصر متسعة الأقطار كثيرة العمارة حسنة الأسواق بها المساجد العديدة والأسوار عليها (ابن بطوطة ٣١).

نابلس: مدينة نابلس وهي مدينة عظيمة كثيرة الأشجار مطردة الأنهار من أكثر بلاد الشام زيتونا، ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق وبها تصنع حلواء الغروب وتجلب إلى دمشق وغيرها (وكيفية عملها) أن يطبخ الخروب ثم يعصر ويؤخذ ما يخرج منه من الرَّب فتصنع منه الحلواء ويجلب ذلك الرب أيضا إلى مصر والشام وبها البطيخ المنسوب إليها وهو طيب عجيب (ابن بطوطة ٣٥).

دمشق: ودمشق عظيمة فخمة جميلة وغنية بكل أنواع المتاجر وفي كل ناحية منها شيء مبهج، وإن كانت تغلب عليها الصنعة، فالطعام فيها كثير، وكذلك التوابل والحجارة الكريمة والحرير واللآلي والأقمشة المقصبة والطيوب من الهند وبلاد التتار ومصر وسورية والبلاد الواقعة إلى جهتنا (أوروبة) من البحر المتوسط. وكل ما يتمنى المرء يجده فيها ... وأنهارها وبساتينها مهيأة للإنسان ليستمتع بها ويتنعم وهي كثيرة السكان إلى حد لا يصدق. ويقيم فيها الصناع المختلفون والتجار. وتزين داخلها الحمامات الكثيرة، والطيور التي تصدح طول العام، وغير ذلك من المبهجات والأمور السارة.

وتقوم صناعاتها المختلفة كل في حي خاص. وكل صانع يجعل أمام بيته مكانا يعرض فيه مصنوعاته عرضا يلفت النظر ويغري بالشراء. وكذلك يفعل التجار في سلعهم. وكل ما يصنع فيها متقن والتجار يحتفظون بالطيور في أقفاص أمام بيوتهم... ومع أن المدينة مزدحمة بالسكان، ومع أن البضائع تترك في الشوارع دون حراسة فليس ثمة من يذكر أن أحدا قتل في دمشق وقلما تسرق فيها السلع المعروضة للبيع (سوخم ١٢٩).

الموصل: وهي مدينة عتيقة كثيرة الخصب وقلعتها المعروفة بالحدباء عظيمة الشأن شهيرة الامتناع عليها سور محكم البناء مشيد البروج وتتصل بها دور السلطان وقد فصل بينها وبين البلد شارع متسع مستطيل من أعلى البلد إلى أسفله وعلى البلدين سوران اثنان وثيقان أبراجهما كثيرة متقاربة وفي باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره قد يمكن فتحها فيه السعة. ولم أر في أسوار البلاد مثله إلا السور الذي على مدينة دهلي حاضرة ملك الهند . وللموصل ربض كبير فيه المساجد والحمامات والفنادق والأسواق وبه مسجد جامع على شط الدجلة تدور به شبابيك حديد وتتصل به مساطب تشرف على دجلة في النهاية من الحسن والإتقان وأمامه مارستان (ابن بطوطة ١٤٨).

حماة: حماة إحدى أمهات الشام الرفيعة ومدائنها البديعة ذات الحسن الرائق والجمال الفائق تحفها البساتين والجنات عليها النواعير كالأفلاك الدائرات يشقها النهر العظيم المسمى بالعاصي ولها ربض

سـمي بالمنصوريـة أعظـم مـن المدينـة فيـه الأسـواق الحافلـة والحمامـات الحسـان وبحـماة الفواكـه الكثـيرة ومنهـا المشـمش اللـوزي (ابـن بطوطـة ٣٨).

سرمـين: سرمـين وهـي حسـنة كثـيرة البسـاتين وأكـثر شـجرها الزيتـون وبهـا يصنـع الصابـون الأجـري ويجلـب إلى مـصر والشـام ويصنـع بهـا أيضـا الصابـون المطيـب لغسـل الأيـدي ويصبغونـه بالحمـرة والصفـرة ويصنـع بهـا ثيـاب قطـن حسـان تنسـب إليهـا وأهلهـا سـبابون يبغضـون العـشرة ومـن العجـب أنهـم لا يذكـرون لفـظ العـشرة وينـادي سـماسرتهم بالأسـواق عـلى السـلع فـإذا بلغـوا إلى العـشرة قالـوا تسـعة وواحـد (ابـن بطوطـة ٣٩).

بعلبـك: مدينـة بعلبـك حسـنة قديمـة مـن أطيـب مـدن الشـام تحـدق بهـا البسـاتين الشريفـة والجنـات المنيفـة وتخـترق أرضهـا الأنهـار الجاريـة وتضاهـي دمشـق في خيراتهـا المتناهيـة وبهـا مـن حـب الملـوك مـا ليـس في سـواها وبهـا يصنـع الدبـس المنسـوب إليهـا، وهـو نـوع مـن الـرب يصنعونـه مـن العنـب ولهـم تربـة يضعونهـا فيـه فيجمـد وتكـسر القلـة التـي يكـون بهـا فيبقـى قطعـة واحـدة وتصنـع منـه الحلـواء ويجعـل الفسـتق واللـوز ويسـمونها حلـواء بالملـبن ويسـمونها أيضـا بجلـد الفـرس وهـي كثـيرة الألبـان وتجلـب منهـا إلى دمشـق وبينهـما مسـيرة يـوم للمجـد.

ويصنـع ببعلبـك الثيـاب المنسـوبة إليهـا مـن الأحـرام وغـيره ويصنـع بهـا أواني الخشـب وملاعقـه التـي لا نظـير لهـا في البـلاد. وهـم يسـمون الصحـاف بالدسـوت وربمـا صنعـوا الصحفـة وصنعـوا صحفـة أخـرى تسـع في جوفهـا

وأخـرى تسـع في جوفهـا وأخـرى في جوفهـا إلى أن يبلغـوا العـشر يخيـل لرائيهـا أنهـا صحفـة واحـدة، وكذلـك الملاعـق ويصنعـون منهـا عـشرا واحـدة في جـوف واحـدة ويصنعـون لهـا غشـاء مـن جلـد ويمسـكها الرجـل في حزامـه وإذا حـضر طعامـا مـع أصحابـه أخـرج ذلـك فيظـن رائيـه أنهـا ملعقـة واحـدة ثـم يخـرج مـن جوفهـا تسـعا (ابـن بطوطـة ٤٩).

بـين الحجـاز والعـراق: كان في الركـب جمـع مـن العراقيـين والخراسـانيين والفارسـيين لا يحـصى عديدهـم تمـوج بهـم الأرض موجـا ويسـيرون سـير السـحاب المتراكـم فمـن خـرج عـن الركـب لحاجـة ولم تكـن لـه علامـة يسـتدل بهـا عـلى موضعـه ضـل عنـه لكـثرة النـاس. وفي هـذا الركـب نواضـح كثـيرة لأبنـاء السـبيل يسـتقون منهـا المـاء وجـمال لرفـع الـزاد للصدقـة ورفـع الأدويـة والأشربـة والسـكر لمـن يصيبـه مـرض. وإذا نـزل الركـب طبـخ الطعـام في قـدور نحـاس عظيمـة تسـمى الدسـوت وأطعـم منهـا أبنـاء السـبيل ومـن لا زاد معـه. وفي الركـب جملـة مـن الجـمال يحمـل عليهـا مـن لا قـدرة لـه عـلى المـشي. كل ذلـك مـن صدقـات السـلطان أبي سـعيد . وفي هـذا الركـب الأسـواق الحافلـة والمرافـق العظيمـة وأنـواع الأطعمـة والفواكـه وهـم يسـيرون بالليـل ويوقـدون المشـاعل أمـام القطـار والمحـارات فـترى الأرض تتـلألأ نـورا والليـل قـد عـاد نهـارا (ابـن بطوطـة ١٠٧).

وسـافرنا إلى البـصرة صحبـة رفقـة كبـيرة مـن عـرب خفاجـة وهـم أهـل تلـك البـلاد ولهـم شـوكة عظيمـة وبـأس شـديد ولا سـبيل للسـفر في تلـك الأقطـار إلا بصحبتهـم فاكتريـت جمـلا عـلى يـد أمـير تلـك القافلـة شـامر بـن دارج الخفاجـي (ابـن بطوطـة ١١٣).

واسط: وهي حسنة الأقطار كثيرة البساتين والأشجار بها أعلام يهدي الخبر شاهدهم وتهدي الاعتبار مشاهدهم وأهلها من خيار أهل العراق بل هم خيرهم على الإطلاق. أكثرهم يحفظون القرآن الكريم ويجيدون تجويده بالقراءة الصحيحة وإليهم يأتي أهل بلاد العراق برسم تعلم ذلك. وكان في القافلة التي وصلنا فيها جماعة من الناس أتوا برسم تجويد القرآن على من بها من الشيوخ وبها مدرسة عظيمة حافلة فيها نحو ثلاثمائة خلوة ينزلها الغرباء القادمون لتعليم القرآن عمرها الشيخ تقي الدين عبد المحسن الواسطي وهو من كبار أهلها وفقهائها ويعطى لكل متعلّم بها كسوة السنة ويجري نفقته في كل يوم يقعد هو وإخوانه وأصحابه لتعليم القرآن بالمدرسة. وقد لقيته وأضافني وزوّدني تمرا .ودراهم ولما نزلنا مدينة واسط أقامت القافلة ثلاثا بخارجها للتجارة (ابن بطوطة ١١٤).

دخلت المدينة على باب بغداد ووصلنا إلى سوق عظيمة تعرف بسوق قازان من أحسن سوق رأيتها في بلاد الدنيا كل صناعة فيها على حدة لا تخالطها أخرى واجتزت بسوق الجوهريين فحار بصري مما رأيته من أنواع الجواهر وهي بأيدي مماليك حسان الصور عليهم الثياب الفاخرة وأوساطهم مشدودة بمناديل الحرير وهم بين أيدي التجار يعرضون الجواهر على نساء الأتراك وهنَّ يشترينه كثيرا ويتنافسن فيه فرأيت من ذلك كله فتنة يستعاذ بالله منها ودخلنا سوق العنبر والمسك فرأينا مثل ذلك وأعظم (ابن بطوطة ١٤٧).

مكـة: كل طرفـة تجلـب إليهـا وثمـرات كل شيء تجبـى لهـا ولقـد أكلـت بهـا مـن الفواكـه العنـب والتـين والخـوخ والرطـب مـا لا نظـير لـه في الدنيـا . وكذلـك البطيـخ المجلـوب إليهـا لا يماثلـه سـواه طيبـا وحـلاوة واللحـوم بهـا سـمان لذيـذات الطعـوم وكل مـا يفـترق في البـلاد مـن السـلع فيهـا اجتماعـه. وتجلـب لهـا الفواكـه والخـضر مـن الطائـف ووادي نخلـة وبطـن مـر. وخـدام هـذا المسـجد الشريـف وسـدنته فتيـان مـن الأحابيـش وسـواهم وهـم عـلى هيئـات حسـان وصـور نظـاف ملابـس ظـراف وكبيرهـم يعـرف بشـيخ الخـدام وهـو في هيئـة الأمـراء الكبـار ولهـم المرتبـات بديـار مـصر والشـام ويـؤتى إليهـم بهـا في كل سـنة . ورئيـس المؤذنـين بالحـرم الشريـف الإمـام المحـدث الفاضـل جـمال الديـن المطـري مـن مطريـة بمـصر (ابـن بطوطـة ٧٣).

ولأهـل مكـة الأفعـال الجميلـة والمـكارم التامـة والأخـلاق الحسـنة والإيثـار إلى الضعفـاء والمنقطعـين وحسـن الجـوار للغربـاء. ومـن مكارمهـم انـه متـى صنـع أحدهـم وليمـة يبـدأ فيهـا بأطعـام الفقـراء المنقطعـين المجاوريـن ويسـتدعيهم بتلطـف ورفـق وحسـن خلـق ثـم يطعمهـم وأكـثر المسـاكين المنقطعـين يكونـون بالأفـران حيـث يطبـخ النـاس أخبازهـم فـإذا طبـخ أحدهـم خبـزه واحتملـه إلى منزلـه فيتبعـه المسـاكين فيعطـي لـكل واحـد منهـم مـا قسـم لـه ولا يردّهـم خائبـين ولـو كانـت لـه خبـزة واحـدة فإنـه يعطـي ثلثهـا أو نصفهـا طيـب النفـس بذلـك مـن غـير ضجـر. ومـن أفعالهـم الحسـنة أن الأيتـام الصغـار يقعـدون بالسـوق ومـع كل واحـد منهـم قفتـان كـبرى وصغـرى وهـم يسـمون القفـة مكتـلا فيـأتي الرجـل مـن أهـل مكـة

السوق فيشتري الحبوب واللحم والخضر ويعطي ذلك للصبي فيجعل الحبوب في إحدى قفتيه واللحم والخضر في الأخرى ويوصل ذلك إلى دار الرجل ليهيأ له طعامه منها ، ويذهب الرجل إلى طوافه وحاجته فلا يذكر أن أحدا من الصبيان خان الأمانة في ذلك قط بل يؤدي ما حمل على أتم الوجوه ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس وأكثر لباسهم البياض فترى ثيابهم أبدا ناصعة ساطعة ويستعملون الطيب كثيرا ويكحلون ويكثرون السواك بعيدان الأراك الأخضر، ونساء مكة فائقات الحسن بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف وهنَّ يكثرن التطيب حتى إن إحداهن لتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيبا، وهنَّ يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة فيأتين في أحسن زي وتغلب على الحرم راحة طيبهنَّ وتذهب المرأة منهنَّ فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقا (ابن بطوطة ٩١).

وأهل مكة لا يأكلون في اليوم إلا مرة واحدة بعد العصر ويقتصرون عليها مثل ذلك الوقت، ومن أراد الأكل في سائر النهار أكل التمر ولذلك صحت أبدانهم وقلت فيهم الأمراض والعاهات.

والحسب عندهم أن يعطي أحدهم هدية من عمامة أو شاشية بمحضر الناس تكون جوازا لمن أعطيته ولا تزول حرمتها معه حتى يريد الرحلة والتحول عن مكة (ابن بطوطة ٩٣).

الجهة الشرقية من بغداد حافلة الأسواق عظيمة الترتيب وأعظم أسواقها سوق يعرف بسوق الثلاثاء كل صناعة فيه على حدة. وفي وسط هذا السوق المدرسة النظامية العجيبة التي صارت الأمثال تضرب بحسنها، وفي آخره المدرسة المستنصرية ونسبتها إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر ابن أمير المؤمنين الظاهر ابن أمير المؤمنين الناصر. وبها المذاهب الأربعة لكل مذهب ايوان فيه المسجد وموضع التدريس وجلوس المدرس في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط ويقعد المدرّس وعليه السكينة والوقار لابسا ثيابا ،سودا، معتما، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه . وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة. وفي داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ودار الوضوء (ابن بطوطة ١٤١).

تبوك: ومن عادة حجاج الشام إذا وصلوا منزل تبوك أخذوا أسلحتهم وجردوا سيوفهم على المنزل وضربوا النخيل بسيوفهم يقولون هكذا دخلها رسول الله، وينزل الركب العظيم على هذه العين فيروي منها جميعهم ويقيمون أربعة أيام للراحة وإرواء الجمال واستعداد الماء للبرية المخوفة التي بين العلا وتبوك. ومن عادة السقائين أنهم ينزلون على جوانب هذه العين، ولهم أحواض مصنوعة من جلود الجواميس كالصهاريج الضخام ويسقون منها الجمال ويملأون الروايا والقرب ولكل أمير أو كبير حوض يسقي منه جماله وجمال أصحابه ويملأ رواياهم

وسـواهم مـن النـاس يتفـق مـع السـقائين عـلى سـقي جملـه وملء قربتـه بـشيء معلـوم مـن الدراهـم (ابـن بطوطـة ٦٨).

في دمشـق: وأهـل دمشـق لا يعملـون يـوم السـبت عمـلا، وإنمـا يخرجـون إلى المنتزهـات وشـطوط الأنهـار ودوحـات الأشـجار بـين البسـاتين النـضرة والميـاه الجاريـة فيكونـون بهـا يومهـم إلى الليـل (ابـن بطوطـة ٥٢).

حـول الجامـع: وللبـاب دهليـز كبـير متسـع فيـه حوانيـت السـقاطين وغيرهـم ومنـه يذهـب إلى دار الخيـل وعـن يسـار الخـارج منـه سـماط الصفاريـن وهـي سـوق عظيمـة ممتـدة مـع جـدار المسـجد القبـلي مـن أحسـن أسـواق دمشـق (ابـن بطوطـة ٥٥).

وقـد قامـت عليهـا شـوارع مسـتديرة فيهـا دكاكـين البزازيـن وغيرهـم وعليهـا شـوارع مسـتطيلة فيهـا حوانيـت الجوهريـين والكتبيـين وصنـاع أواني الزجـاج العجيبـة وفي الرحبـة المتصلـة بالبـاب الأول دكاكـين لكبـار الشـهود منهـا دكان للشـافعية وسـائر أصحـاب المذاهـب يكـون في الـدكان منهـا الخمسـة والسـتة مـن العـدول والعاقـد للأنكحـة مـن قبـل القـاضي. وسـائر الشـهود مفترقـون في المدينـة وبمقربـة مـن هـذه الدكاكـين سـوق الوراقـين الذيـن يبيعـون الكاغـد والأقـلام والمـداد (ابـن بطوطـة ٥٥)

ولهـذا المسـجد حلقـات التدريـس في فنـون العلـم والمحدِّثـون يقـرأون كتـب الحديـث عـلى كـراسي مرتفعـة وقـراء القـرآن يقـرأون بالأصـوات الحسـنة صباحـا ومسـاء وبـه جماعـة مـن المعلمـين لكتـاب اللـه يسـتند كل واحـد منهـم إلى سـارية مـن سـواري المسـجد يلقـن الصبيـان ويقرئهـم. وهـم لا يكتبـون القـرآن في الألـواح تنزيهـا لكتـاب اللـه تعـالى وإنمـا يقـرأون تلقينـا

ومعلّـم الخـط غـير معلّـم يعلّمهـم بكتـب الأشـعار وسـواها فينـصرف الصبـي مـن التعليـم إلى التكتيـب. وبذلـك جـاد خطـه لأن المعلـم للخـط لا يعلـم غـيره (ابـن بطوطـة ٥٦)

الطاعـون بدمشـق: شـاهدت أيـام الطاعـون الأعظـم بدمشـق في أواخـر شـهر ربيـع الثـاني سـنة تسـع وأربعـين مـن تعظيـم أهـل دمشـق لهـذا المسـجد مـا يعجـب منـه، وهـو أن ملـك الأمـراء نائـب السـلطان أرغون شـاه أمـر مناديـا بدمشـق أن يصـوم النـاس ثلاثة أيـام ولا يطبخون بالسـوق. فصام النـاس ثلاثـة أيـام متواليـة كان آخرهـا يـوم الخميـس ثـم اجتمـع الأمـراء والشرفـاء والقضـاة والفقهـاء وسـائر الطبقـات عـلى اختلافهـا في الجامـع حتـى غـص بهـم وباتـوا ليلـة الجمعـة مـا بـين مصـل وذاكـر وداع. ثـم صلـوا الصبـح وخرجـوا جميعـا عـلى أقدامهـم وبأيديهـم المصاحـف والأمـراء حفـاة وخـرج جميـع أهـل البلـد ذكـورا وإناثـا صغـارا وكبـارا وخـرج اليهـود بتوراتهـم والنصـارى بإنجيلهـم ومعهـم النسـاء والولـدان وجميعهـم باكـون متضرعـون إلى اللـه بكتبـه وأنبيائـه وقصـدوا مسـجد الأقـدام وأقامـوا بـه في تضرعهـم ودعائهـم إلى قـرب الـزوال وعـادوا إلى البلـد فصلـوا الجمعـة. وخفـف اللـه تعـالى عنهـم فانتهـى عـدد المـوتى إلى الفـين في اليـوم الواحـد وقـد انتهـى عددهـم بالقاهـرة ومـصر إلى أربعـة وعشريـن ألفـا في يـوم واحـد (ابـن بطوطـة ٦٠).

الأوقـاف: والأوقـاف بدمشـق لا تحـصر أنواعهـا ومصارفهـا لكثرتهـا فمنهـا أوقـاف عـلى العاجزيـن عـن الحـج يعطـى لمـن يحـج عـن الرجـل منهـم كفايتـه. ومنهـا أوقـاف عـلى تجهيـز البنـات إلى أزواجهـنَّ وهـنَّ اللـواتي لا

قـدرة لأهلهـنَّ عـلى تجهيزهـنَّ. ومنهـا أوقـاف فـكاك الأسـارى ومنهـا أوقـاف لأبنـاء السـبيل يعطـون منهـا مـا يأكلـون ويلبسـون ويتـزودون لبلادهـم. ومنهـا أوقـاف عـلى تعديـل الطريـق ورصفهـا لأن أزقـة دمشـق لـكل واحـد منهـا رصيفـان في جنبيـه يمـرُّ عليهـما المترجلـون ويمـرُّ الركبـان بـين ذلـك. ومنهـا أوقـاف لسـوى ذلـك مـن أفعـال الخـير.

مـررت يومـا ببعـض أزقـة دمشـق فرأيـت بـه مملـوكا صغـيرا قـد سـقطت مـن يـده صحفـة مـن الفخـار الصينـي وهـم يسـمونها الصحـن فتكسـرت واجتمـع عليـه النـاس فقـال لـه بعضهـم أجمـع شـقفها واحملهـا معـك لصاحـب أوقـاف الأواني فجمعهـا وذهـب الرجـل معـه إليـه فـأراه إياهـا فدفـع لـه مـا اشـترى بـه مثـل ذلـك الصحـن وهـذا مـن أحسـن الأعـمال فـإن سـيد الفـلام لا بـد لـه أن يضربـه عـلى كـسر الصحـن أو ينهـره وهـو أيضـا ينكـسر قلبـه ويتغـير لأجـل ذلـك، فـكان هـذا الوقـف جـبرا للقلـوب جـزى اللـه خـيرا مـن تسـامت همتـه في الخـير إلى مثـل هـذا.

وأهـل دمشـق يتبـارون في عـمارة المسـاجد والزوايـا والمـدارس والمشـاهد وهـم يحسـنون الظـن بالمغاربـة ويطمئنـون إليهـم بالأموال والأهلـين والأولاد وكل مـن انقطـع بجهـة مـن جهـات دمشـق لا بـد أن يتـأتى لـه وجـه مـن وجـوه المعـاش مـن إمامـة مسـجدا أو قـراءة بمدرسـة أو ملازمـة مسـجد يجـيء إليـه فيـه رزقـة أو قـراءة القـرآن أو خدمـة مشـهد مـن المشـاهد المباركـة أو يكـون كجملـة الصوفيـة بالخوانـق تجـري لـه النفقـة والكسـوة فمـن كان بهـا غريبـا عـلى خـير لم يـزل مصونـا عـن بـذل وجهـه محفوظـا عـما يـزري بالمـروءة، ومـن كان مـن أهـل المهنـة والخدمـة فلـه أسـباب أخـر

مـن حراسـة بسـتان أو أمانـة طاحونـة أو كفالـة صبيـان يغـدو معهـم إلى التعليـم ويـروح. ومـن أراد طلـب العلـم والتفـرغ للعبـادة وجـد الإعانـة التامـة عـلى ذلـك. ومـن فضائـل أهـل دمشـق أنـه لا يفطـر أحـد منهـم في ليـالي رمضـان وحـده البتـة فمـن كان مـن الأمـراء والقضـاة والكـبراء فإنـه يدعـو أصحابـه، والفقـراء يفطـرون عنـده . ومـن كان مـن التجـار وكبـار السـوق صنـع مثـل ذلـك ومـن كان مـن الضعفـاء والباديـة فإنهـم يجتمعـون كل ليلـة في دار أحدهـم أو في مسـجد ويـأتي كل واحـد بمـا عنـده فيفطـرون جميعـا (ابـن بطوطـة ٦٣ - ٤).

مـدارس مـصر: وأمـا المـدارس بمـصر فـلا يحيـط أحـد بحصرهـا لكثرتهـا. وأمـا المارسـتان الـذي بـين القصريـن عنـد تربـة السـلطان قـلاوون فيعجـز الوصـف عـن محاسـنه وقـد أعـد فيـه مـن المرافـق والأدويـة مـا لا يحـصر - يذكـر أن مجبـاه ألـف دينـار كل يـوم وأمـا الزوايـا فكثـيرة وهـم يسـمونها الخوانـق واحدتهـا خانقـاه وأمـراء مـصر يتنافسـون في بنـاء الزوايـا . وكل زاويـة بمـصر معينـة لطائفـة مـن الفقـراء وأكثرهـم مـن الأعاجـم وهـم أهـل أدب ومعرفـة بطريقـة التصـوف. ولـكل زاويـة شـيخ وحـارس وترتيـب أمورهـم عجيـب. ومـن عوائدهـم في الطعـام أنـه يـأتي خديـم الزاويـة إلى الفقـراء صباحـا فيعـين لـه كل واحـد مـا يشـتهيه مـن الطعـام، فـإذا اجتمعـوا لـلأكل جعلـوا لـكل انسـان خبـزه ومرقـه في إنـاء عـلى حـدة لا يشـاركه فيـه أحـد . وطعامهـم مرتـان في اليـوم ولهـم كسـوة الشـتاء وكسـوة الصيـف ومرتـب شـهري مـن ثلاثـين درهـما للواحـد في الشـهر إلى عشريـن ولهـم الحـلاوة مـن السـكر في ليلـة كل جمعـة والصابـون لغسـل أثوابهـم،

والأجـرة لدخـول الحـمام والزيـت للاسـتصباح. وهـم أعـزاب وللمتزوجـين زوايـا عـلى حـدة ويشـترط عليهـم حضـور الصلـوات الخمـس والمبيـت بالزاويـة واجتماعهـم بقبـة داخـل الزاويـة. ومـن عوائدهـم أن يجلـس كل واحـد منهـم عـلى سـجادة مختصـة بـه وإذا صلـوا صـلاة الصبـح قـرأوا سـورة الفتـح وسـورة الملـك وسـورة عـم، ثـم يـؤتى بنسـخ مـن القـرآن العظيـم مجـزأة فيأخـذ كل فقـير جـزءا ويختمـون القـرآن ويذكـرون ثـم يقـرأ القـراء عـلى عـادة أهـل المـشرق، ومثـل ذلـك يفعلـون بعـد صـلاة العـصر. ومـن عوائدهـم مـع القـادم أنـه يـأتي بـاب الزاويـة فيقـف بـه مشـدود الوسـط وعـلى كاهلـه سـجادة وبيمنـاه العـكاز وبيـسراه الإبريـق فيعلـم البـواب خديـم الزاويـة بمكانـه فيخـرج إليـه ويسـأله مـن أي البـلاد أتى وبـأي الزوايـا نـزل في طريقـه ومـن شـيخه فـإذا عـرف صحـة قولـه أدخلـه الزاويـة وفـرش لـه سـجادته في موضـع يليـق بـه وأراه موضـع الطهـارة. فيجـدد الوضـوء ويـأتي إلى سـجادته فيحـل وسـطه ويصـلي ركعتـين ويصافـح الشـيخ ومـن حـضر ويقعـد معهـم . ومـن عوائدهـم أنهـم إذا كان يـوم الجمعـة أخـذ الخـادم جميـع سـجاجيدهم فيذهـب بهـا إلى المسـجد ويفرشـها لهـم هنالـك فيخرجـون مجتمعـين ومعهـم شـيخهم فيأتـون المسـجد ويصـلي كل واحـد عـلى سـجادته فـإذا فرغـوا مـن الصـلاة قـرأوا القـرآن عـلى عادتهـم ثـم ينصرفـون مجتمعـين إلى الزاويـة ومعهـم شـيخهم (ابـن بطوطـة ٢٠).

يـوم دوران الجمـل: يـوم دوران الجمـل يـوم مشـهور وكيفيـة ترتيبهـم فيـه أنـه يركـب فيـه القضـاة الأربعـة ووكيـل بيـت المـال والمحتسـب، ويركـب معهـم أعـلام الفقهـاء وأمنـاء الرؤسـاء وأربـاب الدولـة ويقصـدون جميعـا بـاب القلعـة دار الملـك النـاصر فيخـرج إليهـم المحمـل عـلى جمـل، وأمامـه

الأمـير المعـين لسـفر الحجـاز في تلـك السـنة ومعـه عسـكره، والسـفاؤون عـلى جمالهـم ويجتمـع لذلـك أصنـاف النـاس مـن رجـال ونسـاء ثـم يطوفـون بالمحمـل وجميـع مـا ذكرنـا معـه بمدينـة القاهـرة ومـصر، والحـداة يحـدون أمامهـم. ويكـون ذلـك في رجـب فعنـد ذلـك تهيـج العزمـات وتنبعـث الأشـواق وتتحـرك البواعـث ويلقـي اللـه تعـالى العزيمـة عـلى الحـج في قلـب مـن يشـاء مـن عبـاده، فيأخـذون في التأهـب لذلـك والاسـتعداد (ابـن بطوطـة ٢٦).

جيـوش السـلطان: يسـتطيع السـلطان أن يجنـد مـن مـصر وحدهـا مـا يزيـد عـن عشريـن ألفـا مـن الرجـال، ومـن سـوريا ومـا إليهـا مـا يزيـد عـن خمسـين ألفـا، وكلهـم في خدمتـه ودائمـا عـلى قـدم الاسـتعداد ... وكل واحـد يتنـاول ١٢٠ فلـورن في السـنة ينفـق منهـا عـلى ثلاثـة خيـول وجمـل واحـد، ويدبـر شـؤون النـاس في العواصـم والمـدن نـواب.

وكلُّ أمـير جنـد يتنـاول مرتبـا يسـاوي مجمـوع مرتبـات الجنـد الـتـابـعـيـن لـه . ومـن ثـمّ فالمكافـأة التـي ينتظرهـا الرجـل الشـجاع مـن السـلطان هـي أن يجعـل أمـيرا عـلى جنـده (مندفيـل ١٤٦ - ٧).

الـشَّرق العربي في القرن الخامس عشر

•••

الموانئ

يافـا: أمـا الآن فيافـا متهدِّمـة وكل مـا فيهـا بضـع مـن الخيـام يـأوي إليهـا الحجـاج ليتقـوا شرَّ الشـمس الحـارّة. ميناؤهـا ضحـل، وخطـر لأنـه معـرّض للعواصـف.

ومتــى نــزل الحجــاج أسرع موظفــو الســلطان ليســتوثقوا مــن عددهــم ويقبضــوا ضريبــة الســلطان ويتقــدم الإدلاء لإرشــادهم (بروكييــه ٢٨٦).

كان (في يافـا) ثمـة جماعـة كبـيرة مـن الجنـد المسلحين ... وكان هنـاك ثلاثـة مــن حــكام الجهــة حاكــم القــدس وحاكــم الرملــة وحاكــم غــزة. فتقــدم إليهــم ربابنــة الســفن حاملــين الهدايــا التــي رؤوا أن يســترضوهم بهــا ... فتقبلهــا هــؤلاء ووعــدوا بتقديــم كل المســاعدة .. ولمــا ســئلوا عــن ســبب ازدحـام الجنـود المسلحين قالـوا إن العربـان قـد هجمـوا عـلى البـلاد وعاثـوا فيهـا فسـادا، وأن القصـد مـن الجماعـة المسـلحة أن تحمـي الحجـاج في تنقلهـم في البـلاد (فابـري ٧: ٢١٩)

ولمـا انتهينـا مـن تقديـم صلـوات الشـكر عـلى وطوئنـا بـرّ الأرض المقدسـة انتقلنـا إلى حيـث كان الأب الحـارس لديـر جبـل صهيـون واقفـا مـع حـكام البـلاد وشـيوخ العـرب والمسـلمين ومعهـم كاتـب. وكان عـلى الحجـاج أن يمـروا بينهـم فـرادى... وكانـوا يفحصـون كل واحـد منـا ويسـجلون اسـمه

واسم أبيه ... وبعد ذلك يحشر الحاج في مكان متهدم حتى يحين وقت ذهابنا إلى القدس (فابري ٧: ٢٢٣)

ولما حان وقت خروجنا للسفر وقف ربابنة السفينة ومعهم زعماء المسلمين والكاتب. وكان كلما خرج أحدنا من المكان سأله عن اسمه واسم أبيه وقابل ذلك بما عنده، ثم سمح له بالخروج وشطب اسمه (فابري ٧:٢٤٠).

وجاءنا بعض السكان الفقراء يحملون قشا وعساليج رطبة فابتعناها منهم وجعلناها فراشا ننام عليه ... ثم جاءنا تجار من الرملة والقدس ومعهم بضائع معطرة، وأقاموا هناك سوقا ... وكان معهم ماء ورد في قوارير ثمينة جاءوا به من دمشق. وكان ثمن القارورة الواحدة بنيا بندقيا ... وكان مع البعض البلسم والمسك والصابون والحجارة الكريمة وقماش الموصلين الأبيض.

وكان التجار ومرافقوهم معطرين بحيث انتشرت الروائح الذكية حولهم ... ثم أحرقوا البخور العربي في المكان الذي كنا نقيم فيه... ثم جاء آخرون وكانوا يقلون البيض بالزيت وغيرهم حملوا أرغفة الخبز والماء البارد والفواكه والكعك الطازج وفي المساء استأجرنا اثنين من السكان ليقوما بحراستنا (فابري ٧: ٢٢٦ - ٧)

عكا : هذه ميناء جميلة عميقة ويدور بها سور يحميها . ومع أنه يظهر أن المدينة كانت كبيرة وقوية، فإنها الآن لا يوجد بها أكثر من ثلاثمئة من البيوت. تقوم في مكان بعيد قليلا عن البحر (بروكييه ٢٩٢).

وقـد تعرفـت في عـكاء إلى تاجـر بندقـي اسـمه «أوبـرت فرانـك» الـذي أحسـن وفـادتي وزودوني بالمعلومـات النافعـة التـي مكنتنـي مـن السـير إلى النـاصرة بسـهولة ويـسر (بروكييـه ٢٩٨).

غـزة: جـاءت مـن مـصر جمـوع مكوّنـة مـن بضعـة آلاف مـن المماليـك واسـتقرت في غـزة في طريقهـا لمحاربـة التركـماني في سـورية. وضربـت هـذه الجماعـة خيامهـا حـول المدينـة حتـى امتـلأ بهـا السـهل المحيـط بهـا. وكان بـين هـؤلاء المماليـك هنغاريـون فجـاءوا يسـتقصون عـن الحجـاج الهنغاريـين بيننـا فلـم يجـدوا سـوى السـيد يوحنـا فسروا بـه كثـيرا وأقامـوا معنـا يأكلـون ويشربـون - وقـد شربـوا الخمـر سرا - ثـم جـاء غيرهـم مـن الصقليـين والقطالونيـين. لكـن هـذا أحنـق ترجماننـا ودليلنـا ذلـك لأن أهـل البـلاد يمقتـون المماليـك الذيـن يحكمونهـم ويسـتبدون بهـم. وقـد أقفلـت المدينـة أسـواقها، واحتفـظ السـكان بمواشـيهم في حظائرهـم خشـية عسـف المماليـك ونهبهـم الحاجيـات دون مقابـل أو ثمـن (فابـري ٤٤٢:١٠).

بـيروت: مينـاء بـيروت جيـد صالـح للتجـارة. لقيـت في بـيروت تاجـرا بندقيـا اسـمه جـاك برفيزيـن الـذي نصحنـي بالسـفر إلى دمشـق حيـث ألقـى مـن التجـار والقناصـل الأوروبيـين الكثيريـن الذيـن يرشـدونني إلى خـير الطـرق للعـود بـرا إلى أوروبـة.

وشـهدت احتفـال المسـلمين بأحـد أعيادهـم في بـيروت بـدأ الاحتفـال مسـاء فكانـت الجماعـات تسـير في الشـوارع فرحـة طربـة والمدافـع تطلـق مـن القلعـة احتفـاء بالعيـد وأطلقـت الصواريـخ التـي بلغـت ارتفاعـا كبـيرا ...

وقـد اسـتطعت أن أتعـرف إلى سر هــذه الصواريــخ، وحملــت معــي إلى فرنسـة طريقـة صنعهـا ونمـاذج منهـا . ذلـك لأن هـذه متـى صنعـت عـلى مقيـاس كبـير أمكـن اسـتعمالها لحـرق السـفن في البحـر. وهـذا مـا بلغنـي أثنـاء إقامتـي في الـشرق.

وقـد نزلـت أثنـاء إقامتـي في بـيروت في دار تاجـر بندقـي هـو بـول بريريكـو ... وهـذا دبّـر لي مـكارا يحملنـي إلى النـاصرة ويعيـدني إلى دمشـق ويعـود إلى بـول بوثيقـة منـي تعرفـه جملـة أخبـاري وسـلامتي. وقـد أشـار عـلي المـكار أن أرتـدي ثيابـا شرقيـة ففعلـت (بروكييـه ٢٩٢ - ٢٩٧ باختصـار).

الإســكندرية: ولمـا وصلنـا البـاب (بـاب مدينـة الإسـكندرية) فتشـنا ووجـدت النقـود معنـا. مـع أننـا كنـا قـد خبأناهـا في نعـل الحـذاء. أخـذوا منـا نحـو عـشرة بالمئـة. ورغـم أنهـم ضبطـوا معـي نقـودا لم أكـن قـد أعلنـت وجودهـا فإنهـم لم يتقاضـوني أكـثر مـن العـشر، وأعـادوا إليّ مـا تبقـى لي... إنـه مـن المسـتحيل أن يتهـرب المـرء مـن الدفـع لأنهـم يفتشـون تفتيشـا دقيقـا (ميشــولم - ادلـر - ١٥٨).

تبلـغ الإسـكندرية سـعة فلورنسـا ... لكـن القسـم المخـرَّب منهـا أكـثر مـن العامـر وثمارهـا كثـيرة وجيـدة ورخيصـة والخبـز واللحـم وجميـع أصنـاف الطيـور فيهـا رخيصـة. أمـا الخشـب فعـال جـدا، وكذلـك الزيـت والعسـل والخمـر، لأنـه يدفـع عليهـا جـمارك عاليـة، قـد تبلـغ ٢٤ بالمئـة. وقنّـب الاسـكندرية جيـد، وقـماش الكتـان بهـا جميـل ورخيـص. ويرجـع رخـص الفـراخ فيهـا إلى أنهـم يفقسـونها في الأفـران... وقـد يتسـع الفـرن لألـف أو ألفـين مـن البيـض في الدفعـة الواحـدة (ميشــولم - ادلـر - ١٦٠).

تجد في الاسكندرية تجارا من جميع أقطار الأرض، ويوجد فيها، في هذه الأيام، أربعة قناصل للبندقية وجنوة وقطالونية وانكونا، وبواسطتهم تتم المعاملات التجارية ... يدفع التجار اثنين بالمئة عن كل ما يرد إلى الاسكندرية أو يصدر منها، وهذا يأخذه السلطان، ولذلك كانت ثروته ضخمة (عوبديا - ادلر - ٢٢٢).

رأيت في الاسكندرية أربعة فنادق واحد منها للفرنك وآخر للجنويين وقنصلهم واثنان للبنادقة. ويقابلها فندق كبير خاص بالمسلمين.

وكل من دخل الإسكندرية من الأغراب دفع ثلاث عشرة دوكة للسلطان ولا يسمح له بمغادرة المدينة إن لم يكن قد دفع هذا المبلغ.

ركائب الناس هنا الحمير والبغال، أما الخيل فلا يركبها إلا المماليك أنفسهم. والحمير هنا جميلة فرهة ويعنون بتجميلها ... وقد رأيت بردعة يزيد ثمنها عن ٢٠٠٠ دوكة مرصعة بالحجارة الكريمة والماس ولها حاشية من الذهب... وأكثر أهل المدينة حفاة ... ويتناولون طعامهم وهم جلوس على الأرض ... وهذا ينطبق على أكثر سكان بلاد السلطان (ميشولم - ادلر - ١٥٩).

اللاذقية: ومما سمعنا عنه في اللاذقية طاحونة تديرها الريح، سواء أكان هبوبها من الشمال أو الشرق أو الغرب على نحو ما هو معروف عند الإفرنج. وإذا دارت يوما كاملا ليلا ونهارا ، طحنت ١٢ أردبا بالكيل المصري.

وقد أقام هذه الطاحون رجل من اللاذقية كان الإفرنج قد أسروه، فلما عاد أنشأ هذا الشيء العجيب في بلده (القول المستظرف ١٠ - ١١).

المدن الكبرى

دمشـــق: وقبـل أن ندخـل دمشـق ترجلنـا عـن خيولنـا حسـب إشـارة المـكاري وهـذه هـي العـادة المتبعـة في هـذه البـلاد إذ لا يجـوز لنـصراني (أوروبي) أن يدخـل مدينـة راكبـا، ولم نكـد ندخـل المدينـة حتـى جـاء بعـض النـاس يتفرجـون علينـا، وكنـت (أي بروكييـه) ألبـس عـلى رأسي قبعـة سـوداء ذات إطـار عريـض فرفـع أحدهـم عصـاه وإطـار قبعتـي عـن رأسي وهممـت أن ألطمـه لـولا أن المـكاري رمـى بنفسـه بيننـا فحـال دون ذلـك. وكان في تصرفـه هـذا ،نجـاتي، لأن عـدد الدمشـقيين كان قـد زاد ولـو أننـي ضربـت أحدهـم لكانـت عاقبـة ذلـك علينـا مـما لا أسـتطيع تصـوره.

وتحـوي دمشـق عـلى مـا بلغنـي مئـة ألـف نسـمة. وهـي غنيـة، ومركـز كبـير للاتجـار. وأهـم مدينـة في السـلطنة بعـد القاهـرة... وحاكمهـا نائـب عـن السـلطان رأسـا ... ولا تـزال آثـار تخريبهـا عـلى يـد تيمورلنـك (سـنة ١٤٠٠م) ظاهـرة للعيـان.

وأهـل دمشـق يكرهـون الأوروبيـين ويتحتـم عـلى تجارهـم أن يلجـأوا إلى بيوتهـم في المسـاء فيقفـل عليهـم الأبـواب أنـاس معينـون لهـذا الأمـر، ولا يفتحونهـا إلا في صبـاح اليـوم التـالي. وقـد لقيـت في دمشـق كثيريـن مـن الجنوبـين والبنادقـة وأهـل كالابريـا وفلورنسـا ومـن تجـار فرنسـا . وقـد جـاء الأخـيرون إلى دمشـق ليبتاعـوا أشـياء متعـددة وخاصـة التوابـل بقصـد نقلهـا إلى بلادهـم بطريـق بـيروت.

وقـد اسـتقصيت أخبـار النبـي والإسـلام مـن قـس كان ملحقـا بالقنصـل البندقـي في دمشـق.

ودمشق مدينة صناعية . فسيوفها من خير ما يصنع وأجمله، وصقلها جيد إلى حد أن المرء يستطيع أن يستعملها مرآة لاصلاح زينته ولم أر في حياتي سيوفا تقطع مثل السيوف الدمشقية ويصنع أهل دمشق وما جاورها المرايا المدنية ... وبعض هذه إذا سلطت أشعة الشمس عليها عكستها على خشبة فأحرقتها ولو كانت تبعد نحو خمسة عشر قدما.

وثمن الفرس الأصيل يبلغ مئتي دوكة وقد يصل إلى الثلاثمائة (بروكييه ٢٩٣- ٣٠٤).

والمواد الغذائية في سورية وفيرة. فهناك القنبريس والقرنبيط وثمة معاصر تصنع الدبس من العنب وفيها تصنع الحلاوة الجوزية والملبن. ومما يتقن صنعه هناك حلاوة الأرز مع الزبيب (القول المستظرف ٨).

وتكثر هنا الأشجار والفواكه، ومجاري المياه تقوم عليها النواعير. وتقام يوم السبت سوق حمل إلينا منها رمانات بلغت زنة الواحدة منها رطلين مصريين، وجيء بباذنجان تزن الواحدة مثل ذلك. وقد بلغني أنه قد يصل وزن الرمانة الواحدة خمسة أرطال، لكنني لم أر ذلك بنفسي (القول المستظرف ١٢).

القدس: بيوت القدس مبنية بالحجارة، هذا باستثناء مساكن الفقراء التي هي من الطين. وقد رأيت فيها بيوتا جميلة كبيرة، لكن جزءا كبيرا من المدينة متهدم مهجور بحيث أن جثث الحيوانات التي تنفق تبقى داخل المدينة بدل أن تطرح خارج أسوارها ... وفي المدينة خمسمائة يهودي ونحو ألف نصراني من كل مذهب وقطر، وأقلهم من أتباع الكنيسة اللاتينية (فابري ٩ : ٢٢٦).

رغـم أن القــدس قـد تهدمـت، فإنـه لا يـزال فيهـا أربـع أسـواق جميلـة طويلـة، مـما لم أرَ لـه مـن قبـل شـبها . كلهـا مسـقوفة بالقبـاب، وتحـوي جميـع أنـواع المتاجـر. وهـذه الأسـواق الأربـع هـي سـوق التجـار وسـوق العطاريـن وسـوق الخضـار وسـوق الأطعمـة المطبوخـة

والخبز.

وقـد كانـت موجـة مـن القحـط تجتـاح البـلاد لما هبطـت القـدس، فقـد كانـت حصـة الشـخص الواحـد مـن الخبـز لا تتجـاوز بضعـة دراهـم للوجبـة الواحـدة. لكـن الجـوع لم يـدم لأن المحصـول كان جيـدا في الموسـم التـالي (عوبديـا - ادلـر - ٢٣٦).

الإقامـة في القـدس : فلـما انتهينـا مـن صلاتنـا قادنـا كالينـوس إلى مستشـفى القديـس يوحنـا ... والبنـاء القائـم هـو جـزء مـن الأصـل، ويقيـم فيـه عـدد مـن الرهبـان... وتـوزع الحجـاج في المـكان. فالنبـلاء السـوابيون انفـردوا بمـكان في طـرف القاعـة في شـبه غربـة منعزلـة عـن بقيـة المـكان والنبيـل يوحنـا سـيد سـولمس وجماعتـه ذهبـوا مـع الفاهالـو الترجـمان المسـاعد) ليقيمـوا في بيتـه . أمـا في زيـارتي الأولى للقـدس فلـم نقـم في مستشـفى القديـس يوحنـا، بـل إننـي لم أره، إذ أقمنـا في بيـت كبـير يقـع في حـي ملـو. ومـا كاد الحجـاج يسـتقرون في أماكنهـم حتـى جاءهـم الباعـة مـن المسـلمين والنصـاري واليهـود يحملـون الخبـز والمـاء والطعـام والفواكـه فابتعنـا وأكلنـا ... والآن جاءنـا اثنـان مـن الإخـوان موفديـن مـن قبـل رئيـس جبـل صهيـون، واقتـادا جميـع الرهبـان منـا إلى ديـر صهيـون لنقيـم هنـاك؛

لأن هــذه هــي العــادة المتبعــة - وكنــت بطبيعــة الحــال في مــن ذهــب (فابــري : ٢٨٥ - ٦).

استأجر بعـض الجماعـة دارا تخـص الفاهالـو، الترجـمان المسـاعد، تقـع عـلى مقربـة مـن جبـل صهيـون، فـكان في الـدار ثـلاث غـرف كبـيرة، وغرفـة أخـرى صغـيرة، وباحـة متوسـطة السـعة فيهـا كرمـة وميضـأة. فأجرهـم صاحبهـا غرفتـين ووضـع أثاثـه في مـا تبقـى مـن غـرف الـدار ، لكنـه تـرك العـمارة هـو وأخـوه فلـم يقيمـوا فيهـا أبـدا فابـري ٩: ١١٢)

والبيـت الـذي أقيـم فيـه تقيـم فيـه خمـس نسـاء ورجـل أعمـى. والحمـد للـه الـذي عـلي بالصحـة في حـلّي وترحـالي فـإن أكـثر الاغـراب الذيـن يأتـون إلى القـدس يصيبهـم مـرض مـا، بسـبب تغـير الجـو المسـتمر. إذ إن الريـح عـلى اختـلاف أنواعهـا تهـب عـلى هـذه المدينـة. ويقـال إن كل ريـح يجـب أن تمـر بالقـدس ليباركهـا الـرب قبـل إتمـام اتجاههـا. وسـبحان الـذي يعلـم الحـق (عوبديـا - ادلـر ٢٤٣).

أسـواق القـدس: زرت صبـاح اليـوم ٢٨ تمـوز (يوليـو) أسـواق المدينـة وشــارع الطباخــين، حيــث رأيــت أشــياء كثــيرة للبيــع وجماعــات كبــيرة تشــتري مــن المطابــخ العديــدة ذلــك لأن القــوم لا يطبخــون في بيوتهــم، كـما نفعـل نحـن في بلادنـا . بـل إنهـم يبتاعـون طعامهـم جاهـزا مـن هـذه المطابـخ والطهـاة ماهـرون نظيفـون.

وحيــث يكــون الحجــاج يتجمــع حولهــم التجــار. فلــما كنــا في كنيســة القيامــة جــاء تجــار مــن النصــارى ... الشرقيــين ... ودخلــوا معنــا . فلــما اقفلــت الأبــواب عمــد بعضنــا إلى المســاومة. وقضــوا في ذلــك شــطرا مــن

الليـل إن لم يكـن الليـل كلـه... ولم تقتـصر مشـترياتهم ومسـاومتهم عـلى المسـابح والحجـارة الكريمـة لكنهـا تعدتهـا إلى القـماش الدمشـقي والحريـر ... أعـرف بعـض النبـلاء الذيـن كانـوا يمتنعـون عـن المسـاومة في أسـواق بلادهـم، لأن ذلـك دون مكانتهـم الاجتماعيـة، لم يتحرجـوا عـن الـشراء في مثـل هـذا المـكان المقـدس... ولم تكـن غايـة الجميـع أن يبتاعـوا أشـياء لأنفسـهم، ولكنهـم كانـوا يفكـرون بنقلهـا إلى بلادهـم للاتجـار بهـا والربـح. وقـد اشـترك بعـض رجـال الديـن في أعـمال البيـع والـشراء هـذه فابـري (٩: ٨٤).

حاكـم القـدس يـزور الرهبـان بعـد طعـام الغـداء ركـب إلى جبـل صهيـون حاكـم القـدس بصحبـة جماعـة مـن نبـلاء المسـلمين. ومـن عـادة هـؤلاء وغيرهـم أن يأتـوا إلى جبـل صهيـون للتنـزه لأن الهـواء هنـا أنقـى منـه في المدينـة وهـم متـى وصلـوا إلى الديـر أقامـوا بعـض الوقـت في كنيسـة الاخـوان فيفـرش لهـم هـؤلاء الرهبـان الأرض بالسـجاد ويضعـون لهـم الوسـائد ويسـتلقون، وقـد قـدَّم لهـم الاخـوان الكعـك المعسـل والخبـز والبسـماط المطيـب والفواكـه مـن العنـب واللـوز والبطيـخ والمـاء البـارد، لأنهـم لا يشربـون الخمـر. وقـام الإخـوان الأصاغـر والحجـاج عـلى خدمتهـم وتحدثنـا معـا فسـألونا عـن أشـياء كثـيرة وتحدثـوا فيـما بينهـم بشـأنها ... ولا غربـة في أن يعنـوا بـكل شيء فهـم حـكام المدينـة المقدسـة (فابـري ١١٢:٩).

مدرسة في القدس: بينما كنت مرة نازلا من جبل صهيون في طريقي إلى الكنيسة للصلاة، سمعت أولادا يقرأون بصوت مرتفع، فاقتربت من باب المدرسة ونظرت إليهم. فرأيت صبيانا جالسين على الأرض في صفوف وكانوا كلهم يرددون مجتمعين نفس الكلمات بصوت عال، ويهزون رؤوسهم أماما وخلفا، وقد استطعت أن أحفظ الكلمات التي رددوها مع موسيقاها . وهي أول ما يعلمونه صبيانهم لأنها أصول عقيدتهم (فابري ٨: ٣٩٦).

نزل الخليل: وشاهدنا في الخليل نزلها الكبير، الكثير الغرف. ورأينا المطبخ والفرن، وكانوا يعدون طعاما كثيرا للحجاج المسلمين الذين يأتون جماعات كبيرة لزيارة قبور الأنبياء. ولهذا النُّزُل واردات سنوية تبلغ قيمتها نحو أربعة وعشرين ألفا من الدوكات. ويخبز فيه في كل يوم ألف ومئتان من الأرغفة توزع كلها على من يطلب. ولا يمنع أي حاج من هذا الإحسان مهما كان مذهبه أو دينه أو جنسه. وكل من يطلب طعاما يقدم له رغيف خبز وشيء من الزيت وبعض الحساء أو المعجنات. وقد أقطعت أراضي قلعة النبي صمويل على هذا النزل، وواردات منها ألفا دوكة في العام والمثرون من المسلمين الوطنيين والأتراك يهبونه أموالا كثيرة تنفق على راحة الحجاج... وعندما يحين وقت توزيع الخبز يضرب الطبل للفت نظر الناس... وقد أرسل القائمون على أمر النزل سلة من الخبز إلى الخان الذي كنا نقيم فيه، مع أننا لم نطلب منهم شيئا فابري (١٠:٤١٧ - ٨).

رأي فابري في صلاح الدين لما رأى سكان القدس أن لا قبل لهم بالصمود أمام جيش صلاح الدين ،منفردين، ولا أمل لهم بالحصول على مدد أو معونة، سلموا المدينة على أن يسمح لهم بالذهاب أين شاءوا متى دفعوا الجزية. ولما كان صلاح الدين بطبيعته رقيق القلب رأف بالناس وقبل طلبهم . وهب لهم حياتهم على أحد شرطين إما أن يبقوا في المدينة ويدفعوا الجزية ويخلدوا إلى السكينة وإما أن يغادروها بعد أن يدفع الذكر منهم الذي تتجاوز سنه العشرة أعوام عشر دوكات والطفل دوكتين والمرأة خمس دوكات. واتفق الفريقان على ذلك. لكن لما رأى صلاح الدين أن هناك آلافا متعددة من السكان لا يملك الواحد منهم ما قيمته عشرة دراهم، أعفى هؤلاء كلهم من دفع ما عليهم... وحددت المدة بثلاثة أيام لأولئك الذين أرادوا الخروج... لكن لم يكن من الميسور تحضير المبلغ المطلوب من كثيرين، فاستصرخوا صلاح الدين فأعفى كل من سأله من دفع المبلغ المطلوب (فابري ٩: ٣٣٩)

القاهرة: شاهدت مصر (القاهرة) وتحريت شؤون سكانها، ولو أنني أردت أن أتحدث عن عظمة المدينة وثروتها وسكانها لما كفاني كتاب كامل. وأقسم أنه لو أمكن ضمّ روما وميلان وبادوا وفلورنسا في مكان واحد مع أربع مدن أخرى لما زاد سكانها وثروتها جميعا عن نصف ما في مصر، وهذا صدق... فمصر الحديثة والقديمة، أي القاهرة والفسطاط، مقسومة إلى أربعة وعشرين حيا وفي الحي الواحد ثلاثون ألف عائلة، وفي كل عائلة ثلاثة أو أربعة أفراد ... ويزيد محيط مصر عن ثمانين

ميلا... وأقسم أن كبير تراجمة السلطان، سرجي فاردي، هو الذي أنبأني بهذا. فقد أخبرني أنه يتحتم على الرؤساء أن يقدموا إليه يوميا كشفا بالمواليد والوفيات في المدينة ... ورئيس التراجمة هذا إسباني الأصل. ويعرف من اللغات العربية والتركية واليونانية والفرنسية والألمانية والإيطالية والعبرية والتركية هي لغة السلطان.

وللقاهرة أيضا محيط طوله نحو ثمانين ميلا، وليس فيها بيت واحد خرب، وحارات المدينة وأزقتها أقصر من حارات البندقية وأضيق وتلتقي رؤوس البيوت فتنعقد الحارات. وبعضها مغطّى بالنخيل منعا للحر الشديد.

وفي مصر نحو عشرة آلاف رجل عليهم أن يرشوا الماء في الشوارع لتهدأ ثورة الغبار... والسقاة يحملون الماء في قرب ويبيعونه للعطاش لقاء فيلبو واحد للشربة ومهما كان مقدارها. وقد لا يقل عددهم عن أربعة آلاف ساق.

ليس ثمة حمامات تشبه حمامات مصر في جودتها ... والسكان نظيفون في أشخاصهم وثيابهم.

وفنادق مصر كبيرة. وقد يحتوي الفندق الواحد على ألف دكان يضع فيها الباعة والصناع بضائعهم. وليس في العالم شيء لا يمكنك أن تجده في فنادق مصر (ميشولم - ادلر - ١٦٦).

السلطان: أتيح لي أن رأى السلطان وجها لوجه يوم الجمعة وفق ٢٢ حزيران (يونيو) ١٤٨١ أنه رجل متقدم في السن. كان في ركبه نحو ألفين من الفرسان المماليك وكل من رغب في رؤية السلطان تمَّ له ذلك.

فإنه يجلس كل اثنين وخميس أمام القلعة في صحبة حاكم المدينة ويتقدم إليه أصحاب المظالم بظلاماتهم فينصفهم حتى من سادتهم. وهذا هو السبب في أن النبلاء يتجنبون ظلم أتباعهم (ميشولم - ادلر - ١٧٠).

جند السلطان: وللسلطان قرابة عشرة آلاف من العبيد هم حملة السلاح الذين يعتمد عليهم في حروبه ... وهؤلاء من أمم مختلفة ففيهم التتاري والتركي والبلغاري والمجري والصقلبي والولخي والروسي واليوناني... وعليهم يعتمد السلطان في حراسته ويقدم لهم الزوجات والخيل والثياب ... ويعنى بتنشئتهم في فنون الحرب. والنابه منهم يجعله عريفا على عشرة أو عشرين أو خمسين أو مئة. ومنهم يختار حكام ولاياته. فيكون منهم صاحب القدس أو ملك دمشق أو أمير القاهرة، كما ينتخب منهم أصحاب بقية الوظائف في أنحاء سلطنته . ويكون بيديهم تصريف الأمور بحسب الشرع الإسلامي كل في نطاق وظيفته، ولهم الحق في البيع والشراء والحرية التامة في ذلك. ولهؤلاء المماليك أن يقتنوا عبيدا ... ومتى ركب هؤلاء للحرب لبسوا درعيات من الجلد رديئة مغطاة بالحرير، ويغطون رؤوسهم بقلنسوة مدورة ويحملون القوس والسهام والهراوات والطبول (لانوي ٨٤).

الأسـفار في العصور الوسطى

•••

كانـت أسـفار البحـر كثـيرة الأخطـار الخاصـة بهـا. فكانـت السـفن بـادىء ذي بـدء صغـيرة مضطـرة إلى السـير بالقـرب مـن الشـاطىء، ولم تتمكـن مـن الابتعـاد عنـه حتـى وصلـت البوصلـة البحريـة إلى أوروبـة ولما كـبرت المراكـب أصبـح بعضهـا يتسـع لنحـو ألـف مـن الـركاب بمـن في ذلـك البحـارة. وقـد كان عنـد البنادقـة سـفن تجاريـة تحمـل الواحـدة منهـا نحـو خمسـمئة طـن مـن البضائـع. وبلـغ طـول السـفينة التـي ركبهـا لويـس التاسـع ملـك فرنسـة مـن البندقيـة مئـة وثمـاني أقـدام وفيهـا مئـة وعـشرة مـن البحـارة.

كانـت الميـاه الضحلـة والشـواطيء الصخريـة شر مـا تخشـاه السـفن بعـد القرصـان الحـرّ منـه والرسـمي، ولمـا كانـت القاعـدة أن السـفينة التـي تتحطـم عـلى شـاطيء بـلاد تصبـح حمولتهـا ملـكا لصاحـب تلـك البـلاد، فكثـيرا مـا كان النبـلاء يوقـدون مصابيـح بالقـرب مـن الصخـور الناتئـة في البحـر لتضليـل السـفن فتصدمهـا هـذه وتتحطـم عليهـا . ويـروى عـن أحـد أشراف شـاطىء بريتـاني في شـمال فرنسـة أنـه أشـار يومـا إلى صخـرة وقـال عنهـا أنهـا أكـرم حجـر في ملكـه . والمعـروف أن الفرنسـيين عـلى شـاطيء خليـج بسـكاي كانـوا في مقدمـة مضلـلي السـفن في أوروبـة في العصـور الوسـطي. أمـا المـدن الايطاليـة فكانـت تقسـو في العقوبـة ضـد مـن يضلـل سـفينة، وكان القانـون يقـضي برجمـه ! حتـى المـوت، كـما يفعـل بالذئـاب .

وقد كانت للأسفار البحرية قواعدها وأنظمتها. بعضها وضعها الملوك، وبعضها نما مع الحاجة وبعضها كان يتفق عليه في كل مناسبة. فمن النوع الأول ما استنه ريكاردوس قلب الأسد لأسطوله في أواخر القرن الثاني عشر، فقد جاء فيه: أنه بعد استشارة رجال الدولة، قد وضع القوانين العادلة لإقرار الحق ومنها: «إذا قتل رجلٌ أحد ركاب السفينة ربط القاتل بجثة القتيل وأُلقي في البحر. أما إذا كان القتل على الشاطيء دفن القاتل مع المقتول ... وإذا انتضى رجل سلاحه وهدد به آخر أو سبب له جرحا فلتقطع يده ... وإذا ضرب رجلٌ آخر ولم يسل دمه غطس الضارب ثلاث مرات في ماء البحر... ومن يتفوه بالزور والبهتان أو يسب غضب الله، يدفع أوقية من الفضة اكتسابا للمغفرة ... وأما من ثبتت عليه السرقة فليحلق رأسه وليوضع عليه القار وليلصق بالرأس الريش ولينزل من المركب عند أول بر تلمسه»، على أن المؤرخين المحدثين يرون أن هذا القانون البحري كان شديدا لأنه من نوع الأنظمة العسكرية فإن ريكاردوس سنه للأسطول الذي حمل جيشه إلى سورية لحصار عكا بعد معركة حطين.

أما القوانين التي نمت مع تطور الحاجة إليها فكثيرة، لعل أشهرها وأكثرها شيوعا في العصور الوسطى قوانين أوليرون. وبموجب هذه نظمت أمور الموانيء ورسو السفن واستعمال العوامات وغير ذلك مما قلل الأخطار. فالريان كان مسؤولا عن أخطاء الملاحة الناشئة عن جهل أو سوء نية. فإما أن يعوّض المسافرين عن خسائرهم وإما أن يفقد رأسه والتجار كان لهم حق في تقرير الطريق المتبع والموانئ، وطريقة

تعبئـة المتاجـر وترتيبهـا. وكانـوا هـم يتولـون الإشراف عـلى العـمال ودفـع أجورهـم. وكان تحميـل السـفن فـوق الحـد الأقـصى ممنوعـا بالمـرة في شرع المـدن الايطاليـة ومـدن الهنسـا الألمانيـة وغيرهـا.

وقـد روي أن ربـان سـفينة مـن السـفن الهنسـية جمـع الـركاب بعيـد خـروج المركـب إلى عـرض البحـر وقـال أصبحنـا تحـت رحمـة اللـه وعواصـف البحـر، فليكـن الـكل متسـاوين بقطـع النظـر عـن الأشـخاص. ومـا دمنـا معرضـين في كل سـاعة لخـروج القرصـان علينـا أو غـير ذلـك مـن الأخطـار، فإنـه يتحتـم علينـا أن نتدبـر أمـر إدارة هـذه السـفينة. لذلـك يجـب أن ننتخـب قاضيـا لهـا وأربعـة مستشـارين وهـؤلاء الخمسـة يفصلـون في الخصومـات. فلـما انتخـب هـؤلاء قـرأ الربـان عـلى المجتمعـين القوانـين المعمـول بهـا، وهـي المأخـوذة مـن قوانـين أولـيرون المذكـورة. ولمـا اقتربـت السـفينة مـن مينـاء الوصـول اسـتدعي الربـان الـركاب ثانيـة وطلـب إليهـم أن يسـامح كل أخـاه وينسـوا مـا كان بينهـم ويدفنـوا المـاضي.

وقـد كانـت سرعـة السـفن مختلفـة فقـد تراوحـت بيـن ١١٥ و٣٥٠ مـن الكيلومـترات في اليـوم الواحـد. فقـد جـاء في رحلـة الراهـب نقـولا الايسـلندي سـنة ١١٥١ أن سرعـة سـفينته الصغـيرة تراوحـت بـين ١١٥ و١٥٠كلـم يوميـا. وقـد احتاجـت سـفن الحملـة الصليبيـة الأولى أربعـة عـشر يومـا بلياليهـا لقطـع المسـافة بـين مسـينا وعـكاء أي أن معـدل سـيرها كان ١٣٠ كلـم . لليـوم والليلـة. هـذا مـع العلـم بـأن المسـافة مـن دميـاط إلى عـكاء كانـت تقطـع في ٣ أيـام أي بمعـدل ١٣٤ كلـم لليـوم، وكانـت السـفينة في القرنـين

الثـاني عـشر والثالـث عـشر تحتـاج إلى ٦ أيـام للسـفر مـن كنديـا (كريـت) إلى عـكا، أي بمعـدل ١٤٠ كلـم لليـوم.

أمـا فردريـك الثـاني فقـد غـادر برنديـزي في ٢٨ حزيـران (يونيـو) سـنة ١٢٢٨ فوصـل عـكاء في ٧ أيلـول (سـبتمبر).

عـلى أننـا نعـرف أن السـفن التـي كانـت تسـير محاذيـة للشـاطئ الأفريقـي الشـمالي في القـرن الثالـث عـشر كانـت تقطـع مسـافة تـتراوح بـين ٢٠٧ و ٢٢٥ مـن الكيلومـترات في اليـوم الواحـد. أمـا السـفن النورمانيـة في غـرب أوروبـة وجنوبهـا فكانـت المسـافة التـي تجتازهـا في اليـوم الواحـد تـتراوح بـين ٢٥٠ و٣٥٠ كلـم.

والـذي نعرفـه أن وليـم واي جـاء مرتـين إلى فلسـطين في القـرن الخامـس عـشر وكان في كل مـرة يبـدأ مـن البندقيـة وينتهـي في يافـا، فاحتـاج في المـرة الأولى إلى شـهر واحـد وفي المـرة الثانيـة قـضى أكـثر مـن شـهر ونصـف الشـهر في الطريـق.

أمـا السـفر الـبري فقـد كان قلـما يتجـاوز ٤٨ كلـم في اليـوم الواحـد في أوروبـة. وقـد قطعـت جيـوش الحملـة الصليبيـة الأولى المسـافة بـين متـز في المانيـة والقسـطنطينية في سـتة وخمسـين يومـا وتراوحـت المسـافة التـي سـارتها في اليـوم الواحـد بيـن ٣١ و ٥٨ كلـم. وكان المسـافر العـادي يحتـاج إلى سـبعة أسـابيع بـين لنـدن ورومـة، مـع أننـا نعـرف أن ثمـة مـن قطعهـا في تسـعة وعشريـن يومـا فقـط.

وكان نقل المعاملات المالية من شمال ايطالية إلى شمبانية يستغرق عشرين يوما أو يزيد.

أما في الشرق فقد كانت أحوال الجو تجعل السفر أبطأ فقد قطع بركارد المسافة من الإسكندرية إلى القاهرة في ثلاثة أيام برا، وقدرها بسبعة أيام في النهر. ولما سافر بركارد من القاهرة إلى دمشق بطريق شرق الأردن احتاج إلى خمسة وعشرين يوما بمعدل ٣٠ كلم لليوم الواحد. واحتاج إلى أربعة أيام للسفر من دمشق إلى عكاء بطريق طبرية والمسافة من أنطاكية إلى صيدا (٢٩٧ كلم) كانت تحتاج إلى نحو عشرة أيام لاجتيازها

وكانت جيوش ريكاردوس إبان وجودها في فلسطين تقطع أقل من خمسة وعشرين من الكيلومترات في اليوم الواحد عادة. لكنها اضطرت في مناسبات كثيرة إلى تجاوز هذا الحد في ٣٠ آب (أغسطس) سنة ١١٩١م اجتازت ٢٥ كلم وقد عد هذا شيئا غير عادي بسبب الحر الشديد . أما في سنة ١١٩٢ م فقد حفظ لنا عنها أنها قطعت حتى ٤٠ كيلومترا في يوم ٤ حزيران (يونيو).

ومن طريف ما يروي أن الخبر عن فتح العرب لسورية في القرن السابع الميلادي وصل الصين بعد ثماني سنوات. ولما توفي فردريك بربروسا في كيليكية سنة ١١٩٠م لم يعرف أهل ألمانية بذلك إلا بعد أربعة شهور. أما خبر أسر ريكاردوس في دلماشيا في السنة نفسها فقد وصل انكلترا بعد أربعة أسابيع. وقد لقي بروكييه قرب دمشق رسولا

وصل من القاهرة في ثمانية أيام. واجتاز الحاخام يعقوب المسافة من دمشق إلى تدمر في ستة أيام(!).

السفينة التي سافر بها ابن جبير هم من هذا المركب بمنة الله تعالى في مدينة جامعة للمرافق، فكل ما يحتاج شراؤه يوجد من خبز وماء ومن جميع الفواكه والأدم كالرمان والسفرجل والبصل والثوم والتين والجبن والحوت وغير ذلك مما يطول ذكره، عاينا جميع ذلك يباع . وفي خلال هذه الأيام كلها لم يظهر لنا بر والله يأتي بالفرج القريب. ومات فيه رجلان من المسلمين رحمهما الله فقذفا في البحر ومن البلغريين اثنان أيضا. ومات منهم بعد ذلك خلق وسقط منهم واحد في البحر حيا فاحتمله الموج أسرع من خطفة البرق. وورث هؤلاء الأموات من المسلمين والنصارى البلغريين رئيس المركب، لأنه سنة عندهم في كل من يموت في البحر ولا سبيل لوارث الميت إلى ميراثه فطال عجبنا من ذلك (ابن جبير ٣١٤).

الإذن الملكي الصادر لوليم واي بالسفر لأداء فريضة الحج: «... لما كنا قد عرفنا أن الكاهن المحبوب السيد وليم واي، أحد التابعين لكم، ينوي بنعمة الله أن يعبر البحر بعد مدة قصيرة لأداء فريضة الحج في روما والقدس وغيرها من الأماكن المقدسة، وقد تقدم إلينا متضعا بطلب الإذن للقيام بهذا الأمر فقد رأينا ان ننظر بعين العطف إلى غرضه المبارك. قد أذنا له أن يقوم بحجه، ومتى عاد يقبل تابعا لكم بنفس الطريقة والعمل الذي هو فيه الآن، والأجر السنوي وبقية ما يحق له من كليتنا أثناء غيابه، يحفظ له ليتمتع به متى عاد . وهذا الإذن

يلغـي كل أمـر يحـول دون تنفيـد هـذه الرغبـة. أعطـي تحـت ختمنـا في قلعـة كنلـورث في اليـوم الحـادي عـشر مـن آب (أغسـطس) سـنة ١٤٥٧م (واي ص ٣ مـن المقدمـة).

اتفاقيـة مـع ربـان المركـب الـذي سـافر فيـه فابـري: المـادة الأولى

- يتعهـد الربـان بـأن ينقلنـا نحـن الحجـاج مـن البندقيـة إلى يافـا مينـاء في الأرض المقدسـة - وأن يعيدنـا من يافـا إلى البندقيـة، عـلى أن يكـون حـاضرا للابتـداء في مـدة لا تزيـد عـن أربعـة عـشر يومـا.

المـادة الثانيـة - يتحتـم عليـه (الريـان) أن يهيـى سـفينة لهـا ملاحـون ماهـرون يسـتطيعون تسـييرها مهـما كان نـوع الريـح، وعليـه أن يجهزهـا بالسـلاح الـلازم للدفـاع عنهـا ضـد العـدو والقرصـان.

المـادة الثالثـة - يحـذر الربـان مـن الدنـو في مـوانىء غريبـة، فـلا يرسـو إلا في الأماكـن التـي اعتـادت السـفينة أن تحصـل فيهـا عـلى حاجاتهـا ... ويتحتـم عليـه خاصـة أن يتجنـب قـبرص لأن هواءهـا ضـارّ بنـا.

المـادة الرابعـة - يقـدم الربـان لـكل حـاج وجبتـين مـن الطعـام والـشراب يوميـا وإذا تخلـف أحدنـا عـن الحضـور إلى مائـدة الربـان لأي سـبب كان يتحتـم عـلى الريـان أن يبعـث بطعامـه وشرابـه إلى مكانـه.

المـادة الخامسـة - يجـب أن يكـون الخبـز والبقسـماط مـن النـوع الجيـد وكذلـك الخمـر، ويجـب أن يكـون المـاء عذبـا . ويلـزم أن يكـون البيـض واللحـم وبقيـة المأكـولات طازجـة بقـدر المسـتطاع.

المـادة التاسـعة - عـلى الربـان أن يحمـي الحجـاج مـن عبيـد المركـب، سـواء في البحـر والـبر.

المـادة العـاشرة - يتعهـد الربـان بـأن يسـمح للحجـاج أن يقيمـوا في الأرض المقدسـة الوقـت الـكافي فـلا يحملهـم عـلى الإسراع ، وعليـه أن يرافقهـم بنفسـه في تجوالهـم ونريـد منـه أن لا يقيـم صعوبـات في طريـق زيارتنـا لنهـر الأردن.

المـادة الحاديـة عـشرة - كل الرسـوم والنقـود اللازمـة للأمـان وللركائـب وغـير ذلـك مـن النفقـات يدفعهـا الريـان دون أن يتقاضاهـم شـيئا عـلى ذلـك.

المـادة الثانيـة عـشرة - عـلى كل حـاج أن يدفـع أربعـين دوكـة جديـدة، بحيـث يدفـع نصـف المبلـغ في البندقيـة قبـل السـفر والنصـف الآخـر في يافـا. وهـذا المبلـغ هـو كل مـا يدفعـه الحـاج لقـاء السـفرة ومـا تتطلبـه.

المـادة الثالثـة عـشرة - إذا تـوفي أحـد الحجـاج فـلا يجـوز للربـان أن يمـد يـده إلى مخلفاتـه، وإنمـا تبقـى هـذه في حـوزة الشـخص أو الأشـخاص الـذي يـوصي المتـوفى بـترك مخلفاتـه معهـم.

المـادة الرابعـة عـشرة - إذا تـوفي أحـد الحجـاج قبـل وصولـه إلى الأرض المقدسـة تحتـم عـلى الربـان أن يعيـد نصـف مـا دفعـه المتـوفى عـلى أن ينفـق المبلـغ حسـب تـواصي الشـخص الميـت.

المـادة الثامنـة عـشرة - يتعهـد الربـان بتخصيـص مـكان عـلى ظهـر المركـب يحفـظ فيـه الحجـاج الدجـاج أو الطيـور، ويتعهـد أيضـا بـأن يسـمح

طباخوه الطباخي الحجاج بطهو الطعام على نارهم متى رغبوا في ذلك (فابري : ٨٧ - ٩٠)

واي ينصح المسافرين: تدفع أجرة نقلك من البندقية إلى يافا ذهابا وإيابا وثمن الأكل والشرب على السفينة أربعون دوكة.

احمل معك ثلاثة براميل سعة كل منها عشرة غالونات، فتملأ اثنين منها خمرا والثالث ماء .

وخذ معك صندوقا له قفل، تحفظ فيه برميل الخمر وأشياء أخرى تبتاعها لنفسك كالخبز والجبن والتوابل واحمل معك بقسماطا. ومع أنك ستتناول طعامك مع الربان فإنك ستحتاج إلى ما معك من مأكولات - كالخبز والجبن والبيض والفواكه والخمر وغير ذلك، لأن الربان قد يقدم لك أحيانا خبزا أو خمرا من النوع الرديء أو ماء ذا طعم كريه. واحمل معك قدرة صغيرة ومقلاة وصحونا وكؤوسا وما شابه ذلك.

وابتع من البندقية فرشة من مكان قرب كنيسة القديس مارك. وثمن الفرشة الريش مع وسادتين ولحاف ثلاث دوكات ومتى عدت إلى البندقية فإن البائع نفسه يسترجع هذه كلها بنصف ثمنها الأصلي.

وفي البندقية يجب أن تصرف بعض الدوكات نقودا صغيرة مختلفة تتناسب مع الموانئ التي ستمر بها، حتى تتمكن من شراء حاجياتك دون صعوبة. وفي سورية في الأرض المقدسة تقبل النقود البندقية (واي ٤ - ٧ من الرحلة).

نصائح فابري للمسافرين في البحر: إذا رغب الحجاج في الحصول على شيء خاص من المطبخ، عليهم أن يعطوا الطباخين نقودا . فإنه يوجد هناك ثلاثة أو أربعة من الطباخين الذين لا يقبلون بغير النقد. ولا يقيمون وزنا للوعود. وليس ثمة غرابة في أن يسوء خلق الطباخين إذا تذكرنا ضيق المطبخ وتعدد الحلل وتنوع المطبوخات وصغر الموقد وكثرة الأصوات وارتفاعها ... واللحم الذي يقدمه الربان هو عادة رديء، لأنه يأمر بقتل الحيوانات المريضة والتي يخشي عليها من الموت (فابري ٧: ١٥٣ - ٤)

تنظيم الزيارة في سورية في القرن الخامس عشر : وليعلم الذين يرغبون في زيارة دير القديسة كاترينا أن العادة هي أن يطلب المرء من رئيس التراجمة بالقدس أن يعنى بالأمر، ويدفع لقاء ذلك ضريبة للسلطان وأجرا لرئيس التراجمة نفسه، والرئيس هذا يتصل بالترجمان الموجود في غزة وهذا يفاوض العرب المقيمين في الصحراء ويعرض هؤلاء على المسافرين استئجار إبلهم. وأجرة الواحد منها عشر دوكات ... ولما وصل الجواب من غزة بالسماح لنا جمعنا رئيس التراجمة وسألنا عن أسمائنا وأعمارنا وقيد ذلك في سجل خاص وأضاف أوصافنا ثم بعث بنسخة من هذا كله إلى الترجمان المقيم في القاهرة وهذا التنظيم يقصد منه المحافظة على حياة المسافرين فلا يستبقي العرب منهم أحدا. لكنني (أي بروكييه) مقتنع أيضا بأنهم يفعلون ذلك لأنهم لا يثقون بالمسافرين (بروكييه ٢٨٩).

تنظيـم شـؤون الحجـاج في القـدس: يعنـى بشـؤون الحجـاج في القـدس رئيـس ومسـاعده. والأول اسـمه كالينـوس والثـاني اسـمه الفاهالـو. ويقـوم هـذان بالترجمـة والإرشـاد والحمايـة والحراسـة للحجـاج المسـيحيين. وفي كل مدينـة نجـد جماعـة يمنحهـم السـلطان حـق العنايـة بالحجـاج وحمايتهـم، ويعـدون مـن موظفـي الدولـة. وثمـة تراجمـة خاصـون بالسـياح اليهـود.

وفي كل مدينـة كبـيرة، مثـل القـدس والقاهـرة، يوجـد اثنـان كـما ذكرنـا . والرئيـس يتقـاضى أجـره مـن السـياح والحجـاج، أمـا المسـاعد فيأخـذ مرتبـه مـن الرئيـس. فـإذا كان هـذان نصوحـين أمينـين، جـرت الأمـور عـلى خـير مـا يرغـب الحجـاج.

كان رئيـس القـدس رجـلا طويـل القامـة متقدمـا في السـن، غنيـا، متـين الخلـق، لكنـه كان شـديدا عـلى الحجـاج، يسـتعجلهم في تنقلهـم، ويتقـاضى منهـم النقـود في شيء مـن الجشـع. ومـع أنـه تقاعـس عـن تنفيـذ بعـض شروط الاتفاقيـة، فقـد حرسـنا ودافـع عنـا بأمانـة، وأتى لنجدتنـا لما اسـتنجدنا بـه.

أمـا مسـاعده فـكان عمـره يتجـاوز الثمانـين، وقـد كان مسـلما مسـتقيما ... وكان يؤمـن بـأن سـبيل الخـلاص الروحـي ميسـور لـكل امـرىء إذا اتبـع أصـول دينـه، وحافـظ عـلى تعاليمـه محافظـة تامـة، وكان نقيّـا في قلبـه، مسـتقيما في معاملاتـه... كان يعـرف الايطاليـة، لذلـك كنـا نتحـدث كثـيرا حـول هـذه المواضيع ... وقـد زار هـذا الرجـل فينـا ومثـل أمـام الإمبراطـور فـردرك الثالـث ثـم زار رومـا حيـث مثـل أمـام البابـا نقـولا الخامـس (فابـري: ٩ : ١٠٥ - ٧)

سـوق في الرملـة: جاءنـا الباعـة يحملـون الفـراخ المنضجـة والحليـب المطبـوخ والمعجنـات والأرز المصنـوع بالحليـب وأرغفـة الخبـز الممتـاز والبيـض والعنـب الحلـو والرمـان والتفـاح والبرتقـال والبطيـخ والتـين - الكبـير منـه والصغـير - والمسـكرات المصنوعـة مـن اللـوز والسـكر، والمـاء البـارد وجـاء بعضهـم بقواريـر جلديـة فيهـا شراب طيـب يغنـي المـرء عـن الخمـر، يسـتعمله أشراف المسـلمين. وبعـد الغـداء زرنـا أسـواق الرملـة التـي تحـوي كل المتاجـر، ثـم دخـل بعضنـا الحـمام (فابـري ٧: ٢٧٠).

في الطريـق: إن الطريـق مـن حديقـة البلسـان (قـرب (القاهـرة) إلى غـزة، وحتـى إلى القـدس، صحراويـة، لذلـك يتحتـم عـلى كل مسـافر أن يحمـل معـه عـلى دابتـه كيسـين - يمـلأ أحدهـما بالبقسـماط والثـاني بالقـش للركوبـة. وعليـه أن ينقـل معـه المـاء في قـرب مـن جلـد، لأن المـاء الموجـود في الطريـق كلـه ملـح وليأخـذ معـه ليمونـا. ويحسـن أن يسـافر قافلـة كبـيرة ليأمـن عـلى نفسـه مـن قطـاع الطـرق ... وليحـاول الأجنبـي أن يتخفـى فيتـزي بـزي أهـل البـلاد ... وليتعلـم عاداتهـم في القيـام والسـير والجلـوس... وليحـاذر أن يعرفـوه، وإلا دفـع مـا عليـه مـن الرسـوم والغرامـة (ميشـولم - ادلـر - ١٨١).

ليلـة في خـان: وصلنـا قريـة زخريـا مـع غـروب الشـمس، ودخلنـا الخـان القائـم خارجهـا. فأنزلنـا الأحـمال عـن الـدواب وأخذنـا نسـتعد لقضـاء الليلـة هنـاك وكان الخـان كبـيرا متسـعا كأنـه قلعـة كثـير الاسـطبلات والغـرف يـدور بـه كلـه سـور. ولم نجـد فيـه أحـدا . وبدأنـا نعـد طعـام العشـاء فأخذنـا نجمـع الحطـب مـن جهـات مجـاورة وانتزعنـا بعـض القطـع مـن

الأسيجة والأسوار فلحقنا أصحابها وضربونا بالحجارة ثم جاءنا جماعة من القرى القريبة يحملون الفراخ والطيور والخبز والماء فابتعنا منهم حاجتنا ونعمنا بعشاء هنيء (فابري ١٠:٤٤٧).

مرض بروكييه: في اليوم الثاني أصابتني حمى شديدة فاضطررت إلى التخلف عن رفاقي، وعدت مع أحد مرافقينا العرب إلى غزة وقد عُني بي الرجل عناية كبيرة... وقضينا ليلة في خيام العرب... ولقيت هناك ضيافة حسنة فقد أعانني أربعة منهم في الترجل، وأضجعوني على فراش كنت أحمله وعالجوني بالتمسيد والفرك، فنمت على أثر ذلك ست ساعات متوالية. ولما صحوت وجدت أن ثيابي ونقودي وبقية حاجاتي لم تمسها يد هذا مع العلم بأنني كنت أملك مئتي دوكة وحملي جملين من الحاجيات (بروكييه ٢٩٠).

بروكييه مع القافلة: وفي مساء ذلك اليوم تناولت طعام العشاء بصحبة المملوك ولم يكن لدينا سوى الخبز والجبن والحليب. وقد كان معي غطاء، وفي أثناء الأكل فرشته أمامي ووضعت عليه زادي، على عادة الأثرياء في تلك البلاد. والغطاء هذا مستدير قطره نحو أربعة أقدام وفي أطرافه قيطانات بحيث يمكن طي الغطاء وربطه كما لو كان كيسا، فيجمع فيه ما تبقى عليه من خبز أو زبيب أو ما شاكل ذلك. وقد لاحظت أن المسلمين يشكرون الله ويحمدونه على ما أكلوا بقطع النظر عن نوع الطعام (بروكييه ٣٠٠).

السفر في الصحراء: مما ينعش المسافر في الصحراء، بالإضافة إلى أشياء أخرى كثيرة، هو التنوع الذي يشعر به الواحد يوما بعد يوم، وساعة

بعـد سـاعة والتنـوع والتجـدد في الأرض والـتراب والجـو والجبـال المتباينـة الأشـكال والألـوان فيعجـب المسـافر بمـا يـرى ويرتقـب مـا سـيأتي. وفي كل وقـت تقـع العـين عـلى مـا يمـلأ النفـس إعجابـا. ولقـد شـعرت في الصحـراء القاحلـة بـسرور وغبطـة لم أحصـل عليهـما حتـى في سـهول مـصر الخصبـة (فابـري ١٠ : ٥١٢).

نصائـح رئيـس جبـل صهيـون للحجـاج الأوروبيـين: أعطيـت هـذه التعليـمات للحجـاج عقيـب وصولهـم إلى الرملـة، وبعـد إقامـة القـداس. وقـد ألقاهـا رئيـس جبـل صهيـون باللغـة اللاتينيـة وترجمهـا فابـري إلى الألمانيـة، لأن الحجـاج الذيـن كانـوا هنـاك كانـوا كلهـم ألمانيـين.

تقـع هـذه التعليمات في سـبع وعشرين مادة، وهذا أهم ما جاء فيها: -

(١) الحجـاج الذيـن جـاءوا إلى الأرض المقدسـة دون أن ينالـوا بركـة البابـا، وبذلـك حرمـوا عليهـم أن يتقدمـوا بعـد القـداس لينالـوا الغفـران.

(٢) لا يجـوز لأي واحـد مـن الحجـاج أن يتجـول في الأماكـن المقدسـة في المدينـة (القـدس) دون أن يرافقـه دليـل مسـلم، لأن عمـلا مثـل هـذا خطـر.

(٣) يجب أن يتجنب الحجاج تخطي قبور المسـلمين.

(٤) إذا اعتـدى أحـد أهـل البـلاد عـلى حـاج، فـلا يجـوز للحـاج أن يـرد عليـه بالمثـل وإنمـا يشـكوه إلى حـارس جبـل صهيـون أو إلى الترجـمان أو مسـاعده، وهـؤلاء يفعلـون مـا يرونـه مناسـبا .

(٥) يجـب أن يمتنـع الحجـاج عـن قطـع أي شيء مـن كنيسـة القـبر المقـدس أو غيرهـا مـن الأبنيـة، لأن عمـلا كهـذا يـؤدي إلى إلقـاء الحرمـان عـلى فاعلـه.

(٧) زيـارة الحجاج، يجب أن تكون منظمة.

(٩) يجــب أن يتجنــب الحجــاج المــزاح مــع الشــباب أو الأولاد الذيــن يلقونهــم في الطــرق. (١٠) عــلى الحجــاج أن يتجنبــوا النظــر إلى النســاء في الطــرق.

(٢٢) على الحجاج أن يحذروا من دخول المسـاجد والجوامع.

(٢٣) عـلى الحجـاج أن يتجنبـوا السـخرية مـن النـاس أثنـاء تأديتهـم فريضـة الصلاة.

(٢٥) يجـب أن يدفـع الحجـاج النقـود المطلوبـة منهـم دون تذمر أو سـخط، لأن الدفـع يريحهـم مـن متاعـب كثيرة (فابـري ٧: ٢٤٨ ومـا بعدها).

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة

عماد عبدالله حمدان

